أمينة الصاوي

الكعبة المشرفة

● العدد ٢٨٢ ● مايو ١٩٨٨ ●

● الماكيت .. : محمد عفت

● صورة الكعبة : تصوير مصطفى اسماعيل

بسم الله الرحمن الرحيم

" إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا
وهدى للعالمين * فيه آيات بينات *
مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا * ولله
على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا "

صدق الله العظيم




مقدمة

بقلم : الدكتور عبدالحليم محمود

شيخ الأزهر السابق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه وعمل بسنته إلى يوم الدين .. وبعد ..

فان فى تاريخ العقائد آثارا جليلة كانت محل الاهتمام والدراسة منذ زمن سالف ، وكانت العناية بها لما لها من منزلة فى حياة الأفراد والأمم ـ وبخاصة هؤلاء ـ الذين ينتمون إلى تلك العقائد على مر الأيام والعصور .

والكعبة المعظمة من هذه الآثار الجليلة ـ تاريخا وعقيدة ـ فهى أول بيت مبارك وضع للناس ، حفظه الله وامنه وباركه وجعله منارا للهداية .

(إِنَّ أَولَ بَيْتٍ وضِعَ لِلناسِ لَلَّذى بِبكةَ مُباركًا وَهدًى للعالمين ، فِيهِ آياتٌ بيناتٌ مَقامُ إِبراهيمَ ، وَمن دَخَلَـهُ كَانَ آمنًا ..) .

وقد امتن الله سبحانه على أهل هذا البلد بهذا فقال :

(أولم نمكن لهم حرمًا آمناً يُجبىَ إليه ثمراتُ كلّ شيءٍ ، رزقًا من لدنَّا ولكنَّ أكثرَهُم لا يَعلَمون) .

لقد بدأت حرمة هذا البلد منذ زمن قديم ، لا فى عهد آدم والأنبياء وحسب ، بل منذ خلق الله السموات والأرض وإلى يوم القيامة ، كما أكد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما أخرجه الإمام مسلم عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن هذا البلد حرّمه الله يومَ خلقَ السمواتِ والأرضَ ، فهو حرامٌ بحُرمَة الله إلى يوم القيامة) . وأمر اللهُ رسولَه صلى الله عليه وسلم أن يقول :

(قُلْ إنمَّا أُمِرْتُ أَن أعبدَ ربَّ هذِه البَلدةِ الذّى حَرّمَهَا) .

وقد ظهرت علامات هذا الحفظ لبيت الله الكريم على مر الأيام والعصور فلم تفن قواعده ولم ينمح أساسه الذى أُسّس عليه ، ولم تستطع قوة الغزاة أن تصل إليه قاصدة الهدم والتخريب ، وما قصة أصحاب الفيل منا ببعيد ..

لقد قصده أبرهة الحبشى على رأس جيش جرار تتقدمه جحافل القوات يتصدرها الأبطال والأفيال لهدمه وصرف الناس عنه ، وكانت كلمة عبد المطلب فى سمع التاريخ .

(أما الإبل فهى لى ، وأما البيت فله رب يحميه)

لقد حمى الله بيته ، وعبرت عن ذلك آيات القرآن الكريم فى بلاغة لا تعْدِلُهَا بلاغة :

(ألَمْ تَرَ كَيفَ فَعلَ رَبُّكَ بأَصْحَابِ الفِيلِ ، ألَمْ يَجعلْ كَيدَهُم فِى تَضْلِيلٍ ، وأرسَلَ عَليهم طيراً أبابيلَ ، تَرمِيهِم بِحجَارةٍ مِن سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهم كَعَصْفٍ مَأكُولٍ) .

وعبر عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن فتح مكة فقال :

(إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلَّط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنها لم تحل لأحد كان قبلى ، وإنما أُحِلَّت لى ساعة من النهار ، وإنها لن تحل لأحد بعدى) . . .

والبيت الحرام هو هذا البيت الذى إذا ذكر اسمه جاشت خواطر المؤمنين وزاد حنينها لزيارته تلبية لدعوة السماء :

(وَأذِّنْ فى الناسِ بالحج يأتوك رِجالا ، وعلى كلِّ ضامرٍ يأتينَ من كلِّ فجٍّ عميقٍ) .

والبيت الحرام هو هذا البيت الذى تتضاعف فيه الحسنات وتكثر فيه ويه الخيرات ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث عن بعض ذلك فيقول :

(صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه

إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه) أو كما قال ·

والبيت الحرام هو هذا البيت الذى يؤاخذ فيه العبد بنيته ـ وإن كانت شرا أو إلحادا ـ ورب العزة يقول :

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ من عذابٍ أليمٍ) ·

هذه بعض المعانى التى تقدمها الدراسة حول الكعبة المعظمة : تاريخا وعقيدة ومناسك وشعائر وأهدافا ·

وكل ذلك وغيره من هذه الدراسة ـ دون ماشك ـ يسهم إسهاما جليلا في ربط المسلم بأشرف مقدساته الإسلامية ، ويحيى في قلبه الحنين والشوق دائما إلى لقاء ربه في بيته المقدس حاجا أو معتمرا ، وفى ركوعه وسجوده ، وفى حركته وسكونه ونومه ويقظته أينما كان وحيثما حل ·

وكل ذلك من المعانى الكريمة الخليقة بأن تلقى عناية السيدة الفاضلة ـ أمينة الصاوى ، لتقديمها للمسلمين خالصة لله ولرسوله وللمؤمنين ·

والمؤلفة الفاضلة هى ابنة أستاذنا الفاضل الشيخ مصطفى الصاوى وقد حضرنا عليه أيام أن كان أستاذا مرموقا بمعهد الزقازيق الأزهرى ، وكان رحمه الله شعلة من الذكاء والعلم ، وحركة لا تفتر في العمل على النهوض بالمجتمع

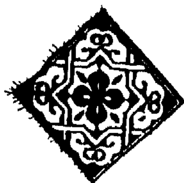
أحاديث ، ومحاضرات ، وإنتصارا لمظلوم ، ونصيحة لحاكم ٠

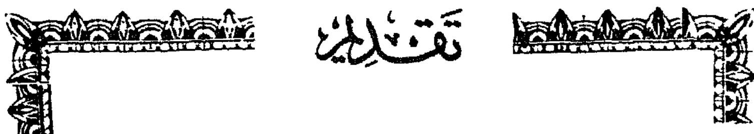
وابنته الفاضلة حينما ألفت هذا الكتاب النفيس إنما تقتبس من والدها بعض نشاطه :

والله نرجو أن ينفع بها وبكاتبها ٠٠٠

وبالله التوفيق ،،،

((دكتور/ عبد الحليم محمود))





تقديم

كتب كثيرون عن الكعبة المشرفة ـ زادها الله تكريمـًا وتعظيما ـ إفراداً بتأليف ، وتضميناً فى كتاب ، وليس هذا مجال تعداد الأسماء والمسميات ، وإنما نود أن نقول هنا : إن الكعبة هى الكعبة على رغم الأحداث والوقائع التى عاصرتها ، فمن حقها على من يعتنق دينها ، ثم أوتى حظاً من العلم أن يكتب عنها ويؤرخ ، لأننا بفضلها أصبحنا أمة تاريخ بعد أن لم يكن لنا تاريخ .

أما هذا الإسهام من الأخت الفاضلة ، الأديبة الكاتبة المحلقة « أمينة الصاوى » فهو مجهود تشكر عليه ، لعله يكون نواة لتاريخ الكعبة الكبير الذى طواه الزمن ، وغارت فى خضمه الحوادث ، فما نتبين ملامحها إلا من خلال النتف التى استطاع الزبير ان يقيدها فى أصوله ومراجعه .

وطلبت منى الأخت الكريمة « أمينة الصاوى » أن أراجع مجموعها هذا الذى هضمت واعيتها معلوماته ، ثم سكبتها فى

قالب لفظ عصريّ مفهوم ، هي المبدعة في هذا الفن إن شاءت ، وهي البارعة في الصياغة إذا أرادت ، فالقلم لها طيّع ، والخاطر عندها سانح ، وسهوّلة التعبير من مميّزاتها ، فلزمني ذلك الطلب ، وجئت أكتب هذه الكُلَيْمة ، بعد أن أجَلْتُ باصرتي في طيّات الكتاب ، وعلّقت بما تيسر وسمح به الوقت ، مع علمي بأن غيري أجدر مني بالإشادة بما عملتْ ، وأقدر على الثناءِ على ما صنعتْ ، وعلى التعليق على ما جمعتْ ، غير أني مِلْتُ عن تيقّني في عدم كتابة المقدمات والتقاريظ إلى ما رغِبتْ فيه الأديبة الفاضلة ، فثقتُها بي أولى ، ولها منا الشكر والنُّعمى .

وكتب ذلكم

أبو تراب الظاهري

عفا الله عنه





مقدمة
بقلم المؤلفة

عندما صافحتْ عيناى أنوارها لأولِ مرة انهمرتِ الدموع منها حارة غزيرة ، وراحت تغسل وجهى · ولم أنطق بكلمة واحدة مما تخيّلت أنّنى سوف أقوله عندها أو أدعو الله به ·· هربتْ منى الكلمات والدعوات ، وعبثاً حاولت أنْ أجدها ·

وعندما صافحتْهَا عيناىِ للمرة الثانية كانَ بى شوق متوهج ولهفة وحنين فاندفعت إليها بفرحة غامرة وأنا أردد الكلمات بلا نظام ولا ترتيب ، وكأننى طفل أعادوه إلى صدر أمه بعد حرمان طويل ·

ولما تكرر اللقاءُ والمصافحة وربط الود والألُفــة بينــى وبينها ·· أصبحت كلماتى عندها محددّة مركّزة ، وأصبحت جلساتى فى مواجهتها تمتد ساعات طويلة ، وقد يتصل فيها النهار بالليل ، وقد يُقضى الليل بها إلى الفجر ·· وما أعذبَ لحظاتِ الفجر عندها ·

وكنت فى جلساتى إليها أتأملها وأستعيد ما أعرف من أخبارها ، وتمنّيت فى أكثر من مرة أن أعرف كل شيءٍ عنها ٠٠ عن هذا المكان الطاهر المقدس الذى حجّ إليه الملائكة والأنبياءُ ، وفرض الله على عباده الحج إليه ، والذى جعله الله مثابة للناس وأمناً ٠٠ فيه يأمن الخائف ، ويطمئن المروّع ، وفيه تُحْقَنُ الدماءُ المهدَرَة ٠

وجعلت همّى أنْ أجمع الكتب والمراجع عن الكعبة من كل مكان ، وبكل وسيلـة ، وعندمـا حصلـت على بغيتـى ٠: (انقطعت) للقراءَة والدراسة والاطلاع والمقارنة ، وانتهيت من ذلك كله ، وذهبت إليها وقد استقرّ فى نفسى الكثير عنها ، وازداد توطّد الألفة والصداقة بينى وبينها ، ووجدتنى أقف أمام بابها مستندة إلى سياج بئر زمزم وأنا أقول لنفسى : لم يبق إلا أن أدخل إليها ، ودعوت الله أن يمنحنى هذا الشرف ٠

وعندما منّ الله علىّ بالدخول إليها أخذت أرتقى الدرج بأقصى ما أستطيع من السرعة ، وكأننى أخشى أن يحول بينى وبين الدخول حائل ٠ وعندما وجدتنى أقف على عتبة الباب أعلى الدرج شعرت بأن ماضىّ كلّه قد انفصل عن حاضرى تمامًا ، وأننى فى لحظة ليست كباقى لحظات العمر التى عرفتها من قبل ٠٠ لحظة وجود جديد ٠٠ ميلاد روحى يتم وسط أنوار تتلألأ ، وتكبيرات

وتهليلات . وتقدمت خطوات مأخوذة مبهورة . وصليّت فى كل ناحية من نواحيها ، ثم أسندت رأسى على أحد العمد وأطرقت ووجدتنى أعود بفكرى إلى بعيد .. بعيد جداً .. إلى تلك اللحظة الموغلة فى جوف الزمن السحيق .. عندما ثبّت الله سبحانه وتعالى قواعدها على الأرض لتكون أول بيت وضع للناس متعبداً ومسجداً ..

ودار شريط الذكريات أمام خيالى يعرض قصة الكعبة المعظمة التى يرويها هذا الكتاب .

أيها القارىء الكريم ..

لست أدعى أننى قد جئتك بكل ما كان من الأحداث التى دارت حول الكعبة عبر القرون والعصور .. ولست أدعى أننى قد استطعت بين دفتى هذا الكتاب أن أوجز تاريخها العريض المجيد .. ولكنها محاولة اجتهدت فيها مستندة إلى عشرات المراجع ، وفى مقدمتها جميعاً القرآن الكريم وأحاديث النبى محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

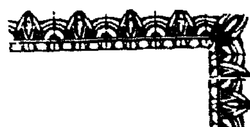
والله أسأل أن أكون قد وفقت فى عملى هذا الذى لا أبغى به غير وجه الله تعالى .

والسلام عليكم ورحمة الله ..

« أمينة الصاوى » .



بداية البداية



بسم الله الرحمن الرحيم

« وهو الذى خلق السمٰوات والأرضَ فى ستةِ أيام * وكان عرشُه على الماءِ * لِيَبلُوكم أيكم أحْسَنُ عملا ١١ : ٧ » .

(صدق الله العظيم)

كانت الكعبة غثاءً على الماءِ قبل أن يخلق الله سبحانه وتعالى السمٰوات والأرض ، ثم دحاها ـ أى بسطها ـ ثم ثبت قواعد الكعبة فى وسطها فكانت سُرَّةَ الأرض وأُم القرى .

بسم الله الرحمن الرحيم

« والأرضَ بعد ذلك دَحَاهَا * أخْـرَجَ مِنْهـَا مَاءَهـَا ومَرْعَاهَا » . ٧٩ : ٣٠ ، ٣١ (صدق الله العظيم)

والواقع أن التاريخ يقدم لنا عن الكعبة ما يملأ ألوف المجلدات والأسْفَار منذ أن ثبّت الله عز وجل قواعدها على الأرض فى ذلك العهد السحيق الموغل فى جوف الزمن إلى عهدنا الحالى .

على أن معظم الفترة الأولى من قصة الكعبة قد غاب عن واعية التاريخ أكثر تفاصيلها ـ ولكن المعروف والذى تُجمِع عليه كل المراجع أنها بنيت قبل آدم عليه السلام ، وأن الملائكة هم الذين قاموا بتشييد أول بناءٍ لها ـ وقد شيدوه تحت مركز العرش

بعد البيت المعمور · ويقول المحققون : إنه إذا ثبتت قصة البناء قبل الخليل عليه السلام فهو بناءُ تأْسيس فقط ·

ويقال : إنها كانت مُغَطَّاة بياقُوتة حمراءَ رُفعتْ بموت آدم عليه السلام ··

وعن على رضى الله عنه قال : "إن أولَ خَلْقِ هَذَا البيت أَنَّ اللهَ عَزَّ وجل قال :

"·· وإِذْ قَال ربُّك للملائِكَةِ : إنِّى جاعلٌ فى الأَرضِ خَلِيفةً قالوا : أَتجعلُ فِيهاَ من يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدمَاءَ ونحن نُسَبِّحُ بِحَمْدِك ونُقَدِّسُ لك !؟ قال : إِنى أَعْلَمُ ما لا تعلمون ٢ : ٣٠ » ·

وقال على رضى الله عنه : "ثم غضبَ سُبْحَانه وتعالى عليهم فأَعْرَضَ عنهم ، فطافوا بعرشه سبعاً ــ كما يطوف الناس بالبيت الحرام ، وبَقُوا يسترضونه من غضبه سبحانه يقولون : لبيك اللهم لبيك ·· ربنا معذرةً إليك ·· نستغفرك ونتوب إليك ·· فرضى عز وجل عنهم ، وأَوحى إِليهم (أَن ابنوا بيتاً فى الأَرض يطوف به من عبادى من أَغضب عليه فأَرضى عنه كما رضَيت عنكم)

وكانت هذه هى بداية ذلك الهتاف الخالد الذى رددته ولا تزال ترّدده الملايين عبر العصور والقرون : (لبيك اللهم لبيك ·· لبيك لا شريك لك لبيك ·· إِن الحمد والنعمة لك والملك)

آدم عليه السلام

خلق الله آدم عليه السلام من طين « من صَلْصَالٍ من حَمَأٍ مَسْنُونٍ » ثم نفخ فيه من روحه فدبت فيه الحياة وصار بشراً سوياً ، ثم خلق له زوجته من نفسه وأسكنه وإياها الجنة ·

وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى آدم أن اذكر نعمتى عليك فقد خلقتك بشراً سوياً وفضلتك على الملائكة وقررت أن أستخلفك فى الأرض لتعمرها وتصلح فيها بأمرى لا أن تفسد فيها وتسفك الدماء ·· وإياك أن تتبع إبليس فهو عدو لك ، وقد أيأسته من رحمتى وطردته من جنتى وأنزلت به لعنتى إلى يوم الدين « ·· ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ٧ : ١٩ » ···

" إن لك ألاّ تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ٢٠ : ١٨ ، ١٩ » ·

وعز على إبليس أن يطرد من رحمة الله ويبعد عن الجنة ليسكنها آدم وزوجته ، وأن يحرم من نعيمها وما فيها من سعادة وخير ·· فصمم على أن يثأر لنفسه ·· أن ينتقم من آدم وزوجته ، فراح يغريهما ويغريهما حتى أكلا من الشجرة

فلما عصى آدم وحواءُ ربهما وأكلا من الشجرة التى نهاهما عن الأكل منها قال تعالى : « وقلنا اهْبِطُوا بعضُكم لبعض عَدوٌّ ولكم فى الأرْضِ مُسْتَقرٌ ومَتَاعٌ إلى حين ، فتلقّى آدَمُ من رَبِّهِ كلماتٍ فتاب عليه إِنّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيم ٢ : ٣٦ » .

وعن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما : ابنيا لى بيتاً ، فخَطَّ لهما جبريل فجعل آدم يحفر وحواءُ تنقل التراب حتى أجابه الماءَ ، ونودى من تحته : حسبك يا آدم .. فلما بنيا أوحى الله سبحانه وتعالى إليه أن يطوف به وقيل له : أنت أول الناس وهذا أول بيت .. ثم تَتَاسَخَتِ القرون حتى رفع إبراهيم القواعد » .

وقال الفخر الرازى : إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض شكا الوحشة وقال : يارب .. مالى لا أسمع أصْوَاتَ الملائكة ولا أحسهم ، فأمره عز وجل ببناءِ الكعبة والطواف بها .

وقد بنى آدم عليه السلام الكعبة على القواعد المثبتة فى الأرض وطاف بها ، ومن بعده طاف أولاده وبقى ذلك إلى زمان نوح عليه السلام .. فقد ظل الإنسان يلوذ بالكعبة ويطوف بها وهو يردد ذلك الهتاف الخالد : (لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .. إن الحمد والنعمة لك والملك) ..



الطُوفَانُ



وكان المفروض أن تظل الحال كذلك لولا أن جاءت فترة من الزمن ارتد فيها الإنسان عن الإيمان وغلبت عليه عبادة الأوثان فى ظروف غير واضحة الرؤية ، فراح يتخبط فى دياجير الجهل والظلام .

وأراد الله سبحانه أن يعيده إلى حظيرة الإيمان فأرسل إليه نوحًا عليه السلام ينصحه ويرشده ويوجهه إلى ما فيه خيره وصلاح أمره .. ولكنه أبى واستكبر وأخذته العزة بالكفر فلم يستجب لدعوة نوح عليه السلام .. وكانت النهاية تلك الطوفان المدمر الذى لم يُبق على أحد من الكافرين والمشركين حتى وَلَدِ نوح الذى اعتصم بالجبل فلم يَعْصِمْه وغرق مع الغارقين .

وبعد هذا الطوفان اندثر موضع الكعبة وظل مختفيًا إلى أن بعث الله جبريل عليه السلام إلى إبراهيم . وكان الناس فى تلك العهد قد نسوا ربهم .. ولم يعد الإنسان يتجه إلى الكعبة أو يطوف بها أو يلبىّ عندها ، وإنما اتجه إلى الأصنام يصنعها من الحجارة أو الخشب بيديه ثم يعبدها من دون الله .

إبراهيم أبو الأنبياء

ولد إبراهيم عليه السلام فى مدينة (أُوْر) .. وكانت أمه قد جاءها فى المنام من يقول لها : ستضعين ذكراً ـ فإذا وضعته فسميه (إبراهيم) ـ ولم يكن زوجها (آزَرْ) موجودًا حين الولادة ، فذكرت مارأت فى نومها لوالد زوجها (نَاحُوَر) فقال : اسم عظيمْ .. معناه (أَبو القبائل .. أَو أَبو الأُمَم) .. وقد رأَيت فى نومى : أَن نورًا خرج من صلب ولدى آزَرَ . فأَضاءَ السماءَ .. سيكون لولدك هذا شأْن عظيم .. سيقترن اسمه بنجوم القبة الزرقاء .

وعاد الأَب من سفره وفرح بولده وبالاسم الذى أُطلق عليه .

وكَبِرَ إبراهيم ورأَى أَباه يسجد للأَصنام التى يصنعها فسأَله كيف يسجد لما يصنعه بيديه !؟ فحاول الأَب أَن يقنعه بأَنها رموز للآلهة .. أَما الآلهة الأَصلية فهى فى السماءِ جالسـة على عروشها .. فلم يقتنع إبراهيم .. فقال الأَب : صبراً يابُنَىَّ حتى تكْبَرَ ويتسع أُفق فهمك وعندئذ سوف تدرك كل شىء .

وكَبِرَ إبراهيم .. فأَرسله أَبوه إلى بيت جده (نَاحُوَر) ليتعلم الحساب واللغة والفلك وعلم النجوم .. وتميز إبراهيم على التلاميذ جميعًا وأَظهر ميلاً إلى التعمق فى دراسة

التنجيم واللّاهوت ·· واستطاع بتأملاته الخاصة أن يتعاطف مع الكون الذى يعيش فيه ·· وأن يقيم لنفسه حياة خاصة تقوم على التفكير فيما يراه بمجتمعه من صور رهيبة ··

فهؤلاء الكبار من قومه وأصحاب الرأى والفكر يعبدون آلهة من الخشب والحجر يصنعونها بأيديهم ·· وهؤلاء كَهَنَةُ المعابد يرتكبون الموبقات ويسمون العاهرات مقدسات ·· وهذا ملك البلاد قد تألّه على الناس وطالبهم بأن يسجدوا له ، وينادوه بإله الملوك ·

وهَفَتْ نفس إبراهيم عليه السلام إلى الابتعاد عن هذا المجتمع ، فاتجه إلى الصحراء وراح يقضى فيها الساعات يفكر فى صمت ·· كان يقلب وجهه فى السماء وهو يقول :

ــ لابد لهذا الكون من إله واحد ·· هو الذى خلقه ·· وهو الذى يسيره ·

وتفقده أبوه يوماً فلم يجده فبحث عنه ثم حمّلَه كمية من الأصنام وطلب منه أن يبيعها أمام المَعْبَدَ ·· وكان أبوه قاسياً معه هذه المرة ، فلم يسمح له بالاعتراض أو الرفض ، فرضخ إبراهيم وسار بها إلى المعبد ·· وهناك وقف ينادى :

ــ أيها الناس معى أصنام لا تضرُّ ولا تنفع ·· أيها الناس من يشترى بضاعة لا تضر ولا تنفع ··؟

وسمع الكَهَنةُ نداءَه وثاروا عليه وعلى أَبيه الذى حاول ضربه ، فاندفع إبراهيم يجرى هاربًا بما بين يديه حتى وصل إلى شاطىء الفرات فوضع التماثيل إلى جواره وجلس مفكراً ··· وفجأةَ خطر له أَن يَسْخَرَ من هذه الأَصْنَام فأَخذها إلى الماءِ وغمس رءُوسها فيه (وقال) :

ــ اشربوا ·· إنه ماءٌ عذب ·· لماذا لا تشربون ؟

ورآه بعضهم فنقل هذا إلى الكَهَنةِ الذين زادت ثورتهم عليه ·

وعلم أَبوه بما كان منه فغضب عليه وأَقسم أن يضربه ·· فهرب منه إلى سرداب البيت واختفى بين التماثيل الموضوعة هناك ·· ومضت الساعات وهو فى جلسته يتأَملها ·· ورأَى الحشرات على اختلافها تسعى على وجوه الآلهة تَلْعَقُ أَعينها وتدخل فى آذانها ، فقال لنفسه :

ــ عجبًا ·· كيف يسجدون لآلهةٍ لا تَمْلِكُ أَنْ تَصُدَّ عَنْهَا حَشَرَاتٍ صغيرةً حقيرةً تَعْبَثُ بها على هذا النحو ؟!·

وانطلق إبراهيم إلى الصحراءِ ثانية وفى نفسه لهفة ·· كان يريد أَن يعرف من هو الإِلَه الفعلى لهذا الكون ·· وساعده هدوءُ الصحراءِ وصفاءُ سمائها على تركيز تفكيره ، وارتفع فى السماءِ كوكب وراح يتلألأُ ·· فقال إبراهيم بفرح :

ـ « هذا ربى ٠٠٠ » ؟

ولكن الكوكب لم يلبث أن اختفى وتركه فى صحراءِ تفكيره تائهاً حائراً ٠

واستمر إبراهيم يخرج إلى الصحراءِ يراقب النجوم ليلاً ٠٠ وكلما رأى كوكباً قال : « هذا ربى » ٠٠ فإذا أَفَل الكوكبُ كفر به وعاد إلى حَيْرَتِه ٠

وقيل : إنه كان يسخر بذلك من قومه عَبَدَةِ الكواكب ويستعمل معهم فى الإرشاد أُسلوب التهكم ٠

ودخل إبراهيم المعبد يومًا وتقدم إلى تمثال الإِلَه مردوخ وانتزعه من مكانه وأَلقى به بعيداً ٠٠ فاندفع الناس حوله فى فزع من غضب الآلهةوكادوا أَن يفتكوا به ، فوقف أبوه بينهم وبينه وصرخ فيه :

ـ أَيها المجنون ماذا فعلت ؟ أَلا تخاف غَضْبَةَ الآلهة عليك ؟

واستمر إبراهيم على كراهيته لأَصنامهم حتى كَبِرَ وتزوج من ابنة عمه سَارَةَ ٠

واستيقظت سَارَةُ فى إِحدى الليالى فاذا إِبراهيم يصلى فسأَلته :

ـ ماذا تفعل ياإبراهيم ؟

ـ أُصلى لله ٠٠

ـ أإلهٌ غيرُ مَرُودخ ، وَنانًّا ، وشَمَّاش ، وآلهتنا العظام ؟

ـ إلَه لا شريك له فى ملكه ·· خلق السمٰوات والأرض وما بينها وهو القادر على كل شىء ·

ـ مَنْ علَّمك هذا ياإبراهيم ؟

ـ هدانى ربى إلى صراط مستقيم وشرح صدرى لدينه الحق ·

ـ ومن أدراك أن ربك هداك إلى هذا الدين ؟

فقال إبراهيم فى إيمان عميق :

ـ إنما أتَّبِعُ مايوحى إلىّ من ربى ·· وقد بعثنى رسولاً لأدعو النَّاس لعبادته وحده ·· وإنى أدعوكِ إلى الله الذى لا إله إلا هو.

ونظرتْ سَارَةُ إليه فى دهشة ·· فما يقوله يختلف عن كل ما عرفته من الكهان ورجال الدين ·· ولكنه يلف إلى القلب مباشرة فيضىءُ جنباته بنور جميل حبيب ·

وراح إبراهيم يدعو أباه وأمه ، ولكنهما لم يسمعا لنصيحته ويؤمنا بدعوته ، وإنما سخرا منه ·· وقال أبوه :

ـ لن أعبد إلا ماكان آبائى يعبدون ·

قال إبراهيم

ـ أنا برىء مما تعملون ·· وحسبى الله لا إله إلا هو عليه

توكلت وعلى الله فليتوكل المتوكلون

وبدأ إبراهيم يدعو الناس إلى دينه الجديد ، ولقى من قومه الجحود والنكران ٠٠٠ فاتهمه البعض بالكذب ، واتهمه البعض الآخر بالجنون !؟

وفى يوم العيد دخل الناس إلى المعبد يتقدمهم الملك ٠٠ فإذا بالأصنام كلها مُحَطَّمة إلا كَبِيرَهَا ٠٠ فعرفوا أن إبراهيم هو الذى فعل ذلك ٠٠ فَقُبِضَ عليه وقُدِّمَ للمحاكمة ٠٠٠ وَصَدَرَ عليه الحكم بالموت إحراقًا ٠٠ وأقاموا بناءً ضخماً أوقدوا فيه النار وألقوا إبراهيم إليها وسط احتفال كبير احتشد له الجميع ٠

ونجا إبراهيم عليه السلام من الموت الذى أرادوه له بفضل الله سبحانه وتعالى : « قلنا يانار كونى بَرْداً وسلامــاً على إبراهيم » .

وبعد هذه الحادثة هاجر إبراهيم من مدينة (أُوْر)"١" مع زوجته سَارَةَ وابن أخيه لوطٍ وأصحابه المؤمنين ٠٠ ودخل مدينة (حَارانَ)"٢" ٠٠ ودعا الناس إلى دينه فلم يستجيبوا ٠٠ وحاربوه حربًا لا هوادة فيها ٠٠ ثم قرروا قتله ٠٠ فأوحى إلى إبراهيم أن يخرج بأهله فيضرب فى الأرض إلى حيث يشاءُ الله ٠

(١) ويقال لها (حور) أيضا ٠ اهـ ٠
(٢) موقعها ما بين الفرات وخابور ٠

ومضت قافلة الإيمان حتى عبرت نهر الفرات وانسابت فى بادية الشام حيث دعا الناس إلى دين الله الواحد الأحد ٠٠ وحطت إلى جواره قافلة مصرية فراح يدعوها أيضاً إلى دينه الجديد ٠٠ وآمن به الكثير من أهل دمشق ومن أفراد القافلة المصرية ٠

ولم تلبث أن قامت الحرب بين إبراهيم والكهنة ، فحاول أن يدعوهم إلى السلم بالحكمة والموعظة الحسنة ٠٠ فهددوه بالرجم والعذاب الأليم ٠٠ وصمموا على القتال ٠ فقال لمن معه :

ــ أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ٠

وتراءى الجمعان وبدأ الصراع واندفع إبراهيم بين الصفوف يقاتل فى سبيل الله ٠٠ وأيد الله الذين آمنوا وألقى فى قلوب المفسدين الرعب فولوا مدبرين ٠٠ وباتت دمشق تحت سيطرة إبراهيم ٠٠ فراح ينشر الدين القويم بين ربوعها ٠٠ ويدعو إلى عقيدة التوحيد ٠٠ ثم أمر إبراهيم رجاله بالاستعداد للرحيل من جديد إلى حيث يشاءُ الله ٠

وانطلقت قافلة الإيمان التى بارك الله فيها حتى بلغت وادى (شكيم)"١" ٠٠ فاستراحوا قليلاً ثم انطلقت القافلة إلى الغرب حيث وصلت بيت إيل (بيت الله) ٠٠ حيث كان

---

(١) غير اليهود اسمها إلى سوخار ٠ ا هـ

الكَنْعَانيون الذين أزعجهم وجوده وخافوا من ميل الناس إلى دعوته فاستعانوا عليه بفرعون مصر الذى أرسل جنوده فهاجموا إبراهيم وقومه وأسروا الكثير من رجاله ونسائه وبينهم زوجته سَارَةُ ٠

ودخل قائد الجيش إلى فرعون ــ ملك مصر ــ وسجد بين يديه ثم قال :

ــ مولاى فرعون العظيم ٠٠ لقد هزمناهم شر هزيمة ٠٠ وجئنا برجالهم أسرى ونسائهم سبايا ٠٠ وفى النساء واحدة لا ينبغى أن تكون لغير مولاى ٠

فقال الملك :

ــ علىّ بها ٠٠ أسرع أيها القائد ٠٠ أُريدها على الفور ٠

وخرج القائد مسرعًا ليعود بعد قليل وخلفه سَارَةٌ التى كانت هادئة مطمئنة ، لا يتوقف لسانها عن التسبيح وذكر الله ٠٠ وما كاد الملك يرى جمالها الباهر ، وحسنها الأخَّاذ حتى أمر بإغداق الهدايا القيمة عليها والملابس الغالية والحُلِىّ الثمينة ٠٠ ولكن سارة العفيفة المؤمنة رفضت كل هدايا الملك وعطاياه وصممت على رفضها ٠

وذهل الملك لهذا التصرف منها ٠٠ وأقبل عليها يحاول إغراءَها بكل الوسائل ٠٠ ولكن عبثاً ذهبت محاولاته سُدًى ، فغضب وثار وصمم على أن يغتصبها بالقوة ٠٠ ومد يده يريد أن

يمسك بها ولكن يده شُلت قبل أن تصل إليها ·· ففزع وامتلأ قلبه بالرهبة والرعب وعاد إلى حجرته يفكر فى الأمر ·

وفى الليلة التالية ·· دخل الملك إلى حجرة سَارَةَ وراح يحاول من جديد فحدث له ما حدث فى الليلة الأولى ·· فازداد فزعه وخوفه وخرج من الحجرة مسرعًا واستدعى الكَهَنَة وشرح لهم الموقف وطلب رأيهم فقالوا :

ـ إنها شيطانة ·· شيطانة خطيرة ·

فطلب السَحَرَة وسألهم ·· فقالوا :

ـ إنها ساحرة كبيرة ·

وحَصَّنه الكهنة بما يبطل سحر الساحرين ·

ودخل الملك إلى سارة مطمئنًا إلى النتيجة، فإذا هى مستغرقة فى صلاتها ·· فوقف يتأملها حتى انتهت ثم تقدم منها وسألها :

ـ ما هذا الذى كنت تفعلينه ؟

ـ الصلاةَ ·· كنت أصلى لله سبحانه وتعالى ·

ـ الله !؟ ومن هو الله ؟

ـ ربُّ السموات والأرض ومابينهما ·· الواحد الأحد ·· الفرد الصمد ·

فضحك الملك مقهقهاً ·· فهو لا يتصور وجود إلَه واحد لهذا الكون ·· وهو يعبد عشرات الآلهة · ومد يده يريد أن يضُمَّهَا

فشُلتْ يده فصاح متوسلاً :

ــ إذا كان قولك هذا حقاً ٠٠ فَادْعِي إلَهك يطلقْ يدى

فدعت سارة ربها ، فأَطلق يده ٠٠ وبدلاً من أن يشكرها الملك على ما فعلت أخذته العزة بالإثم ، ومد يده إليها ثانية يحاول ضمها ٠٠ وهنا شُلَّت يداه الاثنتان وتجمَّد فى مكانه لا يستطيع الحركة ٠٠ فصرخ متوسلاً راجياً سَارَةَ مستعطفاً إياها أن تدعو الله مرة أُخرى مؤكداً أنه لن يفكر فى الإضرار بها بعد تلك أبدًا ٠٠ وهنا دعت سارة الله ، فأَطلق سبحانه يده ٠٠ فسألها الملك مذهولا :

ــ من أَنتِ ؟

ــ امرأة مؤمنة بالله الحق ٠٠ وقد أغار جنودك على قومى وحاربوا زوجى وأسرونى ٠

ــ ما اسم زوجك ؟

ــ إبراهيم ــ عبد الله ــ ومبعوثه بالدين القَيِّم إلى النَّاس جميعًا ٠

ــ اذهبى ٠٠ فأَنت حُرَّةٌ ٠

وخرج الملك من حجرة سَارَةَ وهو يفكر تفكيراً عميقاً فى كل ماحدث بينه وبين هذه المرأة ٠٠ واتجه إلى قاعة العرش وجلس بها لحظات وهو ما يزال مستغرقاً فى ذلك التفكير العميق ٠٠ واستأْذن

رئيس وزرائه لإبراهيم وأصحابه وقال : إنهم قد جاءوا يطلبون إطلاق سراح سَارَة زوجة إبراهيم ، وأنهم على استعداد لدفع وزنها ذهبًا . فقال الملك باهتمام ولهفة :

ـ أدخلهم على الفور .

ودخل إبراهيم عليه السلام مع رئيس الوزراءِ وخلفه بعض أصحابه إلى قاعة العرش ، وتقدموا حتى مكان فرعون ، ثم سلَّموا دون أن يسجدوا .. فهتف بهم رئيس الوزراءِ :

ـ اسجدوا للملك

فقال إبراهيم عليه السلام :

ـ نحن لا نسجد لغير الله سبحانه وتعالى .

فهمّ رئيس الوزراءِ بأن يؤنّبهم على ذلك ولكن الملك صاح فيه أن يسكت فسكت .. وهنا التفت الملك إلى إبراهيم وقومه وقال :

ـ من فيكم إبراهيم ؟

فقال عليه السلام :

ـ أنا أيها الملك .. قد جئت أفتدى امرأتى التى أسَرَهاَ رجالُك . فقام الملك إليه وأخذه بيده ثم أجلسه إلى جواره على مقعد العرش ، ثم قال له :

ـ لن أقبل فدية فيمن حفظها الله .. ويكفينى ماراَيتُ وعلمتُ من أمرها .. انا سعيد بقدومك .. وأنت ومن معك

ضيوف علىّ .. فانزلوا على الرحب والسعة .. وانْعَمُوا فى قصرى بأفضل مافيه من خِدَمَات وخيرات .

والْتقى إبراهيم عليه السلام بسَارّة واطمأَن على حالها .. وفى اليوم التالى عقد الملك له جلسة حضرها الكهنة وكبار رجال الدولة تحدث فيها إبراهيم عن الدين الذى يدعو له .. ثم دار بينه وبين الكهنة حِوَارٌ طويل قام بعده الملك وهو حائر لا يدرى من أَمره شيئاً ..

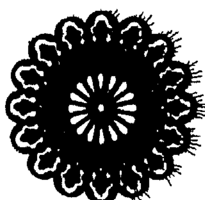
لقد استقر كلام إبراهيم فى نفسه وأدخل إليها شعاع جديد من نور قوى لم يعرف مثلَهُ من قبل .

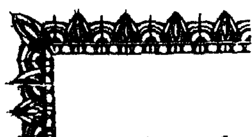
واستمر إبراهيم عليه السلام بمصر يدعو النــاس إلى الوحدانية ، وكان لطيف العبارة قوىَّ الحجة ، يستميل القلوب والعقول معًا إلى مايقول .. فأَقبل عليه الناس وأَقبل الكهنة وقد اجتنبهم دينه القويم .. ولكن حُبَّ الكهنة للاحتفاظ بالسيطرة على البلاد وعلى الملوك أَنفسهم وقف بينهم وبين اعتناقه .. وبقى إبراهيم عليه السلام ماشاءَ الله له أن يبقى فى مصر ، وزار جميع المعابد فى جميع البلاد ، والتقى بكبار الكهنة ورجال الدين وناقشهم وناقشوه ، ثم استأْذن الملك فى الرحيل وقد تأكد عنده أَن وادى النيل لايصلح فى هذه الفترة لاحتضان الدعوة التى يدعو بها ، ولن يتيح الفرصة لرسالته كى تنتشر بسهولة بسبب سيطرة

الكهان على الملوك وكبار الموظفين وتحكمهم تحكماً كاملا فى جميع مرافق الدولة وشئونها رغم أن فى عقيدة المصريين بعض مافى عقيدة التوحيد التى يدعو لها ·

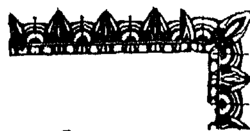
ولما علم الملك برغبته فى الرحيل حَمَّله الكثير من الهدايا والعطايا ·· كما سمح لِهَاجَرَ ان تذهب مع سَارَةَ ·· وكانت هاجر قد صادقت سارة أثناءَ محنتها بين يدى الملك ، وكانت عوناً لها فى تلك المحنة ·· كما كانت سارة قد تعلقت بها وأحبتها خاصة بعد أن حدثتها عن الدين الذى يدعو له زوجها ·· فانشرح قلب هَاجَرَ لهذا الدين وآمنت به ·

ويتحرك إبراهيم بسارةَ وهَاجَرَ ومن حضر معه وبعض من آمن به من المصريين عائدا إلى ارض كنعان ·





هَاجَرأمُ العَرَب



هى الأَميرة هَاجَرُ ٠٠ سيدةُ القُطْرَيْن ٠٠ وأَميرة مَنْف[1] وزوجة مليكها ٠٠ وكانت قد آمنت بآلهة قومها المتعددة ٠٠ تلك الآلهة التى قال عنها الكهان : إنها تحمى المصريين وتدافع عنهم وتحارب من أَجلهم ٠٠ بل تقاتل بالسلاح فى صفوفهم ٠٠ فلما حدث وهاجم الهَكْسُوسُ زوجها وخرج لحربهم لم تتخيل أَبداً أن الهكسوس ينتصرون على زوجها ويقتلونه شر قتلة ٠٠ فلما حدث هذا راحت تسأل نفسها : لماذا آمنت بهذه الآلهة التى لا تستطيع أن تفعل شيئا لمن آمن بها ؟!

ولما لم تجد عند نفسها الجواب أخذت توجه السؤال إلى الكهان واحداً بعد واحد ٠٠ وعجز الكهان عن تقديم الإجابة المقنعة ، فكفرت بتلك الآلهة التى لا تضر ولا تنفع ، والتى تعددت أَسماؤها وتنوعت وظائفها ، والتى فسد كل شىء فى الدولة بسببها ٠

ويدأت هاجَرُ تفكر تفكيراً جديداً ٠٠

وهاجم الهَكْسُوسُ قصرها ٠٠ وهرب كل من فيه من الأَهل

(١) منف ـــ هو اسم مدينة فرعون بمصر ، لم يذكرها ياقوت اهـ ٠

والخدم والحشم ·· أمّا هي فقد بقيت في مكانها ·· ودخل الجنود إلى غرفتها وعرفوا ـ من التاج الموضوع فوق رأسها ـ أنها أميرة القصر فحملوها إلى قائد الجيش الذى حملها بدوره إلى الملك ·

وما إنْ مثلت هَاجرُ بين يدى الملك حتى أهانها وأذلها وعيرها بجبن زوجها ، ثم أمر بنزع التاج عنها وضمّها في قصره إلى الحريم كباقى الجوارى ·· وامتثلت هاجر لما فرض عليها ولم تعبأ بالحال الجديدة التى أصبحت فيها ·· فقد كانت مشغولة بذلك التفكير الجديد الذى طرأ عليها ··

وللمرة الثانية وقف عقلها حائراً لا يستطيع الوصول إلى الإجابة المقنعة ·

وجاءت سَارَةُ إلى القصر وزاملتها هَاجَرُ ·· ورأتها دائمة الصلاة والذكر والتسبيح ·· وأحست هاجر بنفسها تنجذب إلى سارة فسألتها وتحدثت سارة عن دين إبراهيم ·· وكانت هَاجَرُ تستمع بكل حواسها إلى كلمات سَارَةَ ·· وشعرت بهذه الكلمات المضيئة تستقر في أعماق نفسها ·· وشرح الله قلبها لهذا الدين ·· فدخلت فيه ، وآمنت به ، واستقرت روحها الحائرة على شاطئه الأمين ·

وتَعلّمَتْ من سارة كيف تصلى وكيف تسبح وكيف تذكر الله

سبحانه وتعالى ·· وتعلقت كل منهما بالأُخرى فلم تستطع فراقها ·

وعندما جاءَ الخبر بقرب سفر سَارَةَ ابتهلت هاجر إلى الله ألا يفرق بينها وبين سَارَةَ ، وأن يجعلها ترحل معها إلى حيث تذهب ·· واستجاب الله عز وجل إلى دعائها فأمر الملك بأن تكون فى صحبة سَارَةَ عند سفرها ·

إسماعيل عليه السلام

واستقر إبراهيم مع سَارَةَ وهَاجَرَ بأرض كَنْعَانَ وسط الطائفة التى آمنت به ·· وعاشوا حياة رضية هانئة لا يعكر صفوها إلا حنين إبراهيم إلى الولد ·· ذلك الحنين الجارف الذى أقَضّ مضجعه وجعله يقضى الليالى والأيام حزيناً مفكراً ·· وكانت سَارَةُ تتألم هى الأُخرى لهذا الحرمان وتدعو الله آناءَ الليل وأطراف النهار : أن يمنّ عليها بولد تقرّ بِهِ عينُ زوجها ·· ولكن الله سبحانه وتعالى لم يستجب لدعواتها لحكمة خفيت عليها ·

ومرت السنوات والحال كذلك ·· وذات يوم دخلت سَارَةُ على زوجها صومعته التى يتعبد فيها وقالت :

ـ يعز على أن أراك حزينا على الولد الذى حرمته منى يانبى الله ٠

ـ إنها إرادة الله يا ابنة العم ٠٠ وعلينا أن نخضع دائماً لما أراده الله سبحانه ٠

وانصرفت سارة دامعة العين حزينة كاسفة البال واستأنف عليه السلام ما كان فيه ٠٠ كان يصلى ويبتهل إلى الله عز وجل أن يمن عليه برضاه وأن يتقبل صلاته ٠٠ وشعر أبو الأنبياءِ بما كان يشعر به كلما اقترب الوحى منه ٠٠ واستقرَّ فى أذنيه الكريمتين صوت يقول:

ـ ارفع عينيك إلى المشارق والمغارب فسوف يعطيك الله هذه الأرض ويورثها ذريّتكَ وسوف يجعل فى ذريتك النبوة والكتاب

وفرح إبراهيم بوعد الله سبحانه ، ولكنه كان يتساءل بينه وبين نفسه ـ كيف تكون له ذرية وهذه زوجته عقيم لا تلد ؟ وانتهى من صلاته ، فترك صومعته واتجه إلى سارةَ وقال لها :

ـ سيهب الله لى من الصالحين ٠٠ سيكون لى الولد الذى اشتهيته يا ابنة العم ٠ وفرحت سارة أيضًا ٠٠ ولكنها لم تلبث أن وجمت ٠٠ فقد تذكرت أنها قد وصلت من العمر مالا يجعلها قادرة على تحقيق رغبة زوجها ومَنْحِه الولدَ الذى يريده ٠٠ ولكنها تذكرت

أيضًا أن الله قادر على كل شيء .. فنذرت ـ كما تقول بعض الروايات ـ أن ترضعَ ألفَ طفل يوم أن تضَعَ طِفْلَهَا .

ومضت السنوات دون أن يمنحها الله الولد . فراحت تفكر فى تزويج إبراهيم بأُخرى تُنجب له ذلك الولد .. وعزّ عليها أن تفعل .. وفى نفس الوقت شقَّ عليها أن لا تفعل .. ولم تلبث أن سقطت فريسة صراعٍ جَبّارٍ أسلمها إلى حالة مرضية عجز الطب عن علاجها .. وقامت هاجَرُ أثناءَها بكل مايلزمها من عناية ورعاية .

وفكرت سارة وهى فى فراش مرضها فى هَاجَرَ هذه المؤمنةِ الصالحةِ .. وقالت لنفسها :

ـ لِمَ لا تكون هاجرُ هى الزوجةَ التى تمنح إبراهيم الولد وتمنح الأُسرة كلها السعادة ؟ لِمَ لا تكون هى الموعودةَ .. وقد أراد الله سبحانه أن يشرفها ويكرمها فيربط بين بلادها وبيننا الأسباب ؟

وقامت سارة من فراش مرضها وسارت حتى وصلت مكان هاجر فوجدتها تصلى فى إيمان وخضوع فجلست تتأملها فى صلاتها وتسترجع قصتها من البداية .. وهنا وضحت لها الحكمة الإلَهية السامية التى جعلتها تُؤسَرُ وتُنقَلُ إلى مصر حيث تتعرف بها هناك وتنطلق بها ثم تحضر معها إلى أرض كنعان حيث

تعيش معها ومع زوجها إبراهيم ·

ولم تنتظر سارة حتى تُكمِلَ هَاجَرُ صلاتها ، وإنما أخذت طريقها إلى صومعة إبراهيم ، ثم قالت له :

ــ لقد فكرت فى الأمر واستقر بى التفكير عند رأى أرجو أن تأخذ به ؟ فرفع إبراهيم عليه السلام رأسه ونظر إليها متسائلا ، بينما استطردت هى تقول :

ــ والرأى الذى استقر عليه تفكيرى هو أن تتزوج هَاجَرَ الوفيةَ الكريمةَ المؤمنةَ ، فقد تنجب لنا الولد الذى يحقق وعد الله سبحانه ، ويدخل البهجة على قلوبنا ، ويضىءُ جَنَبَاتِ حياتنا المقفرة المحرومة من الخِصْب والإِنجـــاب ·

وحاول إبراهيم عليه السلام أن يعترض عليها مبيناً لها أن هذا الفعل قد يسىءُ إليها فى المستقبل أو يكون سبباً فى شقائها ، ولكنها صممت ، فاستجاب إبراهيم ودخل بهاجَرَ ·

وحملت هاجر ، ففرح إبراهيم وفرحت الفئة المؤمنة به · وأخذت هاجر تصلى لله شكراً وتقول :

ــ ربِّ أوزعْنى أن أشكر نعمتك التى أنعمتَ علىَّ ·· ربِّ اجعله من الصالحين ؟

ونامت هاجر لياليها قريرة العين ، سعيدة بفضل الله الذى اختارها لتنجب ذرية لنبيه وخليله إبراهيم · ورأت فى نومها من

يقول لها :

ـ ياهَاجَرُ ، قد سمع الله ضراعتك ، وسوف يَهَبُ لك ولداً نكراً فَسَمِّيهِ : إسماعيل ـ أى المسموع من الله ـ لأن الله سمع صلاتك وابتهالك ، وسوف يباركه ، ويكثر نسله تكثيراً ٠

كان هذا حال هاجر ٠٠ أما سارة فقد كان لها حال آخر ٠٠ نعم لقد استيقظت الغيرة فى قلبها كأقوى ما تكون الغيرة ٠٠ وكانت ـ المسكينة ـ تجتهد فى كبتها والقضاءِ عليها ، ولكنها لم تفلح ٠٠ فذهبت إلى زوجها وقالت له :

ـ لقد دفعت إليك بهاجر ، فلما حملت ترفَّعَتْ عَلَىَّ وتعالت

فأجابها إبراهيم : هى صاحبتك تفعلين بها ما تشائين ٠

وراح عليه السلام ينكِّرها بما كان من تحنيره لها ونصحه وما كان من إصرارها وتصميمها ٠٠ ولكنها لم تهدأ ولم تستقر وظلت على غيرتها وشقائها بهذه الغيرة ٠

وجاءت اللحظة الحاسمة ، ووضعت هاجرُ إسماعيلَ ، واستقبل إبراهيم ـ عليه السلام ـ البُشرى سعيداً وراح يصلِّى لله شكراً وحمداً ٠٠

ثم اندفع إلى الطفل وحمَله بين نراعيه وهو يقول :

ـ ربِّ إنى أعيذُه بك ونُرِّيَّتَه من الشيطان الرجيم ٠

وأوحى الله إلى نبيه وخليله :

ـ قد سمعت لك فى إسماعيل إنى أُباركه وأُبارك ذريته ، يلد اثْنَى عَشَرَ أَسباطاً أُمماً ، وأَجعله أُمّة عظيمة ؟

فقال إبراهيم عليه السلام :

ـ الحمد لله الذى فضّلنا على كثير من المؤمنين ·

ثم خَرّ ساجداً لله عز وجل ·

وهكذا أَسعد ميلاد إسماعيلَ عليه السلام إبراهيمَ عليه السلامَ وقَرّتْ به عينه ـ بينما أَشعل مولده نيران الغيرة أَكثر وأَكثر فى نفس سَارَةَ العاقِرِ ـ وامتد لهيب هذه الغيرة يأْكل قلبها فى ضراوة ما بعدها ضراوة ·

وراح إبراهيم عليه السلام يحاول مع سَارةَ علّهاَ تعود إلى حالتها الطبيعية ، ولكن عبثاً كان يحاول ، فقد ازداد الْتياعها وتعاستها وأَصبحت تصرخ أَلماً كلما سمعت بكاءَ الطفل أَو ضحكه ·· ولم يعد أَمام إبراهيم إلا أَن يبعد هَاجَرَ وابنها عن البيت حتى لا تراهما سَارَةُ أو تسمع صوتهما ··

واستخار إبراهيم ربه ، فأَوحى إليه أَن يركب دابتــه ويصطحب الطفل وأُمه ويسير حيثما توجّهه العناية الإلَهية ··

ونفذ إبراهيم ما أُمر به على الفور ، وسار بهما يضرب فى الفَيَافِى والقِفار ·

ومنذ تلك اللحظة المباركة الميمونة بدأت مرحلة أُخرى من مراحل قصة الكعبة المعظمة ـ أوَل بيتٍ وُضِعَ للناس ـ ٠

وهناك عند مكة توقف إبراهيم عليه السلام عن السير ، ومكة حينذاك مكان قَفْرٌ لا حياة فيه ولا ماءَ ، ولا يكاد يُلِمُّ به سوى نفرٍ من البدو الرُّحَّل يتنقلون هنا وهناك وراءَ الماءِ والمَرْعَى ٠

وتقدم إبراهيم عليه السلام حتى وصل إلى رَبْوَةٍ حمراءَ كانت قائمة هناك وفوقها أطلال مُهَدَّمَةٌ ٠ تقدم حتى وصل الرَّبْوَةَ ٠ وهناك ترك هَاجَرَ وإسماعيلَ واتجه يريد العودة من حيث جاءَ ـ فَتَعَلَّقَتْ هَاجَرُ وهى تراه يُدير عُنق دابته عائداً ، وأمسكت بلجام الدابة وصَاحَتْ :

ـ لمن تتركنا فى هذا المكان البَلْقَعِ الذى لاحياة فيه ولا ماءَ ، ولايقصده إنسان ، ولا يَقْطُنُهُ غيرُ الوحوش والأَفاعى والهوامّ !؟

فلم يُجبها إبراهيم عليه السلام بكلمة واحدة ٠ فنظرت اليه تَسْتَرْحِمُه ، ولكنه انطلق صامتاً دامعَ العينين ٠ فصرخت من مكانها :

ـ آللهُ أمرك بهذا !؟

فأجابها إبراهيم عليه السلام :

ـ نعم ٠

فقالت هَاجَرُ ـ فى استسلام المؤمنة الصادقة الإيمان ـ :

– إذن ·· فالله لايضيّعنا ·

ومضى إبراهيم مسافة قصيرة ثم رفع وجهه إلى السماء وقال :

"رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ * رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ١٤ : ٣٧ » ·

وانطلق على طريق العودة إلى أرض كنعان "١" وقد امتلأت نفسه بالحزن والألم والخوف على فلذة كبده الذى لم تكد عيناه تكتحلان برؤيته حتى حُرِمَ مِنْه واضْطُرَّ إلى تركه وأمّه بالعَراءِ ·

ولكن إيمان إبراهيم عليه السلام كان أقوى من كُل هذا وكانت حكمته أكبر ، فصبر واحتمل ·

لقد أحس إبراهيم عليه السلام أن وراءَ هذا التوجيه الإلهى ماوراءَه من الخير للبشرية كلها ، فمضى مستسلمًا قانعا بما سوف يكون ·

أمّا هَاجَرُ ·· فقد جلست تداعب طفلها بيدهـا بينما كان عقلُها يفكّر ··· لقد شاءَت الإرادة العليا أن تكون وابنَها وحيدَيْن لاحولَ لهما ولا قوةَ وسطَ هذه الصحراءِ الجَرْدَاءِ المُقفرةِ

---

(١) هى الأرض المقدسة ، وكنعان هو ابن حام جد القبائل · ا هـ

المحَاطة بالجبال السوداءِ المخيفةِ والمرتفعات الغبراءِ الرهيبة ٠٠

وسمعتْ هَاجَرُ صوتًا مِن أعماق نفسها يؤكد لها أن العناية الإلَهية ترعاها وابنَهَا وتحيطهما بسياجٍ رحمتِهَا ٠

وانتهى اليوم الأوّل وجاءَ الليل وأعقبه فجر يوم جديد ٠٠ ثم تعاقبت الأيام والليالى ، وَنَفِد الزاد ومن بعده نفد الماءَ ٠٠ فصبرتْ هى واحتملتْ ٠٠ لكن الطفل لم يستطع الصبر ٠٠

بكى الطفل من الجوع ، ثم بكى من العطش ومع مرور الساعات تَضَاعَفَ ألمهُ من الجوع والعطش فازداد بكاؤه ٠٠ وحاولتْ هَاجَرُ أن تجد لابنها ونفسِهَا مخرجًا فَسَعَتْ نحو أقربِ الجبال وأدناها من الأرض ٠٠ سعت عَلَّهَا ترى أحداً أو تعثر على أثر لماءٍ أو حياة ٠

وخُيِّلَ إليها أن لُجَّةَ ماءٍ عند المَرْوَةِ «١» ، فأسرعت إليها حتى إذا وصلت المكان لم تجد شيئاً فعادت إلى الصَّفَا فإذا بالطفل يصرخ فى ألم مؤلم ٠

فاندفعت مرة أخرى إلى قمة الصفا وأعادت النظر وُخَيِّلَ إليها للمرة الثانية أنها ترى الماءَ عند المروة ٠٠ نعم ، لقد أذهلها

(١) جبل يعطف على الصفا ، والصفا مرتفع من جبل ابى قبيس بينهما عرض الوادى ، والصفا والمروة بين البطحاء والمسجد الحرام ٠ ا هـ ٠

الموقف وما تعانيه عن الحقيقة التى لمستها بنفسها منذ قليل ..
حقيقة السراب .. وهكذا سَعَتْ هَاجَرُ سبعة أشواط فى حالة لاشعورية باكيةَ القلب دامعةَ العين .. ولا هَمّ لها إلا أن تنقذ طفلها من الموت عطشاً .

وأعياها السعىُ ونال منها التعب والجهد ، فسقطتْ على الأرض إلى جوار الطفل وقد أيقنت بالهلاك لها وله ..

ولكن رحمة الله كانت منها ومن ولدها جِدَّ قريبة .

نعم .. لقد تفجَّرت المياه فجأة من جوف الأرض وكوّنتْ بُحيرة صغيرة تَحتَ قَدَمَي الطفل .

ونظرت هاجَرُ إلى مَصْدَرِ الصوت الذى وصل إلى سمعها ..
صوتِ المياه المتفجرةِ ورأتِ الماءَ .. ولكنها لم تصدق أُذنيها ولا عينَيْهَا .. وهتفتْ متسائلة :

ـ رباه .. ماذا أرى .. مياهًا أم سراباً ؟

فمدّتْ يدها إلى الماءِ وتأكدت منه فأسرعت فى فَرَحٍ تَبلُّ شَفَتَي الطفل ثم أخذت تَسقيه حتى ارتوى وهدأتْ نفسه فشربتْ هى الأخرى .. ثم رفعت رأسها إلى السماءِ وقالت :

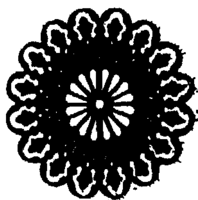
ـ أحمدك وأشكر فضلك يا إلهى .. حقــاً إنــك لن تُضيّعنَا .

وبعد أن شكرت هَاجَرُ ربَّها القادر على كل شيءٍ ، الرّحيم بعباده ·· اتجهت إلى المياه التى كانت لاتزال تتفجر ـ وقالت وهى تحاول جَمْعَهَا :

ـ زُمِّى ·· زُمِّى ··

أَى تجَمّعى تجَمّعى ولاتَضِيعى فى الرمال ··

ولم تتسرب المياه فى الرمال ، بل تفجرت بقوة أكْبر وأكبر · واندفاع أَشدَّ وأَشدَّ ·· ولا تزال تتفجر حتى يومنا هذا من عَيْنِ زَمْزَمَ التى تقع بجوار الكعبة المشرفة وعلى مقربة من جبل الصفا ـ والتى ارتوى منها ويرتوى ملايين الملايين من المسلمين ·





نحو حياة جديدة

وعاشت هاجر بولدها إلى جوار زمزم هانئة قريرة العين ··

وزارهما إبراهيم عليه السلام ورأى الصحراء المُجْدِبَة قد تحولت إلى جَنَّةٍ وارفة الظلال ·· فسجد لله شكراً ثم عاد إلى سَارَةَ يروى لها قصة المعْجزة التى تحققت وسط الصحراءِ القاحلة المقفرة ·.

ومرت على مقربة من المنطقة قافلة لقبيلة كبيرة هى قبيلة جُرْهُمٍ «١» ، فلاحظ رئيس القافلة الذى يعرف المنطقة خير المعرفة لكثرة ما مرّ بها فى رِحَلاته ·· لاحظ أن شيئًا جديدًا قد طرأ فغير أحوال المنطقة ، فقال :

ـ عجباً ياقوم ·· إننى أرى طيوراً تحوم فى سماءِ هذا المكان وعهدى به بَلْقَعاً ·· لاماءَ فيه ولانبات !

فأجاب أحد رجاله :

ـ الطيور لاتحلق إلا حيث يوجد الماءُ ·· وأغلب الظن أن عَيْناً مِن العيون قد تَفَجّرتْ قريباً من هذا المكان ·

وقررت القافلة إرسال غلامهم يتفحّصُ المكان ويحاول معرفة ماحدث ·· وانطلق الغلام ، ثم عاد بعد ساعة يقول :

---

(١) جرهم ـ حى من اليمن · ا هـ · (جمهرة الأنساب) ·

أبشروا بالخير العميم يا آل جُرْهُم ٠٠ لقد وجدت على مقربة منكم عيناً يتدفق الماءُ منها بغزارة ٠٠ وقد اخْضَرَّ المكان حولها وازدان بالثمار الشهية الزكية الرائحة ٠

فسأله رئيس القافلة :

ـ وهل وجدت عندها أحداً من الناس ؟

ـ وجدت امرأة وطفلها الصغير وقد استأذنتها في النزول بجوارها والسقي من ماء العين ؟ فقالت : نعم ، آذَنُ لكم على أن تكونوا ضيوفاً مُكرمين لا مُغْتصبين ٠

فقال رئيس القافلة :

ـ نحن على إرادتها وطوع أمرها ٠٠ هيا بنا إليها ٠

وسارت القافلة حتى بلغت مكان زمزم ٠٠ وتم التفاهم مع هاجر على البقاء إلى جوار العين ٠٠ وأرسلوا في طلب بقية أهلهم فجاءوا وأقاموا البيوت ٠٠ كما جاء العماليق «١» أيضا وأقاموا البيوت وامتلأ المكان بالسكان «٢» ٠

وإذا بالوادي المقفر المجدب الموحش ينبض بالحياة ويصبح جنة من جنان الأرض ٠

---

(١) العماليق ـ قوم تفرقوا في البلاد من ولد عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام ا هـ ٠ (معجم القبائل) ٠

(٢) ثم كانت بها ولاية القوت بن مر وملوك كندة وبني المحض بن جندل ملوك مكة ، وولاية مكسيم قبيلة عاد وغيرهم (انظر الشفاء جـ ١ ص ٢٦٢) ٠

وعاد إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى ولده وقد بلغ معه مَبْلَغَ السَّعْيِ ليطمئن على حاله وحال أمه وينقل إليهم بشرى وصول ولده الثانى إسحقَ ٠٠ فقد حملت سَارَةُ بعد كل ما كان من عُقْمِهَا وجَدْبِ رَحمها ، وولدتِ الابنَ الثانى لإبراهيم ٠٠ فهدأَت نفسُهَا وزالت عنها الغيرةُ والحقد وكل ما كانت تحمله فى تلك النفس لهاجَرَ وابنها ٠

وفرحت هاجَرُ بالخير وهَنَّأَتْ إبراهيم ـ عليه السلام ـ كما فرحت بزوال غيرة سَارَةَ وحقدها ، وتمنت لو أنها وابنها حَجَّا إلى مكة والْتَأَمَ شَملُ الأُسرة ، ولكن إبراهيم عليه السلام أفهمها أن إقامة إسحقَ وأُمِّه فى مكة غيرُ ممكنةٍ ٠٠ فكما أن لإسماعيلَ ولدِها رسالة هنا فإن لإسحاقَ مهمة أُخرى هناك ٠

ونام إبراهيم تحت دَوْحَةٍ بجوار بئر زمزم فرأى فى نومه أنه يذبح ولده إسماعيل ـ فَهَبَّ من نومه مذعوراً وأخذ يفكر فى هذه الرؤيا التى تعتبر فى مقام الوحى ، لأَن رؤيا الأَنبياءِ حق ٠

وتذكر ما كان القدامى يفعلونه بأَبنائهم ٠٠ كانوا يذبحون أَبكارَهم قرباناً للآلهة ٠٠ وتذكر أَيضًا : أَن الكَنْعَانيين لا زالوا

يقدمون دماءَ أبنائهم قرباناً لإلهَهم (بَعْلٍ) «١» . . وعزّ عليه أن يذبح ولده الحبيب ، ولكن حبه لتنفيذ أوامر ربه كان أقوى من حبه للولد . فقام يبحث عن إسماعيل ، فلما وجده أَمره أن يأْخذ سكّيناً وحبلاً وأن يتقدمه إلى جبل (ثَبيرٍ) «٢» فاندفع الولد يصعد الجبل كما أمره أبوه ، واندفع إبراهيم عليه السلام خلفه ـ وفى نفسه من الحزن والألم ما فيها . . وبينما هو يسير فى طريقه إذ ظهر له فجأة رجل كبير السن وسأله :

ـ إلى أين أيها الشيخ ؟

ـ إلى حيث أُريد .

ـ وماذا تريد ؟

ـ وما شأنك أنت ؟

ـ لقد جئت لتذبح ولدك كما رأيتَ فى نومك ! ؟

فأدرك إبراهيم عليه السلام أن هذا هو إبليس ، وأنه يعترض طريقه ليمنعه عن تنفيذ أمر ربه . . فصاح فيه بغضب

ـ أُغْرُبْ عنى أيها اللعين . . أغْرُبْ يا عدو الله فلن يمنعنى عن تنفيذ أمر ربى أحد مهما كان .

---

(١) بعل ـ هو صنم كان لقوم الياس عليه السلام . ا هـ . (تاج العروس) .

(١) جبل ثبير ـ هو ثبير منى ، أحد الأثبرة الأربعة . ا هـ . (معجم ياقوت) .

ولم يبتعد إبليس ، بل راح يحاول معه من جديد ·· فالتقط إبراهيم عليه السلام سبع حَصَيَاتٍ من الأَرض ورجَمه بهَا حتَّى اختفَى ·

وكما اعترض إبليس طريق إبراهيم عليه السلام اعترض طريق إسماعيل ، وقال :

ـ هل تدرى ماذا سيفعل بك أبوك ؟

ـ أَبى لا يفعل غيرَ الخير ·

ـ إنه يريد أن يذبحك ، لأَنه رأَى فى نومه أَنه يفعل ذلك ويزعم أن هَذا أمر الله إليه

ـ فليفعل أَبى ما أمره الله ··

ولم يقتنع إبليس بقول إسماعيل عليه السلام ، وظل يحاول إقناعه لكى يهرب من أَبيه ، ولكن إسماعيل زجره وطرده ·· فلما لم يبتعد التقط من الأَرض سَبع حصَيات وَرجمه بهَا حتى اختفى ·

ووجد إبليس اللعين أن الأَب والابن قد صَمَّمَا على التنفيذ ، وعرف أن محاولته لن تُجدى معهما فاندفع إلى هاجَرَ ·· وفى اعتقاده أَن التأْثير على المرأَة دائماً أَفعلُ وأَسهلُ من التأْثير على الرجل ـ واقترب من هَاجَرَ وقال لها :

ــ أتعرفين يا أم إسماعيل أن إبراهيم قد مضى بولدك إلى الجبل ليذبحه ؟

ــ لا ·· ما أظنه يفعل ·· إنه أرحم به وأشد حُبًّا له من أن يفقده الحياة ·

ــ إنه يقول : إن هذا أمر من الله إليه ·

ــ إذا كان الأمر كذلك فلا حول لنا ولا قوة أمام إرادة الله وعلينا جميعا أن نستسلم لها ونخضع ·

فوقف إبليس ينظر إليها فى دهشة ·· ويعجب من شدة إيمانها بالله · ولم يتحرك من المكان حتى التقطت سبع حَصَيَاتٍ من الأرض ثم رجمته بها ·

وعلى جبل ثَبيرٍ قال إبراهيم عليه السلام لولده :

ــ « إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ : أَنِّى أَذْبَحُكَ ·· فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ؟ » ·

فقال إسماعيل فى استسلام :

ــ « يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ·· ستَجِدُنى إِنْ شَاءَ اللهُ مِن الصَّابِرِينْ » ·

وقف إبراهيم عليه السلام لحظة يفكر فى الطريقة التى يذبح بها ولده دون تردد أو اضطراب ، وكأنما أحس الولد بما فى نفسه فقال له :

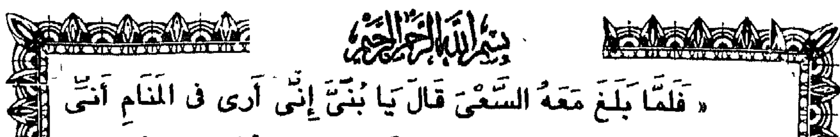
ـ يا أَبَتِ ٠٠ اشْدُدْ وثاقى واشْحَذ شفرتَك فإن الموت شديد ٠٠ وإنى لأخشى أن أضطرب عنده ٠٠ وكُبَّنى لوجهى على جبينى ولا تُضجِعْنى لشِقّى فإنى ٠٠ أخشى إنْ نظرت فى وجهى أن تأخذك الرّحمة فلا تُنفِّذ أمر الله فىَّ ٠٠ وإن رأيت أن تردَّ قميصى على أُمّى ، فافعل عسى أن يكون هذا أسْلىٰ لها عنى ٠

فقال إبراهيم :

ـ نِعْمَ الولدُ أنت يا إسماعيل ٠٠ ونعم العونُ على أمر الله

وتهيَّأَ إبراهيم للتنفيذ ومَدَّ يده بالشفرة إلى ولده ولكن رحمة الله أدركت الغلام فى اللحظة المناسبة ٠٠ رحمة الله التى أدركت إسماعيل طفلاً وأنقذته من الموت عطشاً بتدفُّقِ زمزم ، أدركتْه وقد بلغ السَعْى مع أبيه ـ فأنزلت كبشاً كبيراً نبحه إبراهيم فداءً لابنه إسماعيل عليهما السلام ٠

حقًا إنه البلاءُ العظيم ٠٠ الأَب يُوحىٰ إليه أن اذْبَحْ ولدك ٠٠ والولد يمتثل صابراً ويساعد أباه على تنفيذ أمر الذبح ٠٠ وحقًا إنها الإرادة الإلَهية الحكيمة التى شاءت أن تصِّور إحدى شعائر الحج تصويراً حسِّيًّا دقيقاً ليثبت فى أذهان الناس على مَرِّ العصور ٠٠ فكلما أقْبل العيد الأكبر نَحَرَ المسلمون الضحايا فى منى ٠٠ وفى كل مكان ٠٠ نحروها للذكرى العاطرة والعبرة وللموعظة ٠



« فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّى أَرَى فى المَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ * قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ستَجِدُنى إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابرين * فلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ للجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا * إِنَّا كَذَلِكَ نَجزِى المُحْسِنين إِنَّ هَذَا لَهُوَ البَلَاءُ المُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ٣٧ : ١٠٢ : ١٠٧ » .

(صدق الله العظيم)

زواج إسماعيل عليه السلام

وكَبِر إسماعيل واستوى رجلاً . وقرأ صُحُفَ أبيه وأخذ عن أُمه ما كان قد صَحَّحه لها أبوه من معلومات عن الحياة والكون . وما كان قد علَّمها إياه من الفلك والحساب . واشترك إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهَاجَرُ أيضًا فى نقل هذه المعلومات إلى جيرانهم منْ الجَرَاهِمَةِ والعَمَالِقَةِ وغيرهم .. وأخذ إسماعيل عليه السلام عن جُرْهُمٍ لغتَهم العربية وكذلك تعلَّمت أُمه .

واستطاع إسماعيل أن يروِّض خيولَ البريَّة المتوحشة وأن

يستأنسها ـ فكان أول من أخضع الخيول وركبها واستعملها فى تنقلاته ، وقد سرى ذلك إلى الشباب من جيرانه .

وكان إبراهيم فى كل زيارة يمده بصحف جديدة ومعلومات وتوجيهات وإرشادات ويطلب منه أن يعلمها للناس فكان يفعل ذلك .. وكانت أمه تساعده فيما يختص بالنساء .. وقد أقبل الكثيرون على هذه المعلومات فتعلموها وعملوا بها .. وكانوا ينظرون إلى إسماعيل نظرة الإكبار والإعظام رغم صغر سنّه .

ومع ذلك فقد كان إبراهيم عليه السلام يخاف على ولده من آل جُرْهُم والعمالقة .. فهو يعلم أنهم أحفادُ قومِ هُودٍ وقوم صالح عليهما السلام .. أولئك الذين لم يقدروا نعمة الله عليهم ولم يتقبلوها بالشكر ، وراحوا يتخبطون فى ضلالات الكفر والشرك ، فأخذهم عذاب من الله شديد ، وكانت عاقبتهم من أسوأ العواقب ـ ولهذا خاف على ولده منهم وفكر طويلا فى أمرهم ـ وفى النهاية أسلم الأمر كله لله سبحانه وتعالى وراح يدعوه فى جوف الليل :

«رَبِّ اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ آمِنًا واجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أنْ نعبُد الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كثِيراً مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى ، وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٤: ٣٥ ، ٣٦ » .

وفى الوقت الذى كان يفكر فيه إبراهيم عليه السلام هذا التفكير كانت هَاجَرُ تفكر تفكيراً آخر ·· كانت تفكر فى زواج ولدها ·· وكانت تريد له زوجة صالحة تكون أهلاً لإنجاب الذرية الصالحة التى وعد الله سبحانه بأن يبارك فيها ·

وقبل أن تصل هَاجَرُ إلى المرأة المناسبة لولدها كان إسماعيل قد وافق على العَرْضِ الذى تَقَدَّمَ به العماليقُ إليه ، وهو الزواجُ من (صَدًّا) «١» أجملِ فتياتِهم ، ولم تعترض هاجر على ذلك وتقبلت زواجه من صَدًّا هذه رغم أنها لم تكن راضية فى قرارة نفسها عنها ·

وانصرفت هاجر إلى العبادة وبدأت صدًّا تقوم بشئون بيتها وزوجها ، ولكنها لم تلبث أن تذمرت وأبدت السخط لانصراف هاجر إلى العبادة ·· بل سخرت منها ومن عبادتها ·

وأحس إبراهيم عليه السلام أن شيئًا غير عادى قد حدث حيث ترك ولده وزوجته هاجر ، فركب راحلته وانطلـق إلى

---

(١) صدا ـ قيل هى عمارة بنت سعد بن اسامة بن أكيل العماليقى ·١ هـ ·
(قصص الأنبياء جـ ١، ص ٢٩٥ لابن كثير) ·

وفى الروض الانف اسمها جداء بنت سعد ، وقيل عاتكة · جـ ١ ص ١٢ ، واعتقد ان (صدا) محرف من (السيدة) لانه قيل فى اسم زوجته الثانية (السيدة بنت مضاض) واختلفوا فى المطلقة منها ، والصواب انها العمليقية ·١ هـ ·

الجنوب ·· وما إنَ وصل إلى مكة حتى أسرع إلى بيت إسماعيل وطرق الباب ··

وفتحت له صدًّا ، فقرأ عليها السلام فلم ترد ·· وسألته :

ــ ماذا تريد ؟

ــ هل من منزل ؟

ــ لا ··

ــ وأين إسماعيل ؟

ــ خرج يبتغى لنا ·

ــ وكيف حالكم ؟

ــ نحن فى أسوإ حال ·· لا نكاد نجد القوت الضرورى ·· والماءُ قد غلظ ، فلم يعد يروينا أو يطفىء ظمأنا ·

فساءَه أن يكون هذا ردَّها خاصة وأنه يعلم أن الحياة لم تكن كما ذكرت ·· وإنما كانت رضية هانئة ·· ولم يعجبه أن تكون هذه المرأة زوجاً لولده الذى يعدّه لحمل الرسالة من بعده ·· فأين هى من سَارَة التى تحملت ما تحملت فى سبيله وسبيل أدائه للرسالة التى اختاره لها الله سبحانه وتعالى ؟ · وأين هى من هَاجَرَ المؤمنة الصابرة التى كان قدومها عليه خيراً وبركة ؟

وهمت صدّا إنَ تغلق الباب ·· فصاح بها :

ـ إذا جاءَ زوجك فأَقرئيه السلام ، وقولى له يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بابه ·

فلما عاد إسماعيل من الخارج آنَسَ شيئاً فسأَلَ زوجته :

ـ هل جاءَكم من أَحد ؟

ـ نعم جاءَنا شيخ مُسِنٌّ تبدو عليه آثار السفر الطويل ، فسأَلنى عنك فأَخبرته ·· وسأَلنى عن عيشنا ، فشكوت له الجهد والشدة ؟

فقال إسماعيل :

ـ وهل أَوصاك بشىءٍ ؟

ـ نعم ·· أَمرنى أَن أَقرأَ عليك السلام وأَقول لك غَيِّرْ عَتَبَةَ بابك ·

فقال إسماعيل :

ـ ذاك أَبى ·· وقد أَمرنى أَن أُفارقك ·· الْحقى الساعةَ بأَهلك ·

وعاد إبراهيم عليه السلام إلى سَارَةَ وإسحق ، والفئة التى آمنت به فى أرض كَنْعَانَ وأَقام هناك ما شاءَ الله له أَن يقيم ثم رجع إلى مكة فوجد إسماعيل متزوجاً من شَامَةَ بنتِ مُهَلْهِلٍ «١» فسأَلها :

(١) شامة بنت مهلهل ـ قيل : بنت مضاض بن عمرو الجرهمى · ا هـ ؛ وهى ثالثة واسمها : رعلة ، وقيل : هى بنت الحارث بن مضاض · ا هـ ·

ـ آين إسماعيل ؟

ـ خرج يبتغى لنا ٠

ـ وكيف أنتم ٠٠ كيف عيشكم ؟

ـ نحمد الله على ما نحن فيه من خير وسَعَةٍ ونعمة كبرى ٠

ـ ما طعامكم وما شرابكم ؟

ـ اللحمُ ، والماءُ ٠٠ ماءُ زمزمَ العَذْبُ ٠

فسَرَّهُ قولها هذا وهتف :

ـ اللهم بارك لهم فى اللحم ، والماءِ ٠ ثم قال لها :

ـ إذا عاد زوجك فأقرئيه السلام ، وقولى له يُثَبِّتْ عَتَبَةَ بابه ، فإنها صلاح البيت ٠

(قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولم يكنْ لهم يومئذ حَبٌّ ٠٠ ولو كان لهم لدعا لهم فيه) ٠

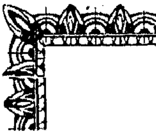
وعاد إسماعيل عليه السلام فروت له زوجته ما كان ، فقال :

ـ هذا أبى ، وقد أمرنى أن أحتفظ بك زوجة لى ٠

وقد عاشت هذه الزوجة مع إسماعيل وأنجبت له ولده الأول نابتاً «١» ، وقيل : إن الزوجة الثانية لإسماعيل كانت فتاة مصرية أرسلت أمه فى طلبها ، وأنها هى التى أنجبت له نابتاً ٠

---

(١) له منها اثنا عشر ولدا أولهم نابت وبعده قيذر وازبل وميشى ومسمع ومانش ودوصا ازر ويطور ونبش وطيما وقيذما ٠ ١ هـ ٠ (سيرة ابن إسحاق) ٠ وفى ضبط هذه الأسماء خلاف ، ولإسماعيل بنت أيضا ذكرها الطبرى اسمها : نسمة ٠ ١ هـ ٠



بناء إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل الكعبة



ولَبِثَ إبراهيم عليه السلام بعيداً عن مكة ما شاءَ الله ثم عاد إليها ، فوجد إسماعيل عليه السلام يَبْرِى نبالاً له تحت دوحة قريبةٍ من زَمْزَمَ .

فلما رآه إسماعيل أسرع إليه وعانقه فى حنان وقام له بواجب الضيافة . وبعد أَنْ استراح إبراهيم ـ عليه السلام ـ نظر إلى ولده متفحصًا ، ثم قال :

ـ يا إسماعيل إن الله أمرنى بأَمر

ـ فاصنع يا أَبَتِ ما أُمرتَ به .

ـ وتعينني يا ولدى ؟

ـ وأُعينك يا أَبت .

ـ إن الله أمرنى أن أبنى هنا بيتًا .

وأشار إبراهيم عليه السلام إلى الرَّبْوَةِ الحمراءَ المرتفعة ذات الأطلال .

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا

وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ ٢٢ : ٢٦ » ٠

(صدق الله العظيم)

وعلى الفور بدأ إبراهيم ــ عليه السلام ــ ومعه ولــده إسماعيل عليه السلام يزيلان الأطلالَ ويُطهِّرَانِ مَكَانَ البيت من الصخور والأحجار ، وعندما تم لهما ذلك وظهرتْ القواعــدُ الأساسيةُ للبيت أخذا معاً فى بنائه من جديد ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإِسمَاعِيلُ * رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَمِيعُ العَلِيم * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ٢ : ١٢٧ ــ ١٢٩ » ٠

(صدق الله العظيم)

وقد أجمع علماءُ المسلمين على أنّ المرادَ بالرسولِ الذى دَعَا إبراهيم ــ عليه السلام ــ ربه عز وجل أن يبعثه فى ذريتهِ : هو محمدُ بنُ عبد الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولذلك يقول رسولنا الكريم

« أَنَا دَعوةُ إبراهيمَ وبِشَارةُ عِيسَى وَرُؤْيا أُمِّى التى رأَتْ حِينَ وَضَعتَنِى وَقَدْ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصورُ الشَام » ٠

وكان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يَبْنى ، وإسماعيل ـ عليه السلام ـ يناوله الأحجار ، إلى أن أُقيم البناءُ واكتمل فقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ لولده :

ـ إئْتِنِى بِحَجَرٍ أضعه هنا ليكون عَلَماً للناس منه يبدأون الطواف ٠

فذهب إسماعيل ـ عليه السلام ـ إلى بطن الوادى يبحث عن حَجَرٍ مُمَيَّزٍ يصلح لهذه الغاية وتأخر فى البحث ، فجاءَ جبريل عليه السلام بالحَجَرِ الأسعد ، وكان الله سبحانه وتعالى قد أودع هذا الحَجَرَ جَبَلَ أبى قُبيْسٍ (١) فى مكة حين غرقتَ الأَرض فى طوفان نوح عليه السلام ٠٠

فوضعه جبريل ـ عليه السلام ـ فى مكانه ٠٠

وعاد إسماعيل فرأى الحجر الأسعد فأخذته الدهشة من شكله وضوئه فقد كان حجراً يَتَلألأ بنور وهّاجٍ فأضاءَ بنوره المكان من حوله ٠٠ قال إسماعيل ـ عليه السلام ـ :

ـ ما هذا يا أبَتِ ؟ ومن جاءَك بهذا الحجر ؟

---

(١) جبل أبى قبيس جبل مشرف على المسجد الحرام ، سمى باسم رجل من مذحج ، أو جرهم ٠ ا هـ ٠ معجم البلدان لياقوت ٠

قال إبراهيم عليه السلام :

ـ جاءَ به من لم يَكِلْنِي إليك .. جاءَ به جبريل ـ عليه السلام ـ يا ولدى .

وهكذا بنى إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ الكعبة المعظمة بأمر من الله سبحانه وتعالى .

وكان ارتفاع البناءِ إلى السماءِ تسعة أذرع ، وطوله من الشمال إلى الجنوب مما يلى الناحية الشرقية :اثنين وثلاثين ذراعا . ومن الشمال إلى الجنوب مما يلى الناحية الغربية أحداً وثلاثين ذراعاً ، ومن الشرق إلى الغرب مما يلى الجهة الجنوبية أى من الحجر الأسعد إلى الركن اليمانى عشرين ذراعا ، ومن الشرق إلى الغرب مما يلى الجهة الشمالية أى من جهة حِجْرِ إسماعيل اثنين وعشرين ذراعا .

وجعل للبيت بابَيْنِ ملاصقَيْنِ للأرض ، أحدهما : جهةَ الشرق مما يلى الحَجَرَ الأسعد ، والثانى : من الجهةَ الغربية مما يلى الركن اليمانى على سَمْتِ الباب الشرقى ، وحفر بداخله بئراً يكون كخزانةٍ له ، ولم يجعل له سقفاً ، ولا وضع على فتحات الأبواب أبواباً تُقْفَلُ وتُفتح .

وبعد أن انتهى إبراهيم ـ عليه السلام ـ من بناءِ البيت

جاءَ جبريل عليه السلام فأَراه المناسك كلها ، ثم قام إبراهيم عليه السلام على المَقَام فحمد الله وأَثنى عليه سبحانه بما هو أَهله ثم قال إبراهيم :

ـ يا أَيُّها الناس إِن الله عز وجلّ بَنَىٰ بيتاً فحُجُّوه ·· يا أَيها الناس أَجِيبُوا ربّكم ·· يا أَيها الناس كُتب عليكم الحج ·

فأَجابوه :

ـ لبيك اللهم لبيك ·

وقيل : إِن إبراهيم عليه السلام أَسْمَعَ مَنْ فى أصلاب الرجالِ وأرحام النساءِ ، فأَجاب من آمن ومن كان قد سَبَقَ فى علم الله تعالى أَنه يَحُجُّ إلى يوم القِيامَةِ ·

والحج الذى أَذَّنَ به إِبراهيم عليه السلام خامس أَركان الدين ودعامة من دعائم الإِسلام ·

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ استَطَاعَ إِليهِ سَبِيلا ٣ : ٩٧ » ·

(صدق الله العظيم)

وهكذا استقرت مكانة مكةَ ـ أمّ القرى ـ ببناء الكعبة المعظمة · وأَصبحت العاصمة الدينيةَ للمسلمين جميعاً ، ورسخ فى الناس اليقينُ أَن مكة بلدٌ مُكَرَّم ·

يقول ابن إسحق :

" كانت مكة لا تُقِرّ فيها ظلماً ولا بَغْياً ولا يبْغِى فيها أَحَدٌ على أَحد إلا أخرجتْه ، ولا يُريدها مَلِكٌ يَسْتَحِلُّ حُرْمَتَهَا إلاَّ هَلَكَ مَكَانَه . ويقال : إنها ما سُمِّيَتْ (بِبَكَّةَ) إلا لأنها كانتْ تَبُكُّ أَعناقَ الجَبَابِرَةِ .. أى تَكْسِرُ أعناقَهم إذا أحْدَثوا فيها شيئاً » .

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَمَنْ يُرِدْ فيه بِإلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ ٢٢ : ٢٥ » .

(صدق الله العظيم)

موت هاجر

كانت الكعبة تقف شامخة وسَط مكة والحمام يُزَامِل الذين يطوفون بها فى طوافهم .. وإسماعيل قد جلس فى ناحية من الحرم يعلّم بعض الناس أصول دينهم .. بينما جلست هَاجَرُ فى ناحية أُخرى وحولها زوجة ولدها وأَحفادُها وهى تقرأ لهم صُحف جدّهم إبراهيم عليه السلام .

ودخل شاب إلى إسماعيل وتقدم منه يقول :

ـ إن أحدَهم قد صَادَ بعضًا من حَمام الحَرَم ·

فأَرسل إِسماعيل إِلى ذلك الرجل واستقدمه وسأَله عن الأَمر فأَقسم الرجل أَنه لم يفْعل وأن كل ما اصطاده كان من خارجِ الحرم ·

وحتى ذلك الوقت لم يكن للحرم حدودٌ تَفْصِلُ بينه وبين الحِلِّ ، فَنَبَّهت هذه الواقعةُ إِسماعيل عليه السلام إلى ضرورة إِقامة حدود تفصل بين الحِلِّ والحرم ، ليكونَ الحرام بَيِّناً والحلال بَيِّنًا ·

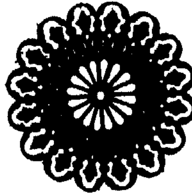
وعلى الفور قام بـإِقامة هذه الحدود ·· فجعلها من جهة الطائف على طريق عرفةَ من بطن نَمِرَةَ «١» ·· وجعلها من جهة العراق ، ومن جهة الجِعِرَّانَةِ «٢» ومن جهة جُدَّةَ ، ومن طريق التَنْعِيم «٣» ، ومن طريق اليَمَنِ ·

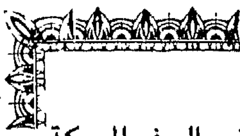
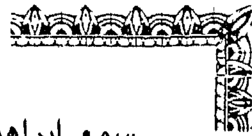
وانتظر أَن يزوره أَبوه ليَعْلَم رأْيه فيما فعل ولكن إِبراهيم عليه السلام تأَخر فى ذلك بسبب وفاةِ سَارةَ ثم زواجِ إِسحق من رَفْقاَ بنت بتوائيل ·· فركب قاصداً أَباه للتعزيـة ، وأَخـاه للتهنئة ·

(١) نمرة ـ على طرف عرفة بها انصاب الحرم · ا هـ ·
(٢) الجعرانة ـ هى بين الطائف ومكة وإلى مكة هى اقرب · ا هـ ·
(٣) التنعيم ـ موضع بقرب مكة فى الحل · ا هـ ·

ولما وصل إسماعيل عليه السلام مدينة الخليل علم أن أخاه إسحق قد رزق بولدَيْن تَوْأَمَيْن هما : عِيْصُو ، ويعقوب ·· وقد احتفل به إبراهيم وإسحق احتفالا كبيراً ·· بل احتفلت به مدينة الخليل كلها احتفالا زادها جمالا على جمالها ، ولكن إسماعيل أحس الوحشة وشعر أن كل ما فى الأرض لا يغنيه عن الوجود إلى جوار الكعبة واستلام الحَجَر الأسود والصلاة فى الحرم ·· فودع أباه وأخاه وبقية الأهل والناس وانطلق على الطريق يريد مكة ·· وما إن وصلها حتى بلغه خبرٌ أزعجه ·· ذلك أن أُمه كانت على فراش الموت تحتضر ·· وأسرع إليها فإذا هى شاخصة ببصرها إلى الكعبة تبتهل فى صمت والناس من حولها فى صمت رهيب كأنما على رؤوسهم الطير ·· وما إن وصل إلى فراشها حتى لاحت على وجهها ابتسامة خفيفة ثم لَفَظَتْ أنفاسها ، وبكى إسماعيل أُمه ، وبكى الأحفاد جدتهم ، وبكى الناس جميعًا تلك المرأة المؤمنة الصالحة التى اختارها الله أُمًّا للعرب جميعاً

ودُفنتْ هاجر فى حِجْرِ إسماعيل ·




موت إبراهيم عليه السلام


سمع إبراهيم عليه السلام بموت هاجرَ فقرر السفر الى مكة وخرج فى قافلة ضَمَّتْ كل من أَراد التعزية فى موتها وزيارةَ الكعبة المعظمة ، ولما لاَحَ لهم البيت الحرام من بُعْدٍ ارتفعت تلبيات إبراهيم ومن معه ، ولما دخلوه استقبلهم إسماعيل ثم مضوا جميعاً فاستلموا الحَجَر الأسود ، ثم طافوا طواف القدوم ثم اتجهوا إلى حِجْرِ إسماعيل فوقفوا أَمام القبر ، ثم قال إبراهيم عليه السلام :

ـ السلام عليك يا أُمَّ إسماعيل .. لقد وجدتِ ما وعدكِ الله حقاً ، وإنَّا بك إن شاءَ الله لاحقون .

وعاش الخليل إلى جوار الكعبة فترة كان همَّ إسماعيل فيها البحثُ عن زوجةٍ صالحة لأَبيه ، فقد كان فى سِنٍّ وصحة لا تسمحان له بالبقاءِ دون زوجة ترعى صَالحَه ـ وتزوج إبراهيم عليه السلام من (قنطورة بنت مفطور)«١» من العرب العاربة الذين نزلوا حول بئر زمزم ، فأَنجبْ منها : مَدَن ومَدْيَن ، وَيقْشَان ، وزَمران ، وَنشَق ، وسَرَج .

---

(١) ويقال : قنطورا بنت يقطن الكنعانية وتزوج بعدها حجون بنت امين فولدت له خمسة ٠ ا هـ ٠ كتاب التعريف والاعلام للسهيلي ٠

وانتشر دين إبراهيم ـ بواسطة أولاده الأُوَل وهؤلاءِ الذين رزق بهم أخيراً ـ فى ربوع الأرض ، وأصبح له فى كل بقعة ، من بقاعها داعيةُ يدعو باسمه إلى عبادة التوحيد .

وأحس إبراهيم بعد ذلك بأنه قد أدى الرسالة وعمل ما استطاع على تبليغ دعوة الواحد الأحد ، فركن إلى الهدوء والراحة فى مدينة (حَبْرون)"١" أو مدينة الخليل ، كما كانت تسمى

واستأذن إسماعيل فى الخروج لدعوة الناس بعد أن جعل الولاية على الكعبة وشئونها لولده نابتٍ ، فأذن له .. وطاف إسماعيل بالكعبة ، ثم ركب جواده إلى تِهَامَةَ بلاد العمالقة الجبابرة ومنها انطلق إلى اليمن ، ومازال يجوب البلاد داعيًا للدين القويم مبددًا بنوره ظلمات الجهل والخرافة التى رانت على عقول الناس طويلا حتى أسلم مَن شرح الله قلبه للإسلام ودخل فى ملة إبراهيم من قُدِّرَ له الخير والسعادة ، ثم أخذ طريقه إلى مكة ..

وهناك علم بمرض أبيه فانطلق على جواده إلى (حبرون) ودخلها وقد استسلم إبراهيم عليه السلام إلى مرض الموت وكان فى كل لحظة يفتح عينيه ويسأل من حوله : هل وصل اسماعيل ؟ ثم جاءته البشرى بوصوله ودخل إليه إسماعيل فى لهفة وقال :

(١) اسم القرية التى فيها قبر إبراهيم عليه السلام ببيت المقدس . ا هـ.

ـ كيف حالك اليوم يا أبتاه ؟

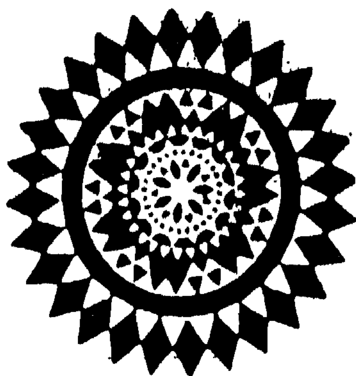
فابتسم إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى ارتياح وقال :

ـ أصبحت اليوم بارئاً بحمد الله تعالى يا بُنَىَّ .

ثم جمع أولاده وأحفاده وقال لهم :

ـ « يا بَنِىَّ إنَّ الله اصْطَفَى لكم الدِّينَ فلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنتم مُسْلِمونْ » ٢ : ١٣٢

ثم أسْلَمَ الروحَ إلى خالِقِهَا .



موت إسماعيل عليه السلام

كانَ الهُتاف الخَالد : ـ (لبيك اللهم لبيك ٠٠ لبيكَ لاشريك لك لبيك،، لبيك إن الحمد والنعمـة لك والملك ٠٠ لاشريـك لك ٠٠) ـ كان هذا الهتاف الخالد يرتفع من حناجر الألُوف من حجاج بيت الله الحرام فتهتز له جنبات مكة ٠٠ وترتجف له القلوب الخاشعة المؤمنة ٠٠

وكان نابتٌ يقوم على رعاية الحجاج ويقدم لهم كل ما يحتاجون إليه من طعام وشراب ـ بمساعدة من معه من الأهَل والصِحاب والعمال ٠٠ عندما أسرع إليه أحد العمال يعلن : أنَ المرض قد تضاعف على أبَيه ـ تلك المرض الذى أَقعده عن تأدية مناسك الحج ٠٠ فترك ما هو فيه وأسرع إلى أبَيه ليطمئن على حاله ويرى ما إذا كانت تلك الحال تسمح له بمرافقة الحجاج إلى عرفات أَم لا تسمح بذلك ؟٠٠

ودخل نابتٌ على أبَيه فوجد إِخوته جميعًا قد جلسوا إِلى جواره ـ فاتجه إِلى أبَيه وانحنى على فراشه فى حنان وحب ، ثم سأله عن حاله ، فقال إِسماعيل عليه السلام :

ـ اذهبوا ٠٠ حُجُّوا قبلَ أن لا تَحُجُّوا ٠

وخرج نابتٌ بإخوته الأحد عشر واتجهوا إلى عَرَفَاتٍ وفى نفسه ما فيها من الأسى والألم لمرض أبيه ·· ذلك الفارس العملاق الذى لم يقعده شىء فى يوم من الأيام عن العمل فى سبيل الله وفى سبيل نشر دعوته ·· وعندما وقف على عرفةَ انطلق لسانه بالدعاء للوالد الحبيب ·· ولم يتوقف لسانه عن ذلك الدعاءِ ، حتى أتم مناسك الحج جميعها وعاد بالناس إلى الحرم فطافوا بالكعبة سبعاً ، ثم تركهم وذَلَفَ إلى أبيه فما كاد إسماعيل يراه ومن خلفه إخوتُه حتى صاح :

ــ ادفنونى إلى جوار أُمى

ثم لفظ أنفاسه الأخيرة ·· فانكفأَ الأبناءُ الاثنا عشر على صدر أبيهم العظيم يبكونه ·· ويذرفون الدمع حاراً غزيراً ·

وفجأةً رفع نابتٌ رأسه وأشار إلى إخوته أن يتوقفوا عن البكاءِ وأن يستعدوا لحمل الرسالة التى بدأها جَدُّهم إبراهيم ــ عليه السلام ــ واستمر فى القيام بها أبوه إسماعيل ــ عليه السلام ــ وأصبح لزامًا عليهم أن يحملوها من بعد أبيهم ويعملوا على نشرها بين الناس وتنفيذ تعاليمها

فاستمع الأخوة وتراجعوا جميعاً ، ثم توقفوا عن البكاءِ ــ وبدأَ كل منهم يستعد للقيام بالدور الذى أُعِدَّ له ·

وظل نابتٌ على طريق أَبيه وجده ـ عليه السلام ـ وظلت ولاية الكعبة له ٠

وكانت قبيلة جُرْهُمْ قد تكاثرت في شِمال مكة حتى ملأت الفِجاجَ وجعلتها تضيق على أَصحابها الأَصليين أبناءِ إسماعيل ـ وكان على رأْسها مُضَاضُ بن عمرو الجُرهميُّ ، وهو رجل قوى الشكيمة عنيف التصرفات تعتبر كلمته بين قومه القانونَ غير المسجل ، ولا يجرؤ أحد ـ مهما كان ـ على مخالفته ٠

وكان العماليق قد غطّوا جنوب مكة ، وكان على رأْسهم السَّمَيْدَعُ «١» ، وكان رجلا طموحًا عصبيَّ المزاج يحقد على جُرْهُم لصلة النسب بينها وبين إسماعيل وأَولاده ٠٠ وكان يتحين الفرص للانقضاض عليهم والفتك بهم ٠

وقد حَرَصَ نابت على بقاء الوئام بين القبيلتين لئلا تسفك الدماءُ في البيت الحرام الذئ جُعِلَ أَمنًا للناس ومثابة وَحُرِّمَ فيه القتل والقتال ٠

وظل الأَمر هكذا حتى وافته المنية فأَوصى بالولاية لأَخيه قَيْذَرَ ، ولكن قَيْذَرَ كان شيخاً ضعيفاً لم يقو على أُمور الولاية فاستأثر بها مُضاضُ بن عمرو والجرهميّ ٠

---

(١) السميذع ـ بالدال المهملة ، وبالذال المعجمة ، وصرح بعض اللغويين : أن إعجامه خطأ ا هـ ، تاج العروس ٠

الجراهمة

عندما آلت ولاية البيت إلى مُضَاضٍ ثار السَّمَيْذَعُ وانفعل بالغضب وراح يترقب الفرص لانتزاع الولاية منه ، ولما طال به الزمن دون أن تتاح له هذه الفرصة أخذ ينافسه منافسة النِدِ للنِّدِ ..

فلما بدأ مُضَاضٌ يُعَشِّرُ[1] التجارة التى يدخل أصحابها من الشمال لينفق منها على البيت وحجاجه صَمَّمَ السميذع على أن يُعشر التجارة ممن يدخل مكة من جنوبها .. ولم يكتف بذلك بل راح يبث الدعاوات السيئة عنه وعن الجراهمة بصفة عامة .

وبلغت أنباءُ هذه الدِّعاوات سَمْعَ مُضَاضٍ ، فصممَّ على أن يقابلها بما هو أقوى .. وراح الدعاة من الجانبين يملأون جوّ الوادى المقدس بحكاياتٍ مختلفة ، وروايات صنعها خيالهم .

وكانت الغلبة لِدعاوةِ مُضَاضٍ ، إذ استطاع أصحابه أن يقروا فى نفوس معظم الناس أن نسب الجراهمة يرجع إلى مَلَكٍ من الملائكة يقال لهِ (عَرْعَرَ) هبط إلى الأرض من السماءِ فنُزعت عنه

(١) يعشر ــ أى يأخذ عشر اموالهم ١٠ هــ .

روحانية الملائكة ، وجُعل فى بعض خَلْقِ ابن آدم ..

وقد نجحت هذه الأسطورة فصدقها الناس وانتشرت بينهم انتشار الريح ، وهكذا فتحت جرهم للشيطان بابًا واسعًا يدخل منه إلى القلوب التى آمنت بالله الواحد الأحد .

وحاول السَّمَيْدَعُ أن يقضى على هذه الأسطورة ، واجتهد رجاله فى سبيل ذلك ، ولما لم يتحقق لهم ذلك قرروا شن الحرب على الجراهمة .. وقاموا يعدون الجياد ويتأهبون لخوض المعركة بكل ما لديهم من سلاح وعتاد فسُمّى المكان (أَجْيَادَ)"[١]".

وعلم مُضاضٌ ــ فى جباله بشمال مكة ــ باستعداد السَّمَيْذَع .. فخرج وأصحابه والسلاح فى أيديهم يقعقع قعقعة تتجاوب فى أرجاءِ مكة فسميت جباله (جبال قُعَيْقِعَانَ)"[٢]" .

والتقى الفريقان ودار قتال عنيف سفكت فيه الدماءُ وسالت على أرض أُمّ القرى التى حرم الله فيها القتل والقتال ــ ثم التقى مُضَاضٌ والسَّمَيْذَعُ فى صراع رهيب سقط خلاله السَّمَيْذَعُ قتيلا وفرّ

(١) اجياد ــ موضع بمكة يلى الصفا وقيل فى سبب تسميته . ان تبعا ربط خيله فيه . وقيل . كانت به خيل إسماعيل ــ عليه السلام ــ وقيل : إن مضاضا ضرب فى ذلك الموضع اجياد مائة رجل . اهـ .

(٢) جبال قعيقعان ــ اسم جبل بمكة ، سمى لقعقعة الاسلحة فيه بين قطوراء وجرهم . اهـ .

أصحابه هاربين فسيطر مُضَاضٌ وحده على مكة شِمالا وجنوباً ووقف على الجبل يخطب فى الناس ويقول :

ونحـــن قَتَلْنَـــا سَيّـــدَ الحَـــىِّ عَنْوَةً
فَأَصْبَـحَ فيهـــا وهـــو حَـيْرانُ مُوجَعُ
ومـــا كان يبْغِـــى أَن يكونَ سِواؤُنا
بهـــا مَلِـــكًا حتـــى أَتانـــا السَّمَيْذَعُ
فَـــذَاقَ وبـــالاً حـــين جاول مُلْكَنَا
وَعالَـــجَ منّـــا غُصَّـــةً تُتَجَرَّعُ
فنحـــن عَمَرْنَـــا البيـــتَ كُنَّـــا وُلاَتَه
نُدَافـــعُ عنـــه مَنْ أَتَانَـــا وَنَدْفَعُ
ومَـــنْ كَانَ يَبْغِـــى أَنْ يَلِي ذاك عِزَّنَا
ولـــم يَكُ حَىٌّ قَبْلَنَـــا ثم يَمْنَعُ
وكُنَّـــا مُلـــوكًا فى الدُّهـــورِ التـــى مَضَتْ
وَرِثْنَـــا مُلـــوكًا لا تُرامُ فَتُوضَعُ

ونزلت جُرْهُمٌ من أعالى الجبال وراحت تطوف بالبيت وهى تنشد :

لاهُـــمّ «١» إِنَّ جُرْهُمًـــا عِبادُكا
القـــومُ طَرْفٌ وهُـــمُ قِلادُكا

---

(١) لاهم ـ أى اللهم . ا هـ .

ورأى بنو إسماعيل الذين أحْجَموا عن الاشتراك فى القتال لحساب أَحد الطرفين ــ رأْوا أَن المشاحنات لن تنتهى بين الطرفين وأَن الفتنة تطل برأسها فمشوا بالصلح بين جُرهم والسَّميْذَعِيّين واستجاب الطرفان للصلح · وقام مُضاضٌ فَنَحَرَ وطبخ وأَطعم كلّ من حضر ذلك الصلح ــ وهكذا استقرت الأَمور لمُضَاضٍ ، وانتهى أول قتال دمويٍّ وقع فى الوادى المقدس ·

ولما خلا الجو لجُرْهم بغوا وطغوا وأَكلوا أَموال الكعبة واستأْثروا بما يُهدى وفَرَضُوا الإتاواتِ على الحجاج والمُعتمرين والقوافل التجارية التى تمر بمنطقة مكة ·· وأَقامت جُرْهم نَحْوَ ثلاثمائةِ سنةٍ لا ينازعها فى ولاية البيت أَحد ·

وقد أَصاب الكعبة خلال هذه الفترة تصَدُّعٌ وانهيارٌ لبعض جدرانها بسَبب السيول ·· فقامت جُرْهمٌ بإصلاحها وترميم الجدران التى تصدعت منها وزادت فى ارتفاع بنائها ·

ومدَّ الله الجراهمةَ فى طغيانهم يَعْمهُونَ فترة من الزمن أَحدثوا خلالها فى الكعبة أَحداثاً عظاماً ·· فقد أَقاموا الأَصنام من حولها ·· أَصناماً صنعوها بأَيديهم من الحجارة والخشب ·· وكان أَولَ من جلب هذه الأَصنام إلى الكعبة ــ وحرض الناس على أَن يعبدوها ويجعلوها واسطة بينهم وبين

اللَّه ــ هو عمرو بنْ لُحَيٍّ جَدُّ خُزَاعةَ الأَعلى»[١] ٠٠ وقد وافقت جُرْهُمُ على ذلك واتخذت لنفسها أَصنامًا تعبدها وضعتها في جوف الكعبة وتَبِعَتْهَا القبائل ٠٠ فصار لكل منها صنَمٌ تَتَقَرَّبُ به إلى رب الناس ٠

وقد أَجمعت المراجع والمصادر جميعها على ارتكابهم الفواحش والموبقات على مقربة من الكعبة المعظمة ٠

وقالت عائشة أُم المؤمنين رضى الله عنها :

(مازِلْنَا نَسْمَعَ أَنَّ إِسافًا ، ونائلةَ[٢] كانا رجلا وامرأَة من جُرْهُمٍ أَحْدَثَا في الكعبةِ ، فَمَسَخهما الله حَجريْنِ ، لاعتدائِهما على حُرْمَةِ الكعبة) ٠

وكثرت السَّرِقَاتُ داخل البيت ولم يعد الناس يَأْمنُونَ على أَموالهم إِذا دخلوه ، بل إِن بعضَ أَهلِ جُرْهُم كان يسرق أَموال الكعبة ذاتِها ٠

وقيل : إِن سارِقًا من جُرْهُم دخل البئر التى فيها كنوز الكعبة وحمل منها ما استطاع حملَه وأَراد الهرب بها ٠٠ وهنا سقط فوقه حَجَرٌ ضخمٌ فَحَبَسَهُ داخلَ البئر ، فصاح مستغيثاً

---

(١) انظر خبر بحثه عنها في جدة في تاريخها للانصارى في المقدمة ٠ ١ هـ

(٢) هما ٠ إساف بن يعلى ، ونائلة بنت زيد ٠ ٤ هـ ٠ الأصنام للكلبى ص

ـ أدركونى ·· أغيثونى ·· النجدة يا قوم ؟

والتف حوله بعض من كانوا يطوفون بالكعبة وحاولوا رفع الحَجَرِ الضخم عن صدر الرجل ولكن الحجرَ أبى أن يتزحزح وظلَّ جاثمًا فوق صدر الرجل وهنا سأله أحدهم :

ـ ما هى قصتك أيها الرجل ·· لا شك أنك قد ارتكبت جُرْمًا بالكعبة ، أو أحدثت فعلا ظالماً ؟

فأجاب اللصّ باكياً :

ـ نعم،، لقد دخلت بقصد السرقة من مال الكعبة وكنوزها فسقط علىّ هذا الحجر ، فحُبِسْتُ على هذا النحْوِ ···

وأخذ اللصُّ يستعطف الرجال أن ينقذوه ويعلن توبته مؤكدًا أنه لن يعود إلى ما فعل ثانية ·

وهنا استطاع الرجال زحزحة الحَجَرِ عن فتحة البئر وإخراج الرجل سالماً ·

ورغم هذا فقد تكررت محاولات الجُرْهُميّينَ لسرقة أموال الكعبة وكنوزها ·· وهنا بعث الله سبحانه وتعالى حَيَّة ضخمة لها رأسٌ كرأس الجدْيِ بيضاءَ البطن سوداءَ الْمَتْنِ فكانت فى البئر خمسمائة عام ، انقطعتْ فيها السرقاتُ تماماً ·

وظلت جُرْهُمُ سادرة فى غيهَا إلى أن سَلّطَ الله سبحانه وتعالى عليها خُزاعةَ "١" فحاربتْهَا وانتصرتْ عليها ، وأَخرجت جبابرتَهَا من مكة أذلة صاغرين .

ــ وفى هذا يقول شاعرهم .

وَقائلَةٍ والدَّمْعُ سَكْبٌ مُبادِرُ
وقد شَرِقَتْ بالدَّمْع منها المَحاجِرُ :
كأَنْ لم يكنْ بينَ الحَجونِ "٢" إلى الصفا
أَنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكةَ سامِرُ

فقلتُ لها والقلبُ منّى كأنما
يُلَجْلِجُه بين الجَنَاحَيْنِ طائِرُ :
بَلى ، نحن كنّا أَهلهَا فأزالَنا
صُروفُ الليالى والجُدودُ العَواثِرُ
وكنّا وُلاةَ البيتِ من نابتٍ أَتَى
نَطُوفُ بذاكَ البيتِ والخيرُ ظاهِرُ
فَأَخْرَجَنَا منها المليكُ بقُدرةٍ
كذلك بالأَحْوَالِ تَجْرِى المَقَادِرُ

(١) من ولد عمرو بن لحى . ا هـ . القصد والأمم لابن عبدالبر .
(٢) الحجون ــ مرتفع بأعلى مكة عنده مدافن أهلها . ا هـ .

فَسَحَّتْ دموعُ العين تَبْكِى لبلْدَةٍ
بها حَرمٌ بَادٍ وفيها المَشَاعِرُ

خزاعة

وَلِيَتْ خُزَاعَةُ البيتَ وأَهلُ مكةَ غارقون فى وثنيّتها والناس قد انحرفوا عن طريق الله الواحد الأحد ، واجتهدوا فى عبادة الأصنام التى تكدّست داخل الكعبة وخارجها ، بل وأصبحت لها كَعَباتٌ خاصةٌ بها ·· فكان لمناةَ بيتٌ ·· وللعُزَّى بيتٌ ·· وفسد الاعتقاد بين الناس ، إلاَّ فئةً منهم ظلوا يتعلقون بالسماءِ ويسبّحون الله الواحد الأحد ·· وَعَقُمَتْ نِساءُ مكة فلم تَعُدْ تُنجب رجالاً يستطيعون إنقاذ هؤلاءِ الملحدين من إلحادهم ، وكَثُرَ فيها العَرَّافون والمُنَجمون والكُهّان الذين يبيعون للناس بركات الآلهة ·· وبدأت حضارتها تنهار رُويدًا رويداً !!

وكان فِهْرُ بن مالكٍ زَعيمُ قريش يُهْرع إليه الناس ليحكم بينهم فيما شَجر من خلافات ، ويلجأون إليه ليشير عليهم ويوجههم التوجيه الصحيح ·· وكانت خُزَاعةُ تنظر إلى فِهْرٍ ومن معه منَ آل قريش نظرة توجّس وخيفةٍ ·· حقاً إن ولاية البيت فى خزاعة ولكن قريشاً صاحبة الحقّ الأول فى ولاية البيت تزداد عدداً ومالا وشرفاً فى كل يوم ·

وكانت خزاعةُ تتوقع أَن تَنْقَضّ عليها قريش فى يوم من الأيام وتنتزع هذه الولاية وزاد من خوفها أَن بعض القُرشِّيين قد هجروا أَعمالهم وانقطعوا فى الحرم لتدريس الدين الصحيح ·· دينِ إِبراهيم الحنيف ·

فما إن جاءَ تُبّعُ الأَول «١» يريد هدم الكعبة وتخريبها حتى احتالت خزاعةُ على قريش فجعلتْهاَ فى مقدّمة الجيش الذى خرج لقتاله ·

وكانت النتيجة أَن هُزم تُبَّعٌ وعادَ مقهوراً مدحوراً ·

ومن بعده جاءَ تُبّعٌ الثانى فتصدَّى له نفس الجيش وكانت الهزيمة من نصيبه أَيضاً ·· وسقط فى هذه المعركة قيسٌ حفيدُ فِهْرٍ قتيلاً ·

ومن بعده جاءَ تُبَّعٌ الثالث ·· ويُسَمَّى تُبَّعاً الحِمْيَرِىَّ · وكان نفر من هُذَيْلٍ يحقدون عليه ويتمنون زوال ملكه ·· فقال له كبيرهم :

ـ أَيها الملك ·· هل نَدلُّك على بيت مال داثر أَغفلتْه الملوكُ من قبْلِك ؟

ـ إِذا كانت الملوكُ قد أَغفلتْه ·· فما حاجتى أَنا إليه ؟

---

(١) التبابعة : هم ملوك اليمن ، ولا يسمى بهذا اللقب إلا إذا كانت له حمير وحضرموت · ١٠ هـ · تاريخ الحضارة ·

ـ لو عرفت ما فيه أيها الملك ٠٠ ووقفت على حقيقة كنوزه وتُحفه ٠٠ لما قلت هذا القول ٠٠ هذا البيت فيه من اللؤلؤ والزَّبَرْجَدِ والياقوت والذهب والفضة وفيه من التحف والهدايا ٠٠ مالا يستطيع حمله مئات من الرجال الأشداءِ الأقوياءِ ٠

وَيَنْبَهِرُ الملك بما يسمع من الهُذلىِّ فيطلب المزيد من الإيضاح ٠ فيقول الهُذَلِىُّ "١" :

ـ إنه بيتٌ بمكة يعظمه العرب جميعاً ويَفِدون إليه وينْحرُون عنده ٠٠ ويعتمرونه ويَحُجُّونه ٠ وأنت أولى أن يكون ذلكَ البيت وشَرَفُه وذكره لك ٠٠ والرأْى عندى أيها الملك أن تسير إليه فتُخرِّبَه ثم تبنى عندك بيتاً كبيراً مماثلا يتحول إليه حجاج العرب جميعاً وتتحول إليه بالتالى الأموال والهدايا والكنوز التى يحملونها ٠

ويقتنع تُبَّع الحِمْيَرىُّ بهذا الرأى ويخرج على رأس جيش ضخم يريد تخريب الكعبة وهدمها ٠٠ ولايكاد يقترب من مكة حتى تَهُبَّ عليه وعلى جنوده عاصفةٌ هوجاءُ من تلك العواصف الحاملة للرمال فتُحولَ بياضَ النهار إلى سوادٍ وتجعله والجنودَ يدورون حولَ أنفسهم فى دَوَّامات عنيفة رهيبة !!

ويُذْهَلُ تُبَّعٌ ويأمر بإحضار الأحبار ليسألهم عن سرِّ هذا

(١) الهدلى ـ نسبة إلى ابى حى من مضر ، والهذلى اصوب من الهذيلى ٠ ا ٠ هـ ٠

التغير المفاجىء فى الجو والغريب على المنطقة ، فيقول كبيرُهم :

ـ لقد جئت أَيها الملك تريد التخريب والتدمير لبيت لم يقْوَ أَحدٌ من قَبْلُ على مَسِّه بسوءٍ . وهذه غَضْبَةُ السماءِ أَرسلتها إلى الأَرض فى صورة هذه العاصفة الهوجاء .

ولايقتنع الملك بهذا القول وينتظر حتى تهدأَ العاصفة تماماً ثم يعاود السير بجنوده نَحْوَ مكة ..

ولا يكاد يتقدم أَميالا حتى يصابَ بمرض ثقيل غريب لايستطيع أَطباؤه له علاجاً . فقد تَقَيَّحَ رأَسهُ وانبعثَ منه صديدٌ له رائحة شديدة الكراهية جعلت الجميع يَنْفِـرُون منـه حتـى الأَطباءُ .. فيستقدم الأَحبارَ مرة أُخرى ويسأَلهم الإنقاذ ؟ فيقول له كبيرهم نفسَ القول ويضيف :

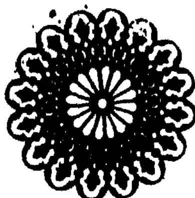
ـ لقد أَراد الهُذَلِيُّونَ هلاكك أَيها الملك وهلاك جنودك .. فنحن لانعلم بيتاً لله اتخذه فى الأَرض لنفسه غير الكعبة التى نصحوك بهدمها ـ ولئن فعلت لَتَهْلَكَنَّ ولَيَهْلكَنَّ مَنْ معك جميعاً .

وهنا يتراجع الملك عن عزمه نهائياً ويطلب من الأَحبار مزيداً من النصح فيشيرون عليه أَن يطوف بالبيت ويعظمه ويكَرِّمه ويَحْلِقَ رأْسه عنده وَيَذِلَّ حتى يخرج منه .. فيوافق الملك على الفور ويأْمر بقطع أَيدى وأَرجل الهُذَلِيِّينَ وضرب أَعناقهم .

ويذهب الملك تُبَّع الحميريّ إلى البيت فيطوف بالكعبة معظّماً لها وينحرُ عندها ويحلق رأسه ثم يقيم بمكة ستة أيام ينحر فيها للناس ويسقيهم العسل ثم يُحْضِرُ أفخرَ الثياب ويقوم بعمل كسوة للكَعْبة منها .. كمَا يقوم بوضع أبواب لها بمفاتيح تُفْتَحُ وتُغْلَقُ حَسْبَ الحَاجة .

وأكثر من هذا فإنه يَضَعُ شِعراً فى الكعبة يقول فيه «١» :

وكَسَوْنَـا البيـتَ الـذى حَرَّمَ الله
مـلاءً مُنَضَّـداً وبُرودَا
ونَحَرْنَـا بالشِعْـب «٢» سِتـةَ آلْفٍ
فتَـرى النـاسَ نَحْوَهـن وُرودَا
ثم سِرْنَـا عنـهُ نَؤُمّ سُهَيْلاً «٣»
فرفَعْنَـا لِوَاءَنَـا مَعْقُودَا



(١) انظر السلوك والتبر المسبوك للمقريزى ١٠ هـ .
(٢) هماشعبان فى مكة شعب بنى عامر وشعب على ولم يذكرهما ياقوت ١٠ هـ
(٣) نجم عند طلوعه ينقضى الصيف عند العرب وتنضج الفواكه ١٠ هـ .

كانت خزاعة تريد من وضع قريش فى الصف الأَول من جيشها الذاهب لقتال التَبَابِعَة أَن تقضى عليها أو على معظم رجالها ·· ولكن فألَهَا خاب ·· وبدلاً من أَن يهلك القريشيون فى هذه الحرب انتصروا وكسبوا المجد والشهرة بين العرب وأَصبح لهم الشرف الرفيع يتحدث عنه وعنهم كما تحدثوا من قبل عن أَبيهم مالكٍ وجدِّهم النَّضْرِ بن كنانة ·

وكان جدهم قد اجتهد حتى جمعهم وَلَمَّ شملهم ووحد صفوفهم وأَعادهم مرة أُخرى إلى بيت الله الحرام الذى كانوا قد تركوه تحت ضغوط قبيلة جُرْهُم ·· وقد أَطلق عليه العرب منذ ذلك الحين كلمة قريش : نسبة إلى (تَقْرِيشِهِمْ) ·· أى تَجْمِيعِهِم ·

وكان مالِكٌ أَبوهم هو الذى تَجَرَّأَ على مواجهة (سَابُوَرَ) ذى الأَكتافِ ـ الذى كان ذكره يَبُثُّ الرعب بين العرب جميعًا ـ وقد ذهب إليه ليناقشه فى عدوانه للعرب وقال له بعد أَن أَخذ منه الأَمان لنفسه :

ـ جئت أَسأَلك ·· لماذا تضطهد العرب ؟

فقال له سَابُوَرُ :

ـ ولِمَ لا أفعل ؟ وقد أنبأنى المُنَجِّمون إنه سيظهر فى العرب رجل يزول على يديه مُلْكُ فارسَ ويُمْحىٰ دينها ·

فقال مالك :

ـ المنجّمون لايصدقون دائماً ·

فعاد سابورُ يقول :

ـ ونُبُوءَة ُسَاسَانَ «١» ؟

فقال مالك :

ـ وماذا تقول نُبُوءَةُ سَاسَانَ ؟

فأجاب سابورُ :

ـ تقول : إن رجلا من العرب سيأخذ سرير مُلْكِ فارس ويصبح الرؤساءُ مرءُوسين له ·· ويضع مكان تماثيل الآلهة ومواقد النار المقدسة بيتًا معموراً بلا صور وبلا تماثيل ·

فسأله مالك :

ـ إذا كانوا صادقين ·· فليقولوا من أية قبيلة ذلك الرجل ؟

فقال سابور على الفور :

ـ لو عرفت فى أية قبيلة سيظهر لأفنيت تلك القبيلة وحقنت دماءَ العرب أجمعين ·

---

(١) ساسان ـ باسم جد ملوك الاكاسرة ، ولم يذكره الفيروزابادى · ا هـ

قال مالك :

ـ لو أن ذلك مقدرٌ وسوف يقع .. فهل يمنع سفكك لدماء العرب وقوعه ؟

ونظر سابور إلى مالكٍ نظرة تقدير .. فقد قال قولا بسيطاً ولكنه كان حكيما .. ثم قال :

ـ لقد أوقفت القتل والتعذيب عن العرب .

ولو تكشف الغيب فى هذه اللحظة لِسَابُورَ لعَلِمَ أن هذا العربىَّ الذى يخشى ظهورَه بين العرب والذى تنبَّأ له المُنَجِّمُون بأنه سَيَدُكُّ عرشَ فارس ويطفىءُ النيران المقدسة ويحطم الأصنام .. ليس إلا محمدَ بنَ عبد الله بنِ عبد المطلب الهاشمىَّ الذى ينتهى نسبه إلى مالك القرشى الواقف أمامه .

مضت السنوات وخزاعة تُتَاجِرُ فى الدين .. وكانت مكة تموج بالخُرافات والضلالات .. والناس يتخبطون فى دياجير الظلم والظلام .. وكانت الفئة المؤمنة وعلى رأسها كعبُ بن لؤى ابن فهر بن مالك بن النَّضْرِ تحاول إنقاذ الناس من هذا التخبُّط والعودة بهم إلى حظيرة الدين الحق .. دين الله الواحد الأحد وعبثًا راحت محاولاتهم .. فقد استمرت خزاعة على غيِّها واستمر الناس على ضلالهم ، بل إن الطين زاد بِلَّة .. وانحدر الناس إلى هاوية الكفر والشرك ووصل بهم الحال أن طافوا بالكعبة عَرَايَا

نساءً ورجالاً وارتفعت أَصواتهم تهدر بهُتافٍ غريب شاذ لقَّنه لهم الكَهَنَة وتجار الدين ، هو :

(لبيك اللهم لبيك ·· لبيك لاشريك لك لبيك ·· إلاَّ شريك هو لك ·· تَمْلِكُه وما مَلَكْ) ·

وسمع كعب بن لُؤى هذا الْهُتَاف فثار وصاح :

ـ (لا إله إلا أَنت سبحانك ·· لبيك اللهم لبيك ··· لبيك لاشريك لك لبيك ·· إِن الحمد والنعمة لك والملك ·· لاشريك لك) ·

ولكن صوته ضاع وسط الهدير المرتفع للأُلوف المؤلفة التى كانت تريد الهتاف الأَول تماماً كما ضاعت جهوده وجهود الفئة المؤمنة عندما حاولوا وضع الناس على الصراط المستقيم والعودةَ بهم إلى حظيرة الدين الحق ·· وقرر كعب أَن يُجَمِّعَ الناس فى الكعبة ليَخْطبَ فيهم ويعرفهم بخطئهم وفساد مفاهيمهم ·· ولكن أَحداً لم يجتمع له إِلاَّ الفئة التى آمنت به من قريش ·· فقام فيهم خطيباً وقال :

ـ (أَيها الناس ·· أَما بعد ·· فاسمعوا وافْهَمُوا وتَعلَّموا واعلَمُوا ·· ليلٌ داجْ ونهارٌ ضاحْ ·· والأَرضُ مِهَادْ ·· والسماءُ بِنَاءٌ ·· والجبالُ أَوتادْ ·· والنجُوم أَعلام ·· والأَولُون كالآخرين ·· فصِلُوا أَرحامكم ·· واحفظوا أَصهارَكم وثَمِّرُوا

أَموالكم ·· فهل رأيتم من هالكٍ رَجَعْ ؟ أَو ميّتٍ انتشَرْ ؟ والدارُ أَمَامَكم والظنّ غيرُ ما تقولون ·· أَيها الناس زَيِّنُوا حَرَمَكم وَعَظِّمُوه فسوف يأْتى له نبأٌ عظيمٌ ·· وسوف يخرجُ منه نبىٌّ كريمٌ ·· أَما والله لِئنْ كنتُ فيها ذا سَمْعٍ وبصرٍ وَيَدٍ ورِجْلٍ لَتَنَصَّبْتُ فيها تَنَصُّبَ الجَمَلِ ·· ولأَرْقَلْتُ فيها إِرقالَ الفَحْلِ) ·

وظل يدعو الناس إِلى الله فى هَوَادَةٍ ولِينٍ ·· ولكنهم لم يستجيبوا له ولم يفكِّر أَحدهم فى العمل بقوله !!

ومات كعبٌ وأَصبح ابنه مُرَّةُ سَيِّدَ ساداتِ قريش من بعدِهِ ولم يستطع مُرَّةُ أَيضاً أَن يصنع شيئاً وبدأَ القُرَشِيُّون يهاجرون من مكة إلى البلاد التى استقر بها أَجدادهم وظلت الحياة الدينية فى أُمِّ القرى على ما كانت عليه من فساد ·

ومرت الأَيام واكتملت شهوراً وأَصبحت الشهورُ سنواتٍ وتعاقبت السنواتُ ومات مُرَّةُ وتَزَعَّمَ وَلده كلابٌ قريشاً من بعده وحاول هو أَيضاً أَن يصنع شيئاً ·· ولكن خُزَاعةَ استطاعت أَن تطرده إِلى خارج مكة حيث عاش مع أَولاده وأَولاد إِخوته يحفر الآبار ويرعى الإِبل والغنم ·

ومات كِلابٌ وترك ولديه : زيدًا ، وزُهْرَةَ مع أُمهما فاطمةَ بِنْتِ سَعْدٍ ·· وكان زيدٌ فطيماً ، وزُهْرَةُ قد بَلَغَ مبلغَ الرجال ··

قُصَىّ

وتمضى بنا قافلة الزمان فنصل إلى مرحلة أُخرى من قصة الكعبة المعظمة ، حيث نراها فى عهد قُصَىّ بنِ مُرّةَ بنِ كِلابِ بنِ كعب بنِ لُؤَى بنِ غالب بنِ فِهْرِ بنِ مالك بنِ النَضْرِ بنِ كنَانةَ الذى هو قُريشٌ سَلِيلُ إسماعيلَ عليه السلام وصريحُ وَلَده .

شب قُصَىٌّ غريباً لا يُعرف إلا أنَه ابن ربيعة زوجِ أُمِّه حتى جاء يوم اختلف فيه مع رجل من قضاعة فسبه الرجل وعيّره قائلاً :

ـ أَنت لست منا .. وإنما أَنت فينا مُلْصَقٌ .

فغضب قصى وسأَله : ماذا يعنى بهذا القول ؟

فقال الرجل :

ـ لا تسأَلنى وإنما اسأَل من جاءَتْ بك إلى أَرضِنا ؟

فَهَمَّ قصىٌّ أَن يضرب الرجل ، ولكنه كظم غيظه وتراجع عن ضربه ، ثم دخل إلى أُمه يسأَلها :

ـ قال لى القضاعىُّ : إننى لست منهم وإنما أَنا مُلْصَقٌ فيهم .. أُريد أَن أَعرف الحقيقة ؟

قالت الأُم :

ـ لقد صدق والله يا بُنَىّ .. لست منهم .. ولكن رَهْطك

خيرٌ من رهطه .. وآباءك أشرف من آبائه .. أنت من قريش .. جَدُّك إسماعيلُ عليه السلام .. وأخوك زُهْرَةُ .. وبنو عمك بمكة .. وهم جيران بيت الله الحرام .

ــ ابن من أنا إذن يا أُماه ؟

ــ ابن كلاب بن مرة بن كعب .

فسألها :

ــ وفيم إقامتى هنا إذن ؟ سألحق بقومى .

فقالت له أُمه :

ــ أنت وشأنك يا ولدى .. لقد بلغت مبلغ الرجال .. ومن حقك أن توجه نفسك الوجهةَ التى ترضاها .. فإن شئت بقيت معنا على الرحب والسعة ، أنا أُمك وربيعة أبوك .. وإن شئت رحلت عنا ولحقت بأهلك فى مكة ؟

ــ سألحق بقومى يا أُماه .. نعم ، سأعود إلى أهلى وأرضى الطيبة الطاهرة المباركة ، سأعود إلى جوار الكعبة المعظمة التى بناها أجدادى بأمر الله سبحانه وتعالى ..

فقالت أُمه :

ــ أجِّلْ الذهاب يا ولدى حتى يدخل علينا الشهر الحرام فتخرج مع حاجِّ العرب .. فإنى أخاف عليك

فلبث قُصَيٌّ حتى دخل الشهر الحرام .. ثم خرج فى حاجِّ قُضاعةَ وهو يتلهف على لقاءِ أخيه زُهْرَةَ الذى سمع أنه من سادات قريش وأبناءِ عمه وأهله جميعاً .

والتقى بهم فرحبوا به أشد الترحيب وفرحوا به غاية الفرح .. واستشعر هو بينهم العزة والكرامة .. وكان أول ما أثار اهتمامه : أن قريشاً خير الناس وأكرمهم لم تكن لها ولاية البيت ، وإنما كانت لِخُزَاعَةَ .. وأن الإجارةَ للناس بالحج لم تكن قريش أيضاً .. وإنما كانت فى أبناءِ الغوثِ بنِ مُرَّةَ بنِ أُدِّ بنِ طابِخَةَ بنِ إلياس .

وسأل عن السبب وعرف ما كان من خزاعةَ مع قريش .. وما كان من جُرْهُم قبلها .. وعرف قصة أبناءِ الغوثِ وأن أُمهم كانت عقيماً فنذرت إِنْ هى ولدت ذكراً أن تجعلَه من خدام الكعبة .. فلما منَّ الله عليها بالغوث وهبته للكعبة خادمًا وسادناً ألبستْه ثوباً من الصُّوفِ فقيل له ولأولاده من بعده (صُوفَةُ) «١» وشَبَّ الغَوثُ فتولى الإفاضة بالناس من عرفة .. وكان إذا دفع بالناس يقول :

لَا هُمَّ إِنىّ تابعٌ تِبَاعَهْ «٢» ... إِنْ كان إِثْمٌ فعلى قُضَاعَهْ

(١) صوفة : أبو حى من مضر ، والصوفة كل من ولى شيئا من عمل البيت ١٠ هـ .

(٢) التباعة ما يترتب على الفعل من الخير والشر ، واستعماله فى الشر أكثر كالتبعة . ١ هـ ، « لاهم » سبق تفسيرها بهامش صفحة ٦٣ الماضية .

وكان الغوث يَخَصّ قضاعة بذلك ، لأنها كانت تستحل القتال فى الأشهر الحرم .

وخرج قصيٌّ يؤدى فريضة الحج لأول مرة .. فرأى من تصرُّف أولاد الغوث (الصُوفَةِ) ما جعله يسخط عليهم .. ويرى أن قريشًا أحق بذلك الشرف منهم .. وانتهت أيام الحج وأقام بمكة .. وراح يطوف بالبيت الحرام .. وكان كلما وقف أمام الكعبة سأل نفسه :

ـ لماذا لا تكون ولايةُ البيت لقريش ؟

وكان قصيّ حكيماً متزن التفكير .. فصبر حتى اكتملت قواه وعظم شرفه واتجهت الناس فى مكة بقلوبها إليه .. فتزوج من (حُبَىّ) «١» ابنةِ سيدِ خزاعة ، وهكذا تمت المصاهرة بين سليل قريشٍ وأشرف سادات خزاعة ، ورزق من حُبَىّ بعبدِ الدار وعبدِ منافٍ وعبد العُزَّى وعَبْدٍ .. وانتشر ولده وكثر ماله واستطاع أن يحصل على ثقة وحب حَمْئِهِ «٢» والد زوجته الذى كان بيده مفتاح الكعبة .. يفتحها وحده ، فإذا مرض أعطى المفتاح لابنته حُبَىّ أو بعض ولدها .

فلما حضرت الوفاة والدَ حُبَىّ أسلم مفتاح الكعبة إلى

(١) حبى ـ على وزين سعدى ، وهى بنت حليل ـ بضم أوله ـ الخراعى ١٠ هـ .

(٢) الحمء وفيه لغات : ابوزوج المراة وابو امرأة الرجل أو أخوها أو عمها ١٠ هـ ..

قُصَيّ ·· ولكن خزاعة ثارت لذلك وانتزعت المفتاح عنوة منه وأبى قُصَيٌّ هذا منهم وجمع سادات قومه من قريش ومن بنى كنانَة وقال :

ــ نحن أَولى بالكعبة وأَمْرِ مكةَ من خزاعة ·· فقريش سليلةُ إسماعيلَ بنِ إبراهيم ، وصريحُ ولَده ·

ودعاهم إلى إخراج خزاعة وحلفائها بنى بكرٍ · وقد استعان بأخيه من أُمه (رَزَاحِ) بن ربيعة ·· فجاءَ رزاحُ بقضاعة. لنصرة أَخيه ·

ونشبت الحرب طاحنة بين قريش ومن حالفها وبين خُزاعَةَ وبكرٍ ، ودار القتال فى منى ، وسقط الكثيرون قتلى وجرحى من الطرفين ·· ثم تدخلت القبائل العربية الأُخرى بين الطرفين وعظم عليهم سفك الدماءِ فى الحرم ، وتم التفاهم على أَن يفصل فى النزاع ــ يَعْمَرَ بنُ عوفٍ ــ وكان سيداً شريفاً مهابًا مسموع الكلمة من الجميع ·· فقال لهم :

ــ موعدكم فناءُ الكعبة غداً ·· على أَن تَعُدُّوا القتلى من الفريقين ·

واجتمع الناس بالكعبة وأَقبل يَعْمُرُ بن عوف ثم وقف ليعلن حكمه ، فأَنصت الجميع ، وتكلم يعمُر فقال :

ـ أَلَا إِنى قد شَدَخْتُ «١» ما كان بينكم من دمْ تحت قدمىّ هاتين .. ولا تباعةَ لأَحد على أَحد فى دم . وإِنى قد حكمت لقصىّ بحِجَابةِ البيت مع ولاية أَمر مكة دون خزاعة لما جَعَلَ له حُليل «٢» سيدُ خزاعةَ السابق . وأَن يُخَلِّىَ بينه وبين ذلك . وأَن لا تخرج خزاعة من مساكنها .

وهكذا استقرت شئون البيت فى يد قصىّ ـ أَو بالأَصح ولاية الكعبة إِلى أَبناءِ إِسماعيل عليه السلام بعد أَن حرموا منها طويلا ، وهم أَحق الناس بها .

واهتم قصى بشئون الكعبة اهتماماً كبيراً فقام بتنظيمها كما قام باستحداث وظائف جديدة ومسئوليات دينية محدَّدة فجعل الحِجابة منصبًا شَريفاً يتولاه هو بنفسه وجعل مفاتِيح الكعبة فى يده . وجعل نفسَه المسئول عن كل ما فى الكعبة من الأَموال والهدايا وجعل الرِفادَةَ تلى الحِجابَة ووضعها أَيضاً فى يده ونَظم شئون السقاية واستحدث منصبًا آخر هو اللواء لتنضم تحته القبائل إِذا ما دعا الداعى إِلى الحرب والقتال .

وكانت كلمة قصى فى قومه ـ مدى حياته ـ هى الكلمة

(١) شدخت ـ اى ابطلت . ا هـ .

(٢) حليل ـ هو حليل بن حبشية بن سلول . ا هـ .

العليا ، خاصة بعد أن شَيَّدَ دار النَّدْوَة "(١)" وجعل بابها يفضى إلى بيت الله الحرام مباشرة وكان يجلس فيها فيصرف أمور الناس ويحل مشاكلهم ـ الخاصة والعامة ـ يساعده فى ذلك ولده عبد مناف الذى حاز ـ عن هذا الطريق ـ شرفاً كبيراً وعرف بين الناس بعلوّ المكانة وصدق الكلمة ٠

ولما كَبِرَ قُصَىٌّ وعلت به السن عزَّ عليه ألا يدرك ولدُه البِكْرُ عبدُ الدار ما بلغه ولده الثانى عبدُ مناف من شرف وعزة فاستدعاه وقال له :

ـ يا عبد الدار ٠٠ لقد استطاع أخوك عبد مناف أن يحقق لنفسه وأولاده مالم تستطع أنت أن تحقق لنفسك وأولادك ٠ وأنه ليعزّ علىّ أن أراك وأنا أترك الدنيا على هذا الحال !

ـ الأمر لله ثم لك يا أبت فافعل ماتشاءُ وإن شاءَ الله تجدنى راضياً بكل مايكون منك ويرضيك ٠

ـ والله لأُلْحِقَنَّكَ بالقوم ـ وإن كانوا قد شَرُفُوا عليك ولأَحْبُوَنَّكَ بِذِرْوَةِ الشرف حتى لايدخل أحد الكعبة حتى تكون أنت الذى يفتحها لهم ٠ ولا يَعْقِدُ لقريش لحَرْبِهَا إلا أنت بيدك ٠ ولا

---

(١) الندوة المشاورة وسميت دار الندوة بمكة لأنه كان إذا حدث بهم أمر ندوا إليها فاجتمعوا للمشاورة ويقال لها . دار الدعوة ، ودار المفاخرة ، وهى من المسجد الحرام هـ ٠

يشرب رجل بمكة إلا من سِقايتك · ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا من طعَامك ، ولاَ تقطع قريش أمراً من أمورِها إلا فى دارِك ·

ــ هذا فضل أَنت جدير به أَيها الأَب العظيم ·

وتنازل قصىٌّ لولده عبد الدار عن كل ما كان بيده من أمر قومه ، وقبل عبد منافٍ ما قَضى به أَبوه ، فقد كان قُصَىٌّ لايُخَالَفُ ولايُرَدّ عليه شىء صنعه ·

ومات قصى فتسلم عبد الدار كل المسئوليات الوظيفية بالكعبة وجلس مكان والده بدار الندوة ، وقام بكل ما كان يقوم به قصىٌّ للناس ·

وظلت قريش على هذا الوضع سنوات وسنوات ثم اجتمع بنو عبد مناف وفكروا تفكيراً جديداً ·· فقال عبد شمس :

ــ نحن أَولى من أَبناءِعبد الدار بكل مابين أَيديهم ؟ فوافقه نَوْفَلٌ وأَيده قائلا :

ــ ذلك لشرفنا عليهم وفضلنا فيهم ·· ولو أَنهم يدعون أَنهم أَصحاب الشرف والفضل وحدهم ·

فقال عبد شمس :

ــ لابد أَن ننتزع منهم كل مامنحهم إياه جدنا قُصَىٌّ ، ولو أَدى الأَمر إلى انتزاعها بالقوة ·

ورفض بنو عبد الدار التنازل عن شيء مما أعطاه لهم قصيّ

وانضم بنو أسد وبنو زُهْرَة وبنو تَيْمٍ وبنو الحرْث إلى بنى عبد مناف ـ بينما انضم إلى بني عبد الدار : بنو مخزوم وبنو سَهْم وبنو جُمَحٍ وبنو عديٍّ ·

وظلت عامر بين لؤى ، ومحاربُ بن فهر : على الحياد ··

وعقد كلُّ طرف على أمرهم حِلْفاَ وثيقًا بينهم · وأخرجت نساء بنى عبد مناف جَفْنَةمملوءة بالطِيْب فوُضِعتْ بجوار الكعبة ثم غَمَسَ الجميعُ أيديهم فيها ومسحوا الكعبة فَسُمُّوا المطيِّبين ·

وعقد بنو عبد الدار حِلْفَهم عند الكعبة وأخرجوا جَفْنَةَ دَمٍ وغَمَسُوا فيها أيديهم ومسحوا الكعبة ــ فسُمُّوا : لَعَقَةَ الدماءَ ·

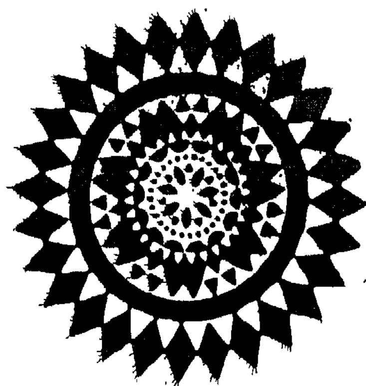
وأوشك القتال أن يشتعل ولكن عبد المطلب اعترض طريق المقاتلين وكان مهاباً مسموع الكلمة للطرفين وصاح بهم

ــ مهلا أيها الرجال ·· مهلا يابنى عبد مناف ·· مهلا يابنى عبد الدار ، فلنَدَع الحرب والقتال ولنتفاهم بالحُسْنى ، فهذا أفضل لنا جميعاً ·· سيكون لبنى عبد الدار · الحِجابةُ ، واللواءُ ، والنَّدْوَة ، ويكون لنا . السِقايةُ ، والرِّفَادَةُ ، والقِيَادَةُ ·

فصاح بنو عبد مناف معترضين ولكنه استطاع أن يقنعهم وقال :

ـ لقد كانت : السقاية ، والرفادة ، والقيادة ، مسئولياتٍ ضخمةٍ طالما اعتز بها الذين تولَّوها منذ القِدَمِ اعتزازاً وعاد الزمن ثم أَنشد يقول :

بَيْتٌ بناه لنا قِدْماً أَوائِلُنَا وَأَوْرَثوه طَوَالَ الدَّهرِ أُخْرانَا !



مأساة أبرهة الأشرم

وتمضى بنا قافلة الزمان لنشهد تلك المحاولاتِ الغاشمةَ الفاشلةَ التى حاولها الملوك والحكّام فى كل بقعة من بقاع الأَرض عبر الدهور والعصور ليصرفوا الحجاج عن الكعبة ويحولوا اتجاههم إلى بيوت أُخرى أَقاموها وزّينوها وجعلوها فتنة للقلوب ، وبهجة للناظرين .

فذاك بيت ضخم فخم أَقامه الغَسَاسِنَة بالحِيْرَةِ «١» ، وتلك القُلَيّسُ «٢» ـ كنيسة أَبْرَهَةَ الأشْرمِ فى صنعاءَ .

كانت اليمن تحت حكم الأحباش ، وكان يقوم عليها الحاكم الحبشى أَرْيَاطٌ من قبل ملك الحبشة ـ ثم نازعه فى حكمها حبشى آخر ، هو أَبْرهةُ بن الصَّباح وكنيته (أَبو يكْسُومَ) ـ واشتد النزاع بينهما وانشق الناس تبعًا لذلك فريقين ـ فريق يؤيد أَرياطًا والثانى يؤيد أَبرهةَ . واتسعت شقة الخلاف ـ مع الأَيام ـ بين

---

(١) مدينة كانت فى موضع النجف بالقرب من الكوفة بين الخورنق والسدير كانت مسكن ملوك العرب فى الجاهلية . ا هـ .

(٢) كنيسة بقيت آثارها حتى زمن أبى العباس . فخربها عامله على اليمن وباع ما امكن بيعه من العاج والابنوس والذهب والفضة . ا هـ . بلوغ الأرب جـ ١ ص ٢٥١ وتاريخ الطبرى . والكامل لابن الاثير . ا هـ .

الفريقين فتناحرا وتقاتلا وسالت الدماءُ غزيرة ، فكتب أَبرهة إلى أَرياط :

(٠٠ إنك لاتحسن إذ تفرق بين الأَحباش وتجعل بعضهم عدوًا لبعض ، وإنى لأَرجو أَن تحصر الخلاف بينى وبينك ، وأَن تبرز لى وأَبرز لك ـ فمن أَصاب صاحبه انصرفت إليه أُمور الحكم) ٠

فلما قرأَ أَرياط الرسالة صاح ساخراً وانفجر ضاحكاً

ـ يدعونى إلى النزال ٠٠ إذن فقد أَنصف ٠٠ سوف أَبرز له وأُبارزه وأَقضى عليه ٠٠

وخرج أبرهة إلى ساحة المبارزة وخلفه عبد له يَحْمِى ظهره اسمه : (عَتْوَدَة) وخرج أَرياطُ وحيداً لايحمى ظهره أَحد ـ واصطف الجنود على الجانبين ٠٠ جنود أَبرهة على اليمين ، وجنود أَرياطٍ على اليسار ٠

وبرز الخصمان ودار صراع رهيب جبار استطاع أَرياطُ «١» فى بدايته أَن يسدد الحربة إلى وجه أَبرهة فيصيبه فى حاجبة وعينه وشفتيه ـ وقد أَثارت هذه الضربة ثائرة أَبرهة فاندفع بجنون نحو خصمه وحمل عليه حملة أَردته قتيلا ٠

---

(١) يكنى بأبى صحم ا هـ ٠ الطبرى ٠ جـ ٢ ص ١٠٩ وعدم صرفه أولى

وهكذا خرج أبرهة من المعـركة منتصراً ولـكن مشروم الشفتين ــ وهذا ما جعلهم يطلقون عليه اسم : أَبْرَهَةَ الأَشْرَم ٠٠ بل إن الجنود عندما رأوا أَرْيَاطاً يسقط صريعًا صاحوا مهللين :

(انتصر أبرهةُ وانتهى أرياطٌ فليحـكم أبرهـةُ الأَشْرَمُ البلاد) ٠

ووصلت الأخبار إلى النَجَاشِي "١" ملك الحبشة فهاج وماج وصاح غاضبًا :

ــ لقد تم ذلك بغير علمى ٠٠ لقد اعتدى أبرهة على أميرى أرياطٍ وقتله دون إذن منى ــ والله لا أدع أبْرَهَة حتى أطأ أرضه وأجزّ ناصيته ٠

وسمع أبرهة بهذا التهديد فابتسم فى خبث ثم قال :

بل أنا الذى سيذهب إليه قبل أن يتحرك بجيشه إلينا

وأسرع أبرهة إلى النَجَاشِي وعندما مَثُلَ بين يديه ولمح الغضب يتطاير شرراً من عينيه انحنى فى خضوع واستسلام قائلا :

ــ أيها الملك العظيم ٠٠ إنما كان أرياطٌ عبداً من عبيدك وأنا أيضا عبد من عبيدك ٠ ولكننا اختلفنا فيما بيننا ٠٠ وكلنا

---

(١) النجاشي ــ اسمه ٠ أصحمة ، وتشدد ياؤه وتخفف ٠ ا هـ ٠

طاعة لك ·· إلا أننى كنت أقوى على حكم اليمن منه وأضبط وأسْوَس لأهلها

فابتسم النجاشى وقد استحسن لباقة أبرهة ثم قال ·

ـ لقد أقسمت أن أطأ أرضك وأجز رأسك يا أبرهة

فقال أبرهة فى خضوع :

ـ لن تحنث فى قسمك يامولاى ·· لقد حلقت رأسى كله عندما بلغنى قسمك هذا وجئت بشعرى إليك ـ وأيضاً جئت بجرابٍ من تراب أرضى لتضعه تحت قدميك فَتَبَرَّ بذلك قَسَمَك !

فصاح النَجاشِى معجباً بذكائه وحسن تصرفه :

ـ أيها الماكر الخبيث ·· إنك داهية والله ·· وإنك لأقدر على حكم اليمن وسياسة أهلها وضبط الأمور فيها من غيرك · هيا عُد إلى هناك واثْبُتْ بأرضك حتى يأتيك أمرى ·

وعاد أبرهة إلى اليمن وأقام فيها على خوف من غدر النجاشى وراح يفكر كيف يستطيع الحصول على رضائه ، وهداه تفكيره إلى أن يبنى له كنيسة كبيرة بصنعاء يجعلها تُحْفَةً من تحف البناءِ والعمارة ، وعندما انتهى من بنائها أسماها : القُلَيّس وكتب إلى النجاشى يسترضيه قائلا :

(مولاى النَجَاشِى ·· لقد بنيتُ لك كنيسة لم يُبْنَ مِثْلُها لملك

من قبلك .. وقد نقلت إليها أروع ماحواه قصرُ المَلِكَةِ بِلْقيس "١"
من أَعمدة الرخام وأحجار المرْمَرِ وتُحف الذهب والفضة ـ ثم زدت
عليها الكثير ، ولست بِمُنْتَهٍ حتى أصرف حجاج العرب إليها
وأجعلهم ينسون تماماً أن في مكة بيتا يُحَجّ إليه) .

وصادف هذا العمل هوى في نفس النجاشي الذي كان يُقلقه
ويُقضّ مضجعه ـ كزعيم للدين المسيحي في المِنْطَقةِ ـ تهافت
الحجاج العرب على الكعبة في مكة المكرمة .

وانتظر النجاشي وانتظر معه أَبْرَهَةُ وانتظر الجميع أن
يتحول حجاج العرب عن الكعبة المعظمة إلى كنيستهم (القُلَيْس)
بصنعاءَ .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، وبقيت الكعبة قبلة العرب
جميعا ومحط أنظارهم ومهبط أفئدتهم لايجرؤ على منافستها أو
انتزاع حبها من النفوس أي بناء آخر مهما بلغ من العظمة
والفخامة والأبّهة ..

نعم لقد بقيت ، وسوف تبقى أبد الدهر ، يؤمها الحجاج من
كل فج عميق وكلهم شوق متوهج وحنين متلهف ..

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَأَذِّنْ في النّاس بالحَجِّ يأْتُوكَ رجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامر يَأْتينَ

(١) بلقيس ـ هي ملكة سبأ ١٠ هـ .

مِنْ كُلِّ فَجٍّ عميقٍ ٢٧٠٢٢ »   (صدق الله العظيم)

ويبدأُ المشهد الثانى من مأساة أَبْرَهَةَ الأَشْرَمِ فنراه وقد اشتعل غضبه عندما لم يتحول الحجاج العرب إلى بنائه الفخم الضخم الذى أقامه وأنفق عليه من الوقت والجهد والمال الكثيرَ الكثيرَ ـ ونرى كيفِ ازداد هذا الغضب لهيبًا عندما استقدمه النَّجَاشِي وسَخِرَ منه ومن بنائه ، فراح يفتعل الأَسباب لكى يثير النَّجَاشِي ضدَّ الكعبة ويَسْتَعْدِيه عليها ليهدمها !!

فادّعى : أَن بعضًا من العرب "١" قد دخل القُلَّيْس وأَحدث فيها ـ وأَرسل منْ يُبَلِغُ النَّجَاشِي بهذا ، ثم ذهب إليه بنفسه ليستأذنه فى هدم الكعبة ومحوها من الوجود !

فأَذن له النجاشي وزوده بجيش جَرَّارٍ من الجنود والأَحباشِ كما زوده بفيلٍ ضخم مُدرَّب على اقتحامِ المعارك .

وسار أبرهة مزهواً بجيشه وفيله إلى الكعبة يريد هدمها فخرج له رجل من أشراف اليمن وسادتها ، يقال له : ذو نَفَرٍ "٢" ، ونصحه بالعدول عن سيره والعودة بجيشه ، ولكن أبرهة رفض نصحيته واستمر فى سيره ، فاتجه ذو نَفَرٍ إلى قومه ومن أجابه من سائر العرب وصاح فيهم :

---

(١) هو احد بنى فقيم ، ممن كانوا ينسئون الشهور على العرب . ا هـ .

(٢) ذو نفر ـ هو قيل من أقيال حمير . ا هـ .

ـ ياقوم إن أبرهة يريد هدم الكعبة وإنى أدعوكم إلى قتاله ومجاهدته عن بيت الله الحرام وما يريد تخريبه وإفْنَاءَه !

فأجابه البعض واستعدوا لقتال أَبْرَهَةَ ورجاله ، واشتبك الفريقان فى قتال مرير أسرفيه ذو نَفَرٍ ، وسِيْقَ مقيداً إلى أبرهة الذى ما كاد يراه حتى صاح فى رجاله :

ـ اقتلوه وَمَثِّلُوا بجثته ليكون عبرة لِمَنْ يعتبر ..

فقال له ذو نَفَرٍ فى هدوءٍ :

ـ مهلا أيها الملك لاتقتلنى فعسى أَنْ يكون بقائى على قيد الحياة أفضل لكم من قتلى . وعسى أن يكون مقامى معك خيراً من ذهابى عنك إلى غير رجعة ؟ ففكر أبرهة لحظات ثم أشار إلى رجاله بما يفيد الابتعاد عن ذى نَفَرٍ والإبقاءَ على حياته .

واستأنف أبرهة والجيش والفيل سيرهم إلى أن وصلوا أرض (خَثْعَم) وهناك تصدى لهم نُفيل بن حبيب الخَثْعَمىّ فى قبائلَ من خَثْعَم ـ شهرانَ ، وناهِسٍ «١» ـ ودارت معركة حامية هزم فيها نفيل وأصحابه وجىءَ بنُفَيلٍ أسيراً إلى أبرهة الذى أصدر أمراً بقتله ، فصاح به نفيل :

(١) شهران أبو قبيلة من خثعم ، وفى ناهس شرفهم وعددهم ، وهما ابنا عفرس ١٠ هـ . كتاب القبائل لابن عبدالبر ص ١٠٣ .

ـ أيها الملك أبق على حياتى وسوف أكون دليلك بأرض العرب · وهاتان يداى على قبائل خَثْعَم بالسمع والطاعة !؟

فاستجاب أبرهة لرجائه وأعفاه من القتل واتخذه دليلا حتى وصل الطائف · واتجه أبرهة إلى بيت (اللّاتِ) هناك على قمة الجبل فخرج عليه مسعود بن مُعْتِبٍ فى رجال من ثقيف وقالوا له

ـ أيها الملك ·· إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون لأوامرك وليس لك عندنا خلاف ، وليس بيتنا هذا بالبيت الذى تريد ·· وإن شئت أرسلنا معك من يدلك عليه !؟

فتجاوز أبرهة عنهم ، وتطوع أحدهم وهو (أبورِغَالٍ) «١» بأن يَدُلّهم على مكة ويصل بهم إلى الكعبة ، وسار أمامهم يحدولهم ويُحَمِّسَهم حتى وصلوا إلى مكان يسمى (المُغَمَّسَ) «٢» على مقربة من مكة بين (جِعْرَانَة ، والشرايع) وهناك هلك أبورِغَالٍ بِدَاءٍ غريب أصابه ، فدفن بنفس المنطقة ـ وقد رجمتِ العربُ قبرَه .

وعسكر أبرهة فى المُغَمَّسِ وبعث رجلا يقال له : (الأسود بن مقصود) على خيل له حتى انتهى إلى مكة ، فاغتصب أموال أهل

---

(١) هو ابو ثقيف ، من ثمود جاء ذكره فى الحديث فى سنن أبى داوود ، ودلائل النبوة ، قال عليه السلام إنه اصابته النقمة حين خرج من الحرم · ا هـ ·

(٢) ورد ذكره فى شعر عبدالمطلب ، أو أمية ونفيل ، وهو بطريق الطائف · ا هـ ·

(تِهَامَةَ) من قريش وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ رأسُ قريش وسيدها ·

وما أن علم عبد المطلب بذلك حتى جمع الناس بالكعبة وصاح فيهم :

ـ أيها القوم هذا أَبْرَهَةُ الحبشىُّ يعسكر على مشارفِ مكة · وقد أرسل رجاله فاغتصبوا أموالنا وما نملك ·· فما رأْيكم ؟

فصاح القوم من حوله :

ـ لابد من قتاله وتأْديبه ·· فلنخرج إليه ولتكن الحربُ بيننا وبينه ·

فاستطرد عبد المطلب قائلا :

ـ إنها معركة غير متكافئة سوف تنوب فيها قريش أمام طاغية لايرحم ثم تَئُوبُ بعار الهزيمة · فاتركوا الأَمر لله وحده ·

وعاد أبرهة برجل من رجاله يقال له : (حَنَّاطَةُ الحِمْيَرِىُّ) وقال له :

اذهب إلى مكة واسأل عن سيد أهلها وشريفهم ، ثم قل له : إن أبرهة لم يأْت لحربكم ، إنما جاء لهدم الكعبة ، فإن لم تَعْرِضُوا له بقتال فلا حاجة له بدمائكم ، فإن هو لم يُرِدْ حربى فأحضره إلىّ ·

وعاد حَنَاطَةُ بعبد المطلب وبعض قومه ، وجلس عبد المطلب ينتظر الأمر بالدخول على الملك ، وهنا علم بقصة ذى نَفَرٍ ــ وكان صديقاً قديماً له ــ فاختلى به وقال له :

ــ ياذا نَفَرٍ .. هل عندك غَناءٌ فيما نزل بنا ؟

فأجابه ذو نَفَرٍ :

ــ وما غَنَاءُ رجل أسير فى يد ملك ينتظر أن يقتله بكرة أو عشية ؟

فقال عبد المطلب :

ــ الحق ماتقول ولكنك تستطيع أن تساعدنا ولو بالرأى السليم ؟

فأشار عليه ذو نَفَرٍ قائلا .

ــ ما عندى غَنَاءٌ فى شىءٍ مما نزل بكم إلا أن (أُنَيْساً) سايس الفيل صديق حميم لى فأرسل إليه وأوصيه بك وأُعْظِمُ عليه حقك ، وأسأله أن يشفع لك عند الملك بخير إن استطاع ؟

ففرح عبد المطلب بهذا وهتف :

ــ حسبى هذا منك ياصديقى .. حسبى والله ..

ومضى ذو نَفَرٍ إلى أنيسٍ وأوصاه ، فمضى بدوره إلى أبْرَهَةَ وقال له :

ـ ببابك هذا عبد المطلب سيد قريش ورأسها يستأذن عليك وهو صاحب عِيْرِ مكة ·· وهو يطعم الناس بالسهول · والوحوش برؤوس الجبال ، فَأْذَنْ له وَاسْمَحْ له أَن يتكلم بحاجته

وعلى الفور دعا أبْرَهة عبدَ المطلب وطلب منه أن يجلس إلى جِواره ·· فقال له عبد المطلب :

ـ أَجلس على سرير مُلْكِك ·· لا والله أَيها المَلِكُ ، لا يكون هذا أَبداً ·

فقال له أَبْرَهَةُ وهو يُجامله :

ـ إِذَنْ أَجلس أَنا معك على الأَرض تعظيما لقدرك وتكريماً لشخصك ·

وبعد أَن جلس إلى جوارَه سألَه عن حاجته فقال عبد المطلب :

ـ حاجتى أَن يَرُدَّ المَلِكُ عَلَىَّ المائتى بعير التى أَصابها لى !

فَدُهش أَبرهة لهذا القول ونظر إليه بسخريةٍ قاسية وقال :

ـ أَهذا ما جئت تطلبه منى ؟ أَنت شريفُ مكة وصاحبُ الأَمر والنهى فيها جئتَ تكلم أَبرهَةَ العظيمَ فى مائتى بعير ؟ هل نسيت أَننى قد جئت أَهْدِمُ بيت عبادتكم ؟ أَهْـدم كعبَتـكم المعظمة ؟ ·· أَتكلمنى فى مائتى بعير تريد استردادها ، وتترك بيتاً

هو دينُك ودينُ آبائك وأجدادك لا تكلِّمنى فيه ؟

فأجابه عبد المطلب فى هدوءٍ :

ـ مهلا أيها الملك .. إننى أنا ربُّ الإبل ، وإن للبيت ربًّا يحميه !

فصاح به أبرهة فى سخط وهو يقوم من مجلسه ويتجه إلى سرير مُلْكِه بعظمة :

ـ ما كان ليمتنع علىَّ .

فقال عبد المطلب :

ـ أنت وذاك .. اِهْدِمْه إن استطعت ، ولكن رُدَّ علىَّ إبلى .

فقال أبرهة :

ـ قد رددناها عليك ولسوف نمضى إلى البيت فنجعله أثراً بعد عين !

ويدخل إلى أبرهة فى نفس اللحظة من يقول : إن بالباب سيِّدَ هُذَيْلٍ (١) يَعْرِضُ ثُلُثَ أموال تِهامَةَ على أن يرجع أبرهةُ فلا يهدمَ الكعبة .. وهنا يصيح أبرهة فى غرور وصَلَفٍ وكبرياء :

ـ بل سأهدمها ولو عرضت علىَّ أموال الدنيا كلها .. لقد آن الأوان لحذف هذه الكعبة من سجل الوجود ..

(١) هو خويلد بن واثلة الهذلى ومعه يعمر بن نفاثة بن عدى سيد بنى بكر ١٠ هـ

وتمضى بنا قافلة الزمان لنشهد الفصل الأخير من مأساة أبرهة المروعة وجيشه ، ونرى كيف انتهت قصتهم بفاجعة لم تعرف البشرية مثلها من قبل ·· فاجعةٍ جعلتهم عبرة لِمَنْ يعتبر ، وعظة لمن شاءَ أن يتَّعِظ ··

بسم الله الرحمن الرحيم

« أَلَم تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُم كَعَصْفٍ مأْكُولٍ ١٠٥:١-٥ » ·

(صدق الله العظيم)

عندما انصرف عبد المطلب من حضرة الملك أبرهة اتجه إلى البيت الحرام حيث وجد الناس هناك يَضْرَعُون إلى رب الكعبة أن يحفظ بيته ــ فأمرهم جميعاً بالخروج من البيت ·· بل من مكة كلها ــ والتَّحَرُّز فى شَعَفِ الجبال خوفاً عليهم من سطوة الجيش والمَعَرَّة ·

ثم قام ومعه نفر من قريش يدعون الله سبحانه وتعالى ويستنصرونه على أبْرَهَة وجنده ·· تم أَمسك عبد المطلب بحلقة باب الكعبة وصاح فى ابتهال حارٍّ .

يارب إِن العبــدَ يَمْنَعُ
رَحْلَــه فامْنَــعْ رحالك

جَروا جمــوعَ بلادِهم
والفيــلَ كى يَسْبُــوا عِيالَكْ
إن كنــتَ تَارِكَهــم وكَعْ
ـبَتَنَــا فَأمْــرٌ ‥ ما بَدا لَكْ

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، ثم انطلق هو ومن معه إلى شَعَفِ الجبال وظلوا فيها ينتظرون ما أبرهةُ فاعلٌ بمكة إذا دخلها وما سوف يفعله به صاحب البيت سبحانه وتعالى ٠

ويسير أبرهة بجيشه يتقدمه الفيل حتى ظَاهَرَ مكة من ناحية الجنوب ، وهنا يتجه نُفَيْلُ بن حَبيب الخَثْعمى إلى جنب الفيل ويَلْتَقِمُ أُذُنَه ثم يقول هامسًا :

ـ ابْرُكْ أيها الفيل ‥ إنك فى بلد الله الحرام ‥ لا تتقدم خطوة واحدة ٠ فَيَبْرُك الفيل ولا يتحرك إلى الأَمام خطوة واحدة ‥ ويُدْهَشُ أبرهةُ للأمر وكذلك جنوده ‥ ويصيح أبرهة آمراً سَائِسَ الفيل أن يدفعه إلى التحرك قُدُمًا ‥ ويحاول السائِسُ عبثًا ‥ إذ يأبى الفيل أن يتحرك قِيْدَ أُنملةٍ فى الاتجاه الذى يوجهونه إليه ‥ أى اتجاه مكة ٠

فيأمرهم أَبْرَهَةُ بإحضار المَحَاجِنِ «١» وإدخالها فى جسده ‥ فيفعلون ، ولكن الفيل يظل فى مكانه كما هو ‥

(١) المحاجن : عصا معطوفة الرؤوس للضرب ٠ ا هـ ٠

ويزداد عجب أبرهة ورجاله ويحاولون دفعه ناحية اليمن فيقوم مُهرولا ‥ فيوجهونه ناحية الشام فيفعل مثل ذلك ‥ فيوجهونه نحو المشرق فيتهيأُ للانطلاق ، فيعاودون تَوجيهه ناحيةَ مكة فَيَبْرُكُ ثانية ويأْبى أَن يتحرك ٠

ويلغت هذه الأَخبار مسمع عبد المطلب وأَصحابه المعتصمين برؤوس الجبال ، فأَشرق على وجوههم نور اليقين والإِيمان وشعروا بالغبطة أَن استجاب الله عزَّ وجلَّ لدعائهم ‥

وَيئِسَ أَبرهةُ من الفيل فقرر أَن يسير بدونه ، فصاح فى جنوده :

ـ دعوا الفيل ‥ دعوه واندفعوا إِلى الأَمام ثم اهْجُموا على الكعبة واهدموها هيا ولنجعلْهَا أَثراً بعد عين ‥

واندفعت الجْموع الهادرة على الطريق إِلى هدف قائدهم وكلهم أَمل أَن يحققوا له ما أَراد ٠

ولما أَصبحوا على مقربة من الكعبة أَظلم الجو من فوقهم وشعروا كأَن سحابة سوداءَ تقترب منهم ، وخاف البعض منهم وراح البعض الآخر يدقق النظر إلى السحابة ، وهنا تأَكدوا أنها ليست سحابة بل هى طيور غريبة الشكل سوداءُ اللون تقترب منهم وهى تصرخ صراخًا مفزعًا ثم تنقضُّ على رؤوس الجنود وتسقط شيئاً ‥ فصاحَ عَتْوَدَةُ :

ـ انظر يا مولاى ·· انظر إلى هذا الشيء الذى تسقطه الطيور على رؤوس الجند ! يا إلهى ·· إنها تسقط أحجارًا صغيرة لا يكاد الواحد منها يستقر على رأس الرجل حتى ينهار ويتهاوى كالعصف المأكول ··

ونظر أبرهة مذهولا ·· بل مصعوقاً ·· ورأى الطيور الجارحة وهى تنقض على جنوده بشراهة فتقضى عليهم الواحد بعد الآخر ·· ولم ينتبه إلى أحدها وهو يقترب منه ويصيبه ·· وصاح أبرهة فى ألم وذعر :

ـ ويلاه ·· لقد أصابنى أحد ها ·· أدركونى ·· اغيثونى ·· أدركنى ياعتودة ·· أدرك مولاك ·

ولم يستطع عتودة أن يحرك ساكنًا ، فقد أصابته الطيور هو أيضًا ، وسقط إلى جوار مولاه يتلوى من الألم ··

وخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك وأبرهة معهم ينتثر جسده وتسقط أنامله أنملة أنملة ·· وكان نفيل هو الوحيد الذى نجا من هجوم الطيور الجارحة المتوحشة ، وكان يسمع صياحهم وضراعاتهم إليه بأن يدلهم على أقرب طريق إلى اليمن وهو يقهقه ويقول :

أين المفرُّ والإله الطالبْ والأشرمُ المغلوبُ ليس الغالبْ

وفرحت قريش بما أصاب أصحاب الفيل وتركوا رؤوس

الجبال وأقبلوا على الكعبة يطوفون بها شاكرين ربها وربهم الكريم الذى منّ عليهم بالنجاة وحفظ للبيت الحرام مكانته ــ وتجاوبت أرجاءُ البلد الآمن بأصوات الشاكريــن الحامديــن وصـــاح شاعرهم "١" ينشد

فتنكَّلــوا عن بَطْــنِ مكةَ إنها
كانــتْ قديمـــًا لا يُرامُ حريمُها
سَائل أمــير الجيش عنهــا ما رأى
ولســوف يُنبِّــى الجاهلــينَ عليمُهَا
ستّــونَ ألفــًا لم يئوبــوا أرضهم
بل لم يَعِشْ بعــد الإيــابِ سقيمُهَا

وقد ضاعف من فرح قريش بهذا اليوم السعيد أنْ وُلِدَ لسيدها وشريفها عبد المطلب فى صباحه حفيدُه ابنُ ولدِه الفقيدِ عبد الله .. فما كاد الخبر يصل إليه وهو يحتفل فى البيت الحرام باندحار أبْرَهَةَ وجيشِه ــ حتى أسرع إلى بيت آمنةَ وحمل الحفيد ــ متوهجَ الفرحة وعاد إلى البيت الحرام وراح يطوف بالكعبة وهو ينشد :

الحمـــدُ للهِ الـــذى أعْطَانى
هذا الغُــلامَ الطَّيِّــبَ الأَردانِ

(١) هو عبدالله بن الزبعرى ا هـ

أُعيذُه بالبيتِ ذى الأَركانِ

حتى أَراهُ بالغَ البُنيانِ

أُعيذُه من شَرِّ ذى شَنآنِ

من حاسدٍ مضطرب العِنانِ

وتقدم أَحدهم من سيد قريش وسأله : ماذا سيطلق على الوليد · فأجاب على الفور :

ـ محمد ·· نعم ·· محمد ··

فعاد السائل يقول ·

ـ ولماذا إختررت له هذا الاسم ؟

فقال عبد المطلب وهو يتطلع إلى السماءِ :

ـ أُريد أَن يكون محموداً فى الأَرض وفى السماءِ ·

حفر زمزم

وتعود بنا قافلة الزمان إِلى الوراءِ خطوات لنرى مشهداً من مشاهد هذه القصة الرائعة لأَعظم بيت عرفته البشرية قاطبة ·· وأَول بيت وضع للناس على الأَرض ·· مشهداً سبق واقعة أَبْرَهَة وجيشه وعاصرها ··

فنرى عبد المطلب بن هاشم وقد آلت إِليه إِمارة مكة ، فشرف قدره بين أَهلها شرفاً لم يبلغه أَحد من آبائه ·· وعظمت مكانته واستقرت محبته فى نفوس الناس ، لما رأَوه من اهتمامه

بمصالحهم وسعيه الدائم فى سبيل خيرهم ٠

نراه يفكر فى التغلب على مشكلة نقص المياه ٠٠ وما يعانيه حجاج البيت بسبب المشقة فى الحصول على الماء من خارج البيت ونقله إلى داخله ٠

ويزداد اهتمام عبد المطلب بهذه المشكلة عندما تنتهى اليه السقاية ضمن ما انتهى إليه من مسئوليات الحرم ، ونسمعه يحدث ولده الحارث فى الأمر فيقول :

ــ علىَّ أن أجد حلاً سريعاً لهذه المشكلة مهما كلفنى الأمر ففكر معى ٠٠ ويشترك الحارث معه فى التفكير ثم يقول ٠

ــ ألم تسمع يا أبتى بقصة زَمْزَمَ ٠٠ تلك العين التى تفجرت لجدنا إسماعيل عليه السلام وأمه هاجَر قديماً "١" ؟

فيقول عبد المطلب :

ــ كيف لم أسمع بها يا ولدى ؟ لقد سمعت الكثير عنها ٠٠ وأنا أعلم يقيناً أنها موجودة فى البيت ٠٠ فى مكان منه ، ولكن هذا المكان غير معلوم لأحد ٠٠ لقد طمستها جُرْهُمُ قبل أن تخرج من مكة مطرودة مقهورة ٠٠ طمستها وضيعت معالمها تماماً "٢" ٠

فيقول الحارث بحماس :

(١) ذكره الزبير بن بكار فى جمهرة نسب قريش ٠ ا هـ ٠

(٢) هى وطأة جبريل وسقيا إسماعيل ثم حفرها إبراهيم وغلبه عليها ذو القرنين ثم دفنتها جرهم ثم أظهرها الله لعبد المطلب ا هـ ٠

ـ ولم لا نحاول البحث عنها ثم نحفرها من جديد ؟

ويصمت عبد المطلب لحظات ثم يقول :

ـ نعم الرأى رأيت يا ولدى ·· دعنى أفكر فى الأمر

ويزداد تحمس الحارث لأبيه فيقول :

ـ الأمر لا يحتاج إلى تفكير يا أبت ، طمس العيون لا يقضى عليها نهائياً ·· ولو أننا أعدنا حفرها فسوف تتفجر كما كانت ·· ربما أكثر ··

فقال عبد المطلب :

ـ هذا صحيح ·· ولكن لكى نعيد حفرها يجب أولا أن نعرف مكانها ··

فقال الحارث :

ـ فلنحفر فى كل مكان حول الكعبة ولنطلب العون من الله سبحانه ، وتعالى ، فهو خير معين ·

فقال عبد المطلب :

ـ وأنْعِمْ بالله يا ولدى ·· اذهب أنت وشأنك ودعنى هنا فسوف أقيم فى حِجْرِ إسماعيل أسأل الله أن يعيننا ·

وأقام عبد المطلب فى حِجْرِ إسماعيل ·· وفى الليلة الأولى رأى فى نومه أن شخصاً يقول له :

ـ احفر طَيْبَةَ ·

فسـألـه :

ـ وما هى طَيْبَةَ ؟

فلم يجبه وانصرف عنه ٠٠ فقام من نومه متعجباً ٠

وفى الليلة التالية رأى فى نومه نفس الشخص وهو يقول له :

ـ احفر بَرَّةَ «١» ٠

فسـألَه :

ـ وما هى بَرَّةَ ؟

فلم يجبه وانصرف عنه ٠ فلما كانت الليلة الثالثة ونام عبد المطلب جاءَه نفس الشخص وقال له :

ـ احفر زَمْزَمَ ٠٠ إنك إن حفرتها لن تندمْ ٠٠ هى تراث من أَبيك الأَعظمْ ، لا تنزف أَبداً ولا تُذَمّ ٠٠ تسقى الحجيج الأَعْظَمْ مثل نَعَامٍ جافلٍ لم يُقْسَمْ «٢» ٠

فسـألَه عبد المطلب عن مكانها ٠ فقال :

ـ عند قرية النمل حيث ينقر الغراب الأَعْصَمْ ، غدا بين الفر ث والدم ٠

وقام عبد المطلب من نومه واستدعى ولده وروى له ماكان من الرجل ومنه ٠ فقال الحارث :

---

(١) طيبة ، لأنها للطيبين ـ وبرة لأنها للابرار ، وقيل لها ، المضنونة ، لأنها ضن بها على غير المؤمنين ٠ ا هـ ٠

(٢) الجافل المقلوع بجملته ولم يتوزع ا هـ السهيلى جـ ١ ص ١٠١ ٠

ـ إذن نمضى إليها غدا ونحفر عند قرية النمل حيث يَنقر الغراب ·

ومضى عبد المطلب مع ولده الحارث إلى قرية النمل بالبيت الحرام فوجدا الغُراب ينقر فى الأَرض بين وَثَنَىْ إسَافٍ ونائِلَةَ «١» وعلى الفور أمسك عبد المطلب بالمعول وراح يحفر بين الوثَنَيْن · وكانا لايزالان بالكعبة إلى تلك الحين ·

وما كادت قريش تراه يفعل حتى أسرع إليه نفر منهم وقالوا :

ـ ما هذا الصنيع يا عبد المطلب · لِمَ تحفر فى مسجدنا ؟

فيقول عبد المطلب :

ـ إنى أحفر بحثاً عن بئر زَمْزَمَ ·

ويحاولون منعه من الحفر · فيصمم عليه قائلا :

ـ ولِمَ لا أفعل والحجيج يعانون أشد المعاناة من قلة الماءِ ·

ويندفع من بينهم رجل قائلا :

ـ والله لا نتركك تحفر تحت وَثَنَىْ إسافٍ ونائِلَةَ اللذين نَنْحَرُ عندهما ·

فيثور عليه عبد المطلب ويصيح :

ـ بل سأحفر مهما فعلتم ، ولن يَصُدَّنى عن الحفر أحد ·

(١) إساف ونائلة مسخا حجرين وضعا عند الكعبة ، ثم عبدا مع الأصنام · ا هـ الأصنام ص ٢٩ ·

وينادى على ولده فى قوة ويطلب منه أن يدافع عنه حتى ينفذ ما أمر به ، ويكمل الحفر .

فيقول الرجل ساخراً :

ـ يدافع عنك ؟ وماذا يستطيع ولد واحد وحيد لاحول له ولا قوة أن يفعل ؟ ويغضب عبد المطلب ويعزّ عليه أن يُعَيَّر بقلة الولد وَيَنْذُرُ إن حفر زمزم وتم له أمرها وولد له عشرة نفر ثم بلغوا مبلغ الرجال لَيَنْحَرَنَّ أحدهم عند الكعبة ـ ثم يستمر فى الحفر والناس من حوله يشاهدون ما يفعل . وفجأة يظهر له غزالانِ من الذهب ، فيصيح بفرح غامر :

ـ هذان هما الغزالان اللذان دفنتهما جُرْهُمٌ حين خرجت من مكة .

ويظهر له بعد الغزالين أسيافٌ ودروعٌ وسلاحٌ ، فيزداد فرحه ويبدأُ طمع قريش ، ويقول أحدهم :

ـ يا عبد المطلب أجِزْنَا مما وجدتَ .. إن لنا معك فى هذا شِرْكاً وحقاً . فيرفض عبد المطلب هذا الطلب منهم ويقول :

ـ لا والله ، فهذه كلها لبيت الله الحرام وليست لى .

واستمر عبد المطلب فى الحفر حتى ظهرت له الأحجار التى تغطى فتحة البئر ، ثم رفع الأحجار وما إن رأى الماءَ يَنْبِطُ «١»

---

(١) ينبط أى ينبع . اهـ .

من البئر حتى صاح مهللا ، فقامت قريش كلها وقال أحدهم

ـ يا عبد المطلب ، هذه بئر أبينا إسماعيل وإن لنا فيها حقا فأشرِكْنَا معك .

فقال عبد المطلب :

ـ ما أنا بفاعل ، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأُعطيته من بينكم .

فقال أحدهم :

ـ أنصِفْنا يا عبد المطلب فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها .

فأجابهم عبد المطلب :

ـ لا .. ولكن هلموا إلى أمرٍ نَصَفٍ «١» بينى وبينكم .. نضرب عليها بالقِداح «٢» .. نجعل للكعبة قِدْحَيْن ولى مثلهما ولكم كذلك ، فمن خرج له قِدْحاه على شيء كان له . ومن تخلف قدحاه فلا شيءَ .

وضُربتِ القِداحُ ، فخرج قِدْحَا الكعبة على الذهب وقدحا عبد المطلب على الأسياف والدروع .. وتخلف قدحا قريش .. ومن ثم

---

(١) إلى أمر نصف : من الانتصاف ، أى العدل . ا هـ

(٢) بالقداح : أى السهام ، وكانوا يستقسمون بها ، ومن أسمائها : صريح وملصق ، ونعم ، ولا ، وعقل ، وغفل ، وافعل ، ولا تفعل . ا هـ الميسر والقداح لابن قتيبة الدينورى .

كانت لعبد المطلب وحده سقاية زمزم للحجاج لا ينازعه فى مائها أحدٌ من قومه من قريش ٠

وكان عبد المطلب قد نذر حين أمر بحفر زمزم لئن حفرها وتم له أمرها وتَتَامَّ له من الولد عشرة ذكور ليَذْبَحَنَّ أحدهم عند الكعبة ٠٠ فولد له عشرة أولاد ذكور كان آخرهم جميعاً عبدُ الله «١» ٠

فصبر عبد المطلب حتى بلغوا مبلغ الرجال ، ثم دعاهم إلى الوفاءِ بنذره ، فلبوا طائعين ٠

ولجأَ إلى القُرْعَةِ ، فخرجت على عبد الله ٠٠

فأعادها مرة ومرتين ، وفى كل مرة كانت تخرج على عبد الله ، فقام إليه ليذبحه ، وامتثل الولد لأمر أبيه ، ولكن قريشاً كلها تَهُبُّ لمنع هذا الحدث من الوقوع وعلى رأسها المُغيرة بن عبد الله المخزوميُّ وهو يومئذ من كبار رجالات قريش وعظمائها ٠

وصاح المغيرة فى عبد المطلب :

ـ والله لا تذبحه أبداً حتى تُعْذَرَ فيه ، فإنك إن تفعل تكن سُنَّةً علينا فى أولادنا وسُنَّةً علينا فى العرب جميعاً ، ولا يزال الرجل

(١) ٠٠ كان آخرهم جميعا عبد الله : هكذا يقول أهل السير ، ورده السهيلى ، لأن حمزة أصغر منه ، والعباس أصغر من حمزة ، فلعله كان أصغرهم حين أراد النحر ٠ ا هـ ٠

يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاءُ الناس على هذا ؟

وتشاورت قريش فى الأمر واستقر رأْيها على استشارة (قُطْبَةَ بنتِ سَجاح) «١» العَرَّافَةِ على طريق خَيْبَرَ «٢» ، فإن أمرت بذبحه ·· نذبحوه ، وإن أَمرت بالفداءِ فَدَوْهُ بأموالهم جميعها — ونزل عبد المطلب على رأى القوم وانطلقوا بالولد على طريق خَيْبَرَ «٢» ·

وتستقبلهم العرَّافة متسائلة عن سبب حضورهم إليها !

فيقول المُغيرة :

— إننا اليوم فى مِحْنَةٍ وقد تركنا الأهل فى مكة قلوبًا واجفة وأنفسًا والهة بعد أن وقعت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب ليُذبح فداءً لنَذْرٍ قد نذره أبوه عند الكعبة من سنوات ·· وقد جئناكِ طامعين فى إنقاذ الولد بفدية من المال أو الإبل ·

وهنا اندفع عبد المطلب يقول لها :

— ولئن أنقذتِه فسوف يكون لك المكافأة التى تبغينها ·

وتنظر إليهم قُطْبَةُ فى دهشة ثم تقول :

— أتعرفون أن هذا الولد سيكون له شأْن عظيم جداً ··

(١) قطبة بنت سجاح : قال السهيلى : اسمها قطبة فى كتاب الغوامض ، واسمها سجاح فى رواية ابن إسحاق : ١ هـ جـ ١ ص ٢٠١ ·

(٢) خيبر : هى على طريق الشام ، سميت لحصون فيها يقال لها : خيبر ١٠ هـ ·

وأنه يحمل أمانة كبرى ٠٠ وسوف تعلمون فى يوم من الأيام قيمة ما يحمل ٠

ويحاول القوم معرفة نوع هذه الأمانة التى يحملها الولد ، ولكن قُطْبَةَ ترفض أن تفيدهم بشيءٍ وتقول :

ـ دعونى ٠٠ لا تسألونى عن شيءٍ الآن ٠٠ ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى «١» فأسأله ٠

ويمضى القوم إلى ديارهم على أن يعودوا إليها فى الغد ، وتنفرد قُطْبَةُ بتابعها الذى يقول لها :

ـ دعيهم يذبحوه ولا تحاولى إنقاذه ٠

فترد عليه قُطْبَةُ وقد عَقَدَتْ حاجَبَيها دهشة وتعجبًا من قوله :

ـ كيف وهو يحمل أطهر بذرة عرفتها البشرية ٠٠ يحمل نور محمد سيد الخلق أجمعين ٠

فيقول لها التابع :

ـ إن فى ذبحه القضاءَ على هذه البذرة ٠٠ على النور الذى يحمله أيتها الغبيّة الحمقاءَ ٠

فتقهقه قُطْبَةُ ساخرة منه وتقول :

ـ بل أنت الأحمق والغبيُّ ٠٠ أتتصور أيها الجاهل أن الله

(١) ٠٠ تابعى : تقصد الجنى الذى يأتيها ٠ ا هـ ٠

يضع النور فى صلب هذا الغلام لينقله إلى ولده الذى قدر له أن يكون رسولا نبياً ـ ثم تستطيع قوةٌ على الأرض أن تنبح الغلام ؟ ما يقدره الله سبحانه وتعالى لا يملك أحد من الخلق أن يغيره ·

ويَصْمُتُ التابع مرغماً أمام قولها ·· ويذهب ذلك النهار ويحلُّ بعده الغد ويعود القوم إلى قُطْبَةَ وكلهم لهفة على معرفة ما وصلت إليه فى قصة ولدهم ·· فتقول لهم :

ـ كم الدية فيكم ؟

فيقولون :

ـ عشرة من الإبل ·

فيشرق وجه قُطْبَةَ بالفرح وتقول :

ـ حسناً ·· ارجعوا إلى دياركم فقربوا غلامكم وقربوا عشرة من الإبل ثم اضربوا عليها بالقِداحِ ·· فإن خرجت على الغلام زيدوها عشرة فعشرة حتى يُقْبَلَ الفداءُ واعلموا أن غلامكم هذا يحمل فى صلبه أطهر وأعظم نطفة لأطهر وأعظم بشر ·

ويدهش القوم ويتساءلون عن معنى هذا القول الأخير ·· فتجيبهم :

ـ هذا هو الحق الذى سوف تثبته لكم الأيام ·· فانتظروا مطلع فجر حياة جديدة على جزيرتكم ·· بل على العالم أجمع ·· فَعَمَّاً قريب يشرق عليكم نور دين جديد لايلبث أن ينتشر فيعمَّ العالم

كله ويكون بداية هداية جديدة للناس وآساسًا للعدل والحق والسلام بين البشر ·

وتزداد دهشة القوم ويحاولون الاستزادة من معلوماتها ولكنها لاتستجيب لهم وتقول لعبد المطلب :

ــ اذهب أنت ومن معك واحرص على هذا الغلام حرصك على مقلتيك ·· بل على خياتك ·· أما أنا فقد أديت واجبى وأنهيت أعمالى فى هذه الدنيا ولست أبالى مايكون من أمر أحبار اليهود معى بعد أن عرفت الحق وآمنت به «١» ·

ورجع عبد المطلب ومن معه إلى مكة ودخلوا البيت الحرام واقترعوا على الغلام وعلى عشر من الإبل ، فخرجت القرعة على عبد الله ·· فزادوا عليها حتى بلغت المائة ، فخرجت على الإبل ·· وهنا هللت قريش وكبرت وطلبت من عبد المطلب أن ينحر الإبل على الفور ، ولكنه رفض أن يفعل إلا بعد أن يتأكد من الأمر وأعاد القرعة مرات ومرات ، وفى كل مرة كانت تخرج على الإبل «٣» ·

(١) ·· وآمنت به : ذكر النووى فى شرح صحيح مسلم : أن الكهانة فى العرب ثلاثة أضرب : احدها : ان يكون للانسان رئى من الجن يخبره بما يسترقه من السمع من السماء ، وهذا القسم بطل من حين بعث ــ صلى الله عليه وسلم ·

الثانى : يخبره بما يطرأ ويكون فى اقطار الارض ، وهذا لا يبعد وجوده ، لكنهم يصدقون ويكذبون ، والنهى عن تصديقهم عام ·

الثالث : المنجمون وقد أكذبهم الشرع ونهى عن تصديقهم وإتيانهم · ا هـ ·

(٢) ذكر الاصبهانى : ان أبا سيارة هو اول من جعل الدية مائة من الابل ·

وفى الروض جـ ١ ص ١٠٣ « أول من ودى بالابل من العرب زيد بن بكر بن هوازن » ولم يذكره السكتوارى فى الاوائل ص ١٠٨ · ا هـ ·

وهنا اطمأن قلب عبد المطلب ، فقام ينحر الإبل فى بطون الأودية والشعاب وعلى رؤوس الجبال ·· لم يُصَدَّ عنها إنسان ولا طائر ولا وحش ·· ولم يأكل منها هو ولا أحد من ولده ·

فكانت تلك أول دية بلغتِ المائةَ من الإبل ، ثم جاءَ الإسلام فثبتت الدية عليها ·

وبعد أن انتهى عبد المطلب من نحر الإبل آخذ بيد ولده عبد الله وسارا حتى وصلا وَهْبَ بن عبد مناف ـ وهو يومئذ سيدُ بنى زُهْرَةَ نسباً وشرفًا ـ فخطب ابنته آمنة لولده عبد الله ·

وبدأت الأسرتان تستعدان للزفاف ·

وبلغت قصة افتداءِ عبد الله بمائة من الإبل وقصة الأمانة التى يحملها إلى أهل مكة جميعاً · فحدثت أمور هى أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع ·· فقد خرجت جميلات الأسَرِ الكبيرة من خدورهن واعترضن طريق عبد الله وراحت كل واحدة منهن تُغريه بالزواج منها ··

وتروى الكثير من القصص عن بنتِ نوفلِ بن أسد بن عبد العزّى بن قُصَىٍّ ـ أنها قالت له :

ـ على مثل الإبل التى نُحرتْ عنك اليوم إن قبلتَ الزواج منى الساعة ·

وعن فاطمة بنت مُرٍّ ـ وكانت من أجمل النساءِ وأعفِّهن ـ

وقد عرضت عليه كل مالها ومال أهلها ٠

وعن ليلى العدوية التى اعترضت سبيله هى الأخرى وحاولت معه جهد الطاقة ٠٠ فرفض ٠٠ فراحت صديقاتها يلمنها على هذا التصرف منها ، فقالت لهن :

ـ التمسن العذر لى ٠٠ فما رأيت مثله وسامة وسحراً ٠٠ إن فى وجهه نوراً ما عرفته فى أحد من قبل ٠٠ وما سمعت عن فتي افتدى قبله بمائة من الإبل ٠

حقاً إن التاريخ يعيد نفسه ٠٠ بالأمس البعيد أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده إسماعيل عليه السلام ثم أنقذه الله من الذبح بكبش عظيم ـ وأبقى عليه ليقوم بدوره الضخم الذى أعد له على الأرض ـ واليوم يهم عبد المطلب بذبح ولده عبد الله ، ثم يفتديه بمائة من الإبل ويبقى عليه ليقوم بدوره العظيم الذى أعد له أيضاً على الأرض ٠

حقاً ما أقرب الشبه بين الأمس واليوم ٠٠ وحقاً ما أقرب الشبه بين النبيحين «١» ٠

---

(١) بين النبيحين ـ وفى الحديث انه قال انا ابن النبيحين ودعوة ابراهيم ٠ اهـ ٠

قريش تعيد بناء الكعبة

وتمضى بنا قافلة الزمان فى سيرها إلى الأمام .. فنرى عبد الله وقد ترك عروسه بعد أيام من الزواج وسافر مع القافلة المتجهة إلى الشام فى عيرِ قريش ــ فى تلك الرحلة التى لم يَعُدْ منها ــ ونرى آمنة تَضَعُ وليدَها يتيماً فيَكْفُلُه جده عبد المطّلب ويسعد به ويسعد الناس معه بهذا الغلام الذى صادف مقدمه يومَ هزيمة الأشرم على نحو ما ذكرنا سابقاً .

ويموت عبد المطلب فَيكْفُلُه عمه أبو طالب . وَيكْبَرُ الوليد وَيدْرُجُ من الصِّبا إلى الشباب ويتميز بصفات لم يعرفها الناس من قبل فى صبىٍّ أو شابٍّ .. صفاتٍ خُلُقيةٍ سامية تجعلهم يطلقون عليه لقبَ : الصادق الأمين ..

ونرى محمداً لايتعامل مع الأصنام كما يتعامل الناس . ولا يسجد لها أو يحفل بها ، وإنما يتجه إلى الكعبة فيطوف بها مُعَظِّماً مُكَرِّماً كلما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وتتوالى السنوات وتحترق الكعبة بشرارة طارت من جَمْرَةِ امرأة جاءت تعطِّرها بالمِسْكِ والعُود «١» .. وتُمْسِكُ النار أول

---

(١) ظاهر عبارة السهيلى . ان قصة هذه المرأة حدثت زمن ابن الزبير ، أما التجمير فكان من زمن الجاهلية . ا هـ .

ماتمسك بكسوة الكعبة ثم تمتد منها إلى الأَخشاب فتحترق هى الأُخرى وتتصدّع الجدران بفعل الحريق ثم يتداعى بعضها بسبب مداهمة السّيل الذى أَحدث فيها تصدعاً ·

وتقف قريش بعد الحريق حائرة لاتدرى ماذا تفعل ولا كيف تتصرف ، ويدور النقاش طويلا حاراً بين رجالاتها ·· وينقسم الناس إلى فريقين ـ فريق يقول بضرورة هدم الكعبة وإعادة بنائها ويقف على رأسه الوليدُ بن المُغيرةِ ، وفريق يقول بعدم هدمها ويقف على رأْسه أبوُ وَهْب بنُ عَمْرٍو (١) ·· وتَمُرُّ الأَيام وقريش فى خلافها الذى يزداد ويشتد يوماً بعد يوم ··

وكأَنما أَراد الله سبحانه وتعالى أَن يَحْسِمَ هذا الخلاف وأَن ينقذ الكعبة من تلك الحال الذى وصلت إليه بسبب الحريق ·· فأَرسل إليها سيلاً جارفًا يحمل كميات ضخمة من الرّدْمِ الذى بأَعلى مكة ·

وتمتلىءُ الساحة من حول الكعبة بهذا الردم ويرتفع الماءُ فيصل إلى ثلاثة أَرباع البناءِ فيتَصدّعُ ما بقى من الجدران سليماً · ويَجْمَعُ الوليدُ بن المُغيرةِ رجالاتِ قريش ويدور النقاش :

الوليد : ما رأيكم وما قولكم وقد أتى السيل على ما كان

---

(١) ·· ابن عمرو : هو خال ابى رسول الله ، وكان شريفا ، وكان يهاب هدم الكعبة ، يقال : إنه اخذ حجرا منها ، فوثب من يده إلى موضعه · ا هـ ·

متماسكاً بعد الحريق من جدران الكعبة ؟

أَبو وهب : نحن لانمانع فى إعادة بناءِ الكعبة يابن المغيرة ، ولكن البناءَ لابد أَن يسبقه الهدم ، ونحن نتهيَّب أَن نهدم بيت الله ٠

أبو حنيفة : ولاتنس هذه الحيّة الضخمة التى لايستطيعُ أَحد أَن يقترب منها ٠

أَبو وهب : نعم يابن المغيرة ٠٠ هذه الحيَّة لابد من عمل حساب لها ٠٠ فما من أَحد يقترب منها إِلا أَحْزَأَلَّتْ «١» وَكَشَّتْ وفتحت فاها تريدُ ابتلاعه ٠

ويرفع الوليد رأسه إِلى السماءِ ويهتف :

ـ اللهم إِن كان لك فى هدم الكعبة رضاً فَأَتِمَّه واشغل عنَّا هذه الحيَّة ٠

وبينما رجالات قريش فى نقاشهم الحائر يتقاذفهم الخوف والرهبة ويدفعهم الأَمل والرغبة فى إِنقاذ الكعبة من حالها ٠٠ إِذ بنسْرٍ ضخم يَنْقَضُّ على الحية ويدور صراع رهيب بينهما ينتهى بأَن يحملها بين مخالبه وينطلق إِلى السماءِ فيرتفع الهُتاف والتهليل ٠٠ ويصيح ابن الوليد :

(١) احزألت : أى رفعت ذنبها ، وكانت هذه الحية بيضاء البطن ، سوداء المتن ، لها راس كراس الجدى ، بقيت فى بئر الكعبة خمسمائة عام ٠ ١ هـ ٠

ـ ها قد تخلصنا من الحيَّة وأنقذنا الله من خطرها ولم يعد لدينا مايمنعنا من تنفيذ ماسبق وأشرت به ٠

فيوافق الجميع على رأى الوليد ويأخذون فى دراسة كيفية الهدم والبناءِ وتكاليفها «١» ٠

ويدخل إلى الحرم من يبلغهم أن سفينة كبيرة قد رمى بها البحر إلى شاطىء جُدّة فتحطمت ، وأن صاحبها الرومىّ ـ وهو تاجر يريد أن يبيع أخشاب سفينته ٠

ويجد القوم فى هذه الأخشاب ما هم محتاجون إليه لكى يعيدوا بناءَ الكعبة ٠٠ فيستقدمون الرجل ويتفقون معه على شراءِ الأخشاب وكان بمكة رجل قبطى نَجّار تَهَيَّأَ لهم أن يستفيدوا بما له من خبرة فى البناءِ والنِّجَارة ٠

وعلى الفور يبدأُ الاستعداد لعملية الهدمِ والبناءِ ويجتهد الوليد فى ذلك أيَّما اجتهاد ٠ ولكن الكثيرين من وجهاءِ قريش وكبارهم ظلوا خائفين مترددين ٠٠ فجمعهم الوليد وسألهم : لماذا الخوف والتردُّد ٠ فأجابوه :

ـ نحن نهاب هدم بيت الله ! ٠

فصاح فيهم :

---

(١) ٠٠ وتكاليفها : صح أن قصيا جدد بناء الكعبة بعد إبراهيم والعمالقة وجرهم ٠

ـ ياقوم ٠٠ هل تريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة ؟
فأجابه أبو حُذيفةَ :
ـ إنما نريد الإصلاح ولاشيءَ غيره ٠
فقال الوليد :

ـ إن الله لايهلك المصلحين ٠٠ فهيا ارفعوا معاولكم ولنبدأ الهدم والعمارة ولا تُدخلوا فى عمارتها إلا من طيب أموالكم ٠٠ ولا تدخلوا مالاً من ربا ولا مال مَيْسرٍ ولا مهْرَ بَغِىٍّ ، وجَنِّبُوها الخبيثَ من أموالكم ، ولا تظلموا فيه أحداً من الناس فإن الله لايقبل إلا طيباً »(١) ٠

وهنا يتساءل أبو وهب :
ـ ومن الذى يعلوها فيبدأُ الهدم ؟
فيجيبه الوليد :
ـ أنا لها ٠٠ سوف أبدأ أنا الهدم وأنا شيخ كبير فانٍ ٠٠ فإن أصابنى أمر كان أجلى قد دنا ٠٠ وإن كان غير هذا فإنى أحمد الله على الحالين ٠٠ أين المعول ؟

فيقدم له أحدهم معولا فيمسك به وهو يردد :

---

(١) ٠٠ إلا طيبا : وذكر السهيلى : أن الوليد نحل هذا الكلام ، وإنما قاله ابو وهب ٠ جـ ١ ص ١٢٧ ٠ ١ هـ ٠

ـ اللهم لم نَزِغْ «١» .. اللهم لا نريد إلا الخير :

ويتقدم من الكعبة ويصعد إلى سطحها ويبدأ يضرب أحجارها بالمِعْوَل . والقلوب من حوله واجفة خائفة تتوقع أن يُصاب هو ويُصابوا هم بسوءٍ . ولكن شيئا لا يحدث للوليد .. ولا يحدث لهم . ومع ذلك فإنهم يبقون على خوفهم ويقررون الانتظار ليلتَهم ، ليروا ما يكون من أمر الوليد وأمرهم .

وتسهر قريش كلها تلك الليلة خائفة ترتعد وتتوقع الشر ينزل بالوليد وبهم ويصبح الوليد غادياً إلى بقية الهَدْمِ لم يَمْسَسْهُ سوءٌ فيسرعون جميعاً خلفه بالمعاول ويفعلون مثل ما يفعل ..

وتنتهى معاولهم إلى حجارة صَمَّاءَ ضخمةٍ على شكل أسْنِمَةِ الجِمَالِ ثابتة فى الأرض ، لا تتأثر بأقوى المعاول فى يد أقوى الرجال .. وتأخذهم الدهشة من أمر هذه الأحجار ويروحون يتساءلون عن كُنْهِها ؟ فيُجيبهم الوليد :

ـ هذه هى القواعد التى أمر الله سبحانه وتعالى نبيه إبراهيم عليه السلام برفعها .

فيقول أبو وهب :

ـ دون شك يابن المغيرة ، وإنها لحجارة غريبة ليست من

(١) .. لم نزغ ـ وغالب الروايات « لم ترع » وهى كلمة تقال عند التسكين والتأنيس . ا هـ .

أرضنا .. فلم نر مثلها من قبل .

وهنا يقول أبو حُذيفة وهو يتأملها متفحصاً لونَهَا الأخضر :

ــ ولم لا نحاول هَدْمَها لنرى ما تحتها ؟

فيوافقه الجميع ويتحمس الشبان للأمر مدفوعين بحب الاستطلاع .. ويبدأون فى ضرب الأحجار بمعاولهم ضرباتٍ مجتمعة .. ولكن المعاول تتحطم دون أن تتأثر .

فيصيح الوليد :

ــ اضربوها بالعَتَلَةِ «١» أو ضعوا العَتَلَةَ بين اثنين منها ثم حاولوا التفريق بينهما فقد يتحركان ويظهر لنا ما تحتهما ؟

ويستمع الشباب لقوله ويمسك البعض منهم بالعَتَلَةِ ويضعونها بين حجرين ثم يحاولون زَحْزَحَتَهُمَا .. وفجأة يَبْرُقُ فى المكان ضوءٌ يَخْطَفُ الأبصار .. فيتراجعون فى فزع وهم يتساءلون عن هذا الضوءِ ومصدره ؟ وقبل أن يأتيهم الجواب تنفلت من أحد الأحجار قطعة صغيرة وتستقر على الأرض ..

فيسرع إليها أبو وهب ويمسك بها ليفحصها ولكنها تطير من يده وتعود إلى مكانها فى الحجر مثل ما كانت ، قبل أن يتمكن من ذلك .

---

(١) العتلة : حديدة كأنها رأس فأس . اهـ .

وينظر بعضهم إلى بعض فى ذهول ولا يلبث ذهولهم أن يتضاعف ويتضاعف عندما ترتجف الأرض من تحت أقدامهم وتهتز مكة كلها بفعل زلزالٍ قوىٍّ يَرُجُّها رَجًّا عنيفاً قاسيًا !!

وهنا يتراجع الجميع عن مسّ هذه الأحجار بسوءٍ بل يبدأون فى البناءَ على الفور بعد أن أخرجوا كافة كنوز الكعبة من داخلها وجعلوها فى بيت أبى طلحة عبد الله بن عبد العُزَّى ٠٠ كما أخرجوا صَنَمَ هُبَل «١» أيضًا ووضعوه مع بقية الأصنام بالساحة ٠

وتروح القبائل تتنافس فى جمع الأحجار من كل مكان للبناءِ ولْكنهم يختلفون فى بناءِ مقدم البيت ٠ ويشتد الخلاف بينهم كالعادة ٠ فيقول أبو أُمَيَّة بن المغيرة :

ــ يا معشر قريش لا تنافسوا ولا تباغضوا فيطمع فيكم غيركم ولكن جَزِّئُوا البيت أربعة أجزاءٍ ثم رَبِّعُوا القبائل فلتكنَ أرباعًا ثم اقْتَرِعُوا عند هُبَلَ ٠

وأخذت قريش بقول أبى أُمية ٠٠ ويتم الاقتراع عند هُبَلَ بالساحة فيظهر قِدْحُ بنى عبد منافٍ وبنى زُهْرَةَ على الوجه الذى فيه البابُ وهو الشِّقُّ الشرقى ٠

---

(١) صنم هبل : هو هبل خزيمة ، لانه نصبه ، وكان اعظم الاصنام فى جوف الكعبة ، وكان من عقيق احمر على صورة إنسان ادركته قريش ويده مكسورة ، فجعلوا له يدا من ذهب ، ا هـ اصنام الكلبى ص ٣٧ ٠

ويطير قِدْحُ بنى عبد الدار وبنى أَسدِ بن عبد العُزَّى وبنى عديٍّ على الشِّقِّ الذى يلى الحَجَرَ وهو الشِّق الشامى ·

ويطير قِدحُ بنى سَهْم وبنى جُمَحٍ وبنى عامر بن لؤى على ظهر الكعبةِ وهو الشِّقُّ الغربىُّ ·

ويطير قِدْحُ تَيْم وبنى مخزومٍ على الشِّق اليَمانى ·

ويأْمرون بالحجارة أن تجمع بين منطقة أَجياد والضواحى فتسرع القبائل تنقل الحجارة تبركاً ·· ويشترك محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم فى نقل الأَحجار وهو ابن خمسة وثلاثين عاماً «١» ·

قال العباس :

رقابنا وأُزُرنا تحت الحجارة

فإذا غشينا الناس ائتزرنا ـ فبينا أنا أَمشى ومحمد قدّامى ليس عليه شىءٌ فخَرَّ فانبطح على وجهه فجئت أسعى وألقيتُ حجرى وهو ينظر إلى السماءِ فقلت : ما شأنك ؟ فقام فأَخذ إِزاره ثم قال : (نُهِيتُ أَن أَمشى عُرياناً) ·

وبينما قريش تبنى وتجتهد فى البناءِ وكل القبائل ممثلة فى المجموعة التى تبنى جاءَهم أبو حنيفة وصاح فيهم :

---

(١) ·· فى تحديد السنين خلاف بين المؤرخين ١٠ هـ ·

ـ ارفعوا باب الكعبة عن الأرض واكبسوها حتى لا تدخلها السيول ولا تُرقىٰ إلا بسُلَّم ولا يدخلها إلا من أردْتُم ٠ وإن جاءَ واحد ممن تكرهون رميتم به فيسقط ويكون نكالا لمن رآه ٠

فاستحسن الجميع رأْيه ونفذوا ما أَشار به عليهم وبنوا سافاً «١» من حجارة وسافاً من خشب حتى انتهوا إلى موضع الحجر الأَسود فعادوا إلى الخِلاف من جديد واشتد بينهم ذلك الخلاف واحتدم ٠

وقال بنو عبد مناف :

ـ هو في الشق الذى وقع لنا ونحن أَولى به من غيرنا ٠٠

وقالت تَيْمٌ ومخزوم : بل نحن أَحق من الجميع بوضعه ٠

وأَصرّت كل قبيلة على أن تستأْثر بشرف رفع الحجر الأَسود إلى مكانه من جسد الكعبة ٠٠ واشتعلت الخصومة وتطاير الشّرر يُنذر باقتراب حربٍ طاحنة تأْكل الأَخضر واليابس ٠

وبقيت قريش أَربع ليال والخطر يتهدَّدها ، وراح الكل يستعد ويعد العدة للقضاءِ على الآخر ، وحاول العقلاءُ والكبار من رجالات قريش أَن يحسموا الأَمر قائلين : إن رَفْعَ الحجر لم يكن ضمنَ الاقتراع وأَنه يمكن الاقتراع عليه من جديد ٠

---

(١) سافا : الساف ، كل عرق من الحائط ٠ ا هـ ٠

ولكن محاولاتهم كلها راحت عبثاً ·· إذ استمر الخلاف واستحكم وبلغ أشده وجاءت بنو عبد الدار بجفنة مليئة بالدماء وصاح كبيرهم :

ــ يا بَني عبد الدار ·· هذه جَفْنتُنَا قد امتلأت بالدماءِ ·· فتعالوا واغْمِسُوا أيديكم فيها ولنتعاقد على الموت إنّ فاتَنا شرف وضعِ الحجرِ الأسودِ مكانَه ·

وجاءَ بنو عبد مناف وقالوا :

ــ لن يفوتَنا هذا الشرف ·· الموتُ لنا إنْ فاتَنا ··

وصاح بنو أسد :

ــ ونحن بنو أسد ومعنا بنو عديٍّ نعلن أنَ هذا الشرف لن يستأْثَرَ به غيرُنا إلا بعد أن نكون قد أصبحنا طعاماً تهضمه بطونُ الوحوش فى الجِبال ·

وهنا تقدم منهم أبو حذيفة «١» وصاح فيهم :

ــ كفى ·· كفى يا معشر قريش لقد أردنا البِرَّ ولم نُرِدِ الشر ·· فلا تحاسدوا ولا تنافسوا ·· فإن فعلتم تَشَتَّتَتْ أمُورُكم وطَمِعَ فيكم غيرُكم ·· حَكِّمُوا بينكم أول من يدخل من هذا

(١) ·· ابو حذيفة ــ فى سيرة ابن إسحق : ان ابا امية ابن المغيرة المخزومى هو الذى حكم بهذا ، وكان عامئذ اسن قريش كلها · اهـ ·

الباب ·· يَفْصِلُ فى خلافكم !·

فوافقت القبائل كلها على ذلك وتَعلَّقَتْ أعينهم بالباب الذى أشار إليه أبو حذيفة ·· تترقب الداخل المجهول ليحكم بينهم وَيَفُضَّ خلافهم ·· .

وإنهم لكذلك إذ يدخل محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ·· فهتفوا جميعاً :

ـ هذا الأَمِينُ ·· هذا محمد بن عبد الله الهاشمىُّ ·· قد رضينا بحكمه ·

وأَقبلوا جميعاً عليه وشرحوا له ما كان من أمرهم فطلب ثوباً ثم وضَع الحجر بيده الكريمة وقال صلى الله عليه وسلم :

(لِيَأْتِ من كُلِّ رُبع من أَرْبَاعِ قريش رجُل) ·

فكان فى رُبع عبدِ مناف عُتْبَةُ بْنُ ربيعةَ ، وفى الرُّبُع الثانى أبو زَمْعَةَ بنُ الأَسودِ ، وفى الرُّبُعِ الثالثِ العاصُ بنْ وائل ·· وفى الرُّبُعِ الرابعِ أبو حذيفةَ بنُ المغيرة نفسه ·

ثم قال صلى الله عليه وسلم (ليأْخذْ كلُّ رجُل منكم بزاويةٍ من زوايا الثوبِ ثم ارفعوه جميعاً) ·

ثم ارتقى النبى صلى الله عليه وسلم على الجَدْرِ ورفع القوم له الرُّكْنَ حتى إذا بلغوا موضعه وضعه بيده الكريمة فى مكانه ·

وهكذا حُلَّتِ المشكلة العويصة وحُقنتْ دماءُ قريش

واستمرت قريش فى البناءِ حتى النهاية ، وهنا سألَهم النجار القبطى :

ــ هل تريدون أَن تجعلوا له سقفاً أم تتركونه بلا سقف ، ؟

فقالوا :

ــ بل اجعل لبيت ربنا سطحًا .

فجعل القبطى للكعبة سطحًا وجعل لها ميزابًا ثم جعل لها من الداخل أَدراجًا من الخشب وَزَيَّنَ سقفها وجدرانها بمجموعة من الصُّور والرسومات .. كانت فى مقدمتها صورةُ إِبراهيم عليه السلام كما تَخَيَّلَه . وصُوَرُ الملائكةِ . وصورةٌ لِمرْيَمَ وابْنُهَا عيسىٰ فى حِجْرِها . وكل هذه الصور تَحْمِلُ الطابَعَ المسيحىَّ ، وكان من الطبيعى أَن تكون كذلك .. فالرجل كان مسيحياً على دين عيسىٰ ابن مريم .

وقد بقيت هذه الصور والرسومات والأصنام التى كانت خارج وداخل الكعبةِ إِلى أَن انبثق نور الحق وجاءَ الإِسلام "(١)" .

---

(١) .. وجاء الاسلام : فى صحيح البخارى ، وتاريخ الازرقى ، وكتب السيرة : أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ دخل البيت يوم الفتح. فرأى فيه صور الملائكة ... ورأى ابراهيم ــ عليه السلام ــ مصورا فى يده الازلام يستقسم بها . فقال ــ قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالازلام ، ماشأن إبراهيم والازلام « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين» ٣ : ٦٧ ثم امر بتلك الصور كلها فطمست . ا هـ .

ظهور الإسلام

وتمضى بنا قافلة الزمان لنرى فصلا من أعظم وأروع فصول هذه القصة .. قصة الكعبة المشرفة .. نراها وقد أشرق فجر الإسلام فى ليلة القدر ، وخرج محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم من غار حِرَاءٍ"(١)" بالكلمة الأولى التى تلقاها من ربه :

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْرَأْ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقْرَأْ وربك الأكرم * الذى علَّم بالقلم * علَّم الإنْسَانَ مَالم يعلم

(صدق الله العظيم) ٩٦ : ١ ـ ٥ » .

وبدأ مع نور الإسلام فجر حياة جديدة للإنسانية كلها .

وتطهرت الكعبة من الأوثان وكل ما كان بداخلها أو خارجها من تلك الأصنام التى كانوا ينحتونها بأيديهم فى الصخر أو يصنعونها من الخشب ثم يسجدون لها من دون الله .

ويقال إن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى إسماعيل عليه السلام أنه كان لا يخرج من مكة أحد من أهلها أو من زوَّارها الوافدين إلا حمل معه بعضا من حجارة الحرم تعظيمًا للحرم والكعبة ."

---

(١) غار حراء : جبل من جبال مكة ، كان يتعبد فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهناك نزل عليه جبريل عليه السلام بالوحى . ا هـ .

وكان الواحد منهم أينما وجد يضع الحجَر ثم يطوف به كما يطوف بالكعبة ، ثم أخذوا يتخيرون الأصنام في الحَجْمِ والشَّكْلِ ومع الأيام نسوا دينَ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام وعَبَدُوا الأوثان . وصاروا إلى ما كانت عليه الأُمَمُ قبلَهم من الضلالات والخرافات ، وأصبح لكل قبيلة صَنَمُهَا الخاصُّ بالكعبة .

وكان هُبَلُ أكبرَ أصنام قريش من العقيقِ التائر على صورةِ إنسان ، ولما كُسرتْ يده اليمنى صنعت قريش له يداً من ذهبٍ . وكان يقف على البئر في بطن الكعبة وإلى جواره خِزانةٌ للقرابينِ الخاصةِ به .

ولما طغت جرهم وبغت وأحدثَتْ في الكعبة ما أحدثَتْ دخل رجل منهم هو إسافُ بن بِغَاءٍ وامرأةٌ منهم أيضاً هي نَائِلَةُ بنتَ ذِئْب "١" إلى الكعبة وفسقا بها فمسخهما الله حَجَرَيْنِ ، فَأُخرجا من الكعبة ونُصِبَ أحدهما على الصَّفا ، والآخَرُ على المَرْوَةِ ليعتبريهما الناس ، فلم يزل الأمرُ يَنْدَرِسُ ويتقادَمُ حتى كانا يَتمسح بهما مَنْ يَقِفُ على الصفا والمروة .. ثم صارا وَثَنَيْنِ يُعبدان .. ولما ارتفعت قيمتهما في أعين الناس بسبب الجهل

(١) نائلة بنت ذئب: هما إساف بن يعلى ، ونائلة بنت زيد من جرهم ، أقبلا حجاجا من اليمن ففجرا بالبيت فمسخهما الله ، وعبدتهما خزاعة وقريش . وفي بعض المراجع إساف بن بغى ، وإساف بن عمرو ، ونائلة بنت ديك ، ونائلة بنت سهيل . ا هـ

نقلهما عَمْرو بن لُحَيٍّ فجعل أَحدهما بجوار الكعبة والثانى عند بئر زمزم ، وأَمر الناس بعبادتهما ٠

فكان الحاج إِذا طاف بالبيت يبدأُ بإِسافٍ فيستلمُه ، فإِذا فرغ من طوافه ختم بنائلةَ فاستلمها ٠

حتى جاءَ يوم الفتح ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة وبها آنذاك ثلاثمائة وستون صنماً ـ وكان بيد الرسول الكريم قَضيبٌ ـ فكان يضرب به الواحد منها وهو يقول :

(جَاءَ الحَقُّ وزَهَقَ الباطلُ ، إِنَّ الباطلَ كان زَهُوقًا ١٧ : ٨١)

قال ابن إسحق

ـ لمَّا صلى النبى صلى الله عليه وسلم الظهر يوم الفتح أَمر بالأَصنامِ التى كانت بالكعبة وحولها فجُمعتْ كلها ثم حُطِّمَتْ وحُرِّقتْ بالنار ـ وفى ذلك يقول الشاعر فَضَالَةُ بن عُمَيْر :

أَوَمَا رأَيتَ محمداً وجُنُودَه
بالفَتْحِ يومَ تُكَسَّرُ الأَصْنَامُ

ورأَيتَ نورَ الله أَصْبَحَ بَيْنَنَا
والشِّرْكَ يَغْشَى وَجْهَهُ الإِظْلامُ

ويُحكى : أن بعضهم كان يصنع الأَصنام فى الجاهلية ثم

يبيعُهَا فى الأَسواق ــ وكان أولاده يطوفون بها فيشتريها الناس ويذهبون بها إلى بيوتهم ·· ولم يكن فى مكة رجلٌ من قريش ليس فى بيته صنم يَمْسَحُه إذا خرج من البيت وإذا دخل تبركاً به وتَيمُّناً ·

فلما كان يوم الفتحِ أَمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المنادى أن يطوف بشوارع مكة منادياً ·

ــ أَيها الناس ·· من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يتركن فى بيته صنما إلا كسره وأحرقه ، واعلموا أن ثمنه حرام ·

واندفع عِكْرِمةُ بن أَبى جَهْلٍ بنفسه إلى كل بيت فى مكة يعرف أن فيه صنمًا فحَطَّمَه وأَحْرَقَهُ وهو يقول :

ــ لقد عانينا الكثيرَ ·· الكثيرَ من هذه الأَصنامِ ولا بد من القضاءِ عليها القضاءَ المبْرَمَ ·

وقيل : إن هنداً بنتَ عُتْبَةَ كان لها صنم تعلق عليه قلائد الذهب وأساور الفضة وتصب عليه اللبن وتذبح له ·· فلما أسلمت أمسكت مِعْوَلا وحطمته ، ورأتها إحدى صديقاتها تفعل ذلك فسألتها :

ــ لماذاَ تحطمينَه اليومَ يَاهند وقد نصَحتك بالأمسِ ألا تعبديه فلم تأخذى بنَصيحتى ؟

فأَجابتها هند :

ـ كنت منه فى غرور ٠٠ والحمد لله قد أسلمت اليوم وانتهيت من كل ما كان بالماضى ٠

عن ابن عباس : أن رجلا ممن مضى كان يقعد على صخرة لثقيفٍ يبيع السمن للحجاج إذا مروا به فَيَلُتُّ سويقهم ٠٠ فمات الرجل ، فسميت : صخرةَ اللاّتّ ، وحيكت حولها مع الأيام قصص ونسجت روايات خرافية كثيرة"١" ٠

ويقال : إن الرجل لما مات وتفقده الناس قال لهم عمرو بن ربيعة :

ـ إن ربكم كان اللاّتّ فدخل فى جوف الصخرة ٠٠

ثم أمرهم بعبادتها وزين لهم ذلك ٠٠ فعبدوا اللاّت ٠

وكانت العُزّى ثلاث شجرات سمراءَ بنَخْلةَ"٢" ، وكان أول من دعا إلى عبادتها هو عمرو بن ربيعة والحارث بن كعب بعد أن أخبرهما عمرو بن لُحَيٍّ بأن ربهم يَتَصَيَّفُ باللاّت لبرد الطائفِ ويَشْتو بالعُزّى لحرِّ تِهامَة ٠

فعكف الناس على اللاّت والعُزّى يعبدونها من دون الله

(١) ٠٠ خرافية كثيرة ٠ هدم اللات ، المغيرة ، وابو سفيان ، فخرج النساء حسرا يبكين عليها ، وكانت لثقيف ، ا هـ ٠

(٢) ٠٠ سمراء بنخلة : هى صنم ، او سمرة عبدتها غطفان ، اول من اتخذها ظالم ابن اسد فوق موضع يقال له ذات عرق ، بنى عليها بيتا ، سماه ٠ بسا ، فبعث اليها الرسول خالد بن الوليد ، فهدم البيت واحرق السمرة ، وهى نخلة الشامية ، على ليلتين من مكة ٠ ا هـ ٠

سبحانه وتعالى .. وكانوا إذا فرغوا من الحج والطواف بالكعبة يطوفون باللاّت ثم بالعُزّى ويمضون عند كل منهما يوماً يَحِلُّون فيه وينحرون .

وكان لها سَدَنَةٌ يرتزقون من خلفها .. بل يَجْنُون أرباحاً خيالية لا يتصورها العقل .. وكانوا يَحْجُبُونَها عن الناس إذا لم يحتفلوا بها ويقيموا لها الطقوس .

عن أبي واقد الليثي ـ وهو الحارث بن مالك ـ قال :

(خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حُنينٍ وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرةٌ عظيمةٌ خضراءُ يقال لها : ذاتِ أنْواطٍ يأتونها كلَّ سنة فيعلقون عليها أسلحتهم وينبحون عندها ويَعْكفون يومًا ..

فقلنا :

ـ يارسول الله اجعل لنا ذاتَ أنواطٍ«١» كما لهم ذاتُ أنواطٍ .

فقال لنا صلى الله عليه وسلم .

(الله أكبر .. الله أكبر .. قلتم ـ والذى نفس محمد بيده ـ كما قال قوم موسى) .

(١) .. ذات انواط : الأنواط . المعاليق . وسميت بذلك لتعليقهم عليها ما شاءوا . أهـ .

والمعروف أن الأصنام جميعاً قد انتهت على اختلاف أنواعها وأصحابها يوم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم السرايا فى كل مكان · وأمرهم أن يُغيروا على كل من لم يكن على الإسلام ، وأن يهدموا كلَّ صنمٍ ويُحَطِّموا كل وثَنٍ ثم يُحرّقوه · فخرج فُرسان المسلمين كل إلى ناحية حيث نَفَّذوا أمر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ·

وخرج خالد بن الوليد فى ثلاثين فارساً من أصحابه إلى العُزَّى فهدمَهَا ثم رجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له الرسول : (أهَدَمْتَ ؟) فأجاب خالد بالإيجاب ·· فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : (هل رأيت شيئاً ؟) فأجاب خالد بالنفى · فقال له النبى : (فإنك لم تهدمها فارجع إليها فاهدمْهَا · فتعجب خالد للأمر واندفع فى غيظٍ وحَنَقٍ إلى مكان العُزّى وجَرَّدَ سيفه وهو يصيح مهدِّداً · فخرجتْ إليه من داخل الشجرة امرأةٌ عجوزٌ سوداءُ عاريةٌ ناشرةٌ شعرَها تستغيث · فأسرع أحدُ السَّدنَةِ إليها وهو يقول :

أعـــزّى فشـــدّى شَدَّة لا تُكَذِّبى
أعــزّى فألقِـــى ذا القنـــاع وشَمِّرى" ١"

(١) وشمرى ــ فى كتاب الاصنام ص ٢٦ ←

أَعُــزَّى لئــن لم تَقْتُلِى اليــومَ خَالداً
فبُوئِـــى بإِثْـــم عاجـــلٍ أَوَ تَنَصَّرى

فرفع خالد بن الوليد سيفه وهو يقول :

كُفرانَــكِ ياعُـــزَّى لا سُبْحَانَكْ
إِنـــى رأَيـــتُ . اللهَ قد أَهَانَكْ

ثم ضربها بالسيف فجَزَلَهَا باثنتَــين«١» ثم رجــع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأَخبره بما رأَى ، فقال النبى الكريم :

(نَعَمْ تلك العُزَّى قد أَيِسَتْ أَن تُعْبَدَ ببلادكم أَبداً)

ثم قال خالد :

ـ يارسول الله الحمد لله الذى أَكرمنا بك وأَنقذنا بك من الهلكة .. لقد كنت أَرى أَبى يأْتى العُزَّى بخير ماله من الإِبل والغنم فيذبحُهَا للعُزَّى ، ويقيم عندها ثلاثاً ثم ينصرف إِلينا

اعـــزاء شدى شدة لا تكنبى على خالـــد القى الخمار وشمرى
فـإنك إن لا تقتلى اليوم خالدا تبوئى بذل عاجلا وتنصرى

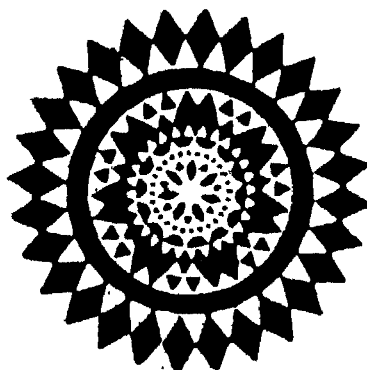
وفى قول خالد « يا عز كفرانك لا سبحانك » .
وكانت شيطانة تاتى إلى السمرات الثلاث . اهـ .

(١) .. باثنتين ـ وقتل سادنها ، وهو دبية الشيبانى .

مسروراً . ونظرت إلى ما مات عليه أَبى وإلى ذلك الرجل الذى كان يغاش فى فضله وكيف خُدِعَ حتى صار يذبح لما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن هذا الأَمر إلى الله ، فمن يَسَّرَه إلى الهُدى تَيَسَّر له ، ومن يَسَّره للضلالةِ كان فيها) .





وتمضى بنا قافلة الزمان لنعيش تلك الفصول المشرقة من قصة الكعبة المعظمة حيث نرى محمداً صلى الله عليه وسلم وهو يجاهد ويكافح من أجل إعلاء كلمة الله ونشر دينه القويم .

ونرى عظماءَ مكة وكبار شخصياتها مجتمعين بالبيت الحرام وقد أخذتهم العزة بالباطل وأكلت الأحقاد أكبادهم يتناقشون فى أمر محمد ويقولون قولا عجباً !!

فهذا الوليد بن المُغيرة المخزوميُّ يقول :

أيهبط الوحى على محمد وأُترَكُ أنا .. وأنا الوليد بن المغيرة كبير قريش وسَيِّدُ أشرافها ؟ !

وهذا أُمَيَّةُ بن أبى الصَّلْتِ شاعرُ ثقيفٍ وعظيمُها يقول :

ـ أيُؤثر محمد بالنبوة وما عرفنا له مالا ممدوداً ولا ولداً مَعْدودًا ولا جاهاً مشهوداً ؟

ونترك هؤلاء وغيرهم من أهل قريش فى حقدهم وحسدهم يَعْمَهُونَ ونتجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنجده وقد تلقى من ربه كلمات ..


بسم الله الرحمن الرحيم


« وَأَنْذِرْ عشيرَتك الأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جِنَاحَك لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المؤْمِنين * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مما تعملون » ·

(صدق الله العظيم)

ونراه وقد أخذ طريقه إلى بيت الله الحرام حتى إذا وصل الصفا صعد عليه ونادى بأعلى صوته : (وَاصَبَاحَاهْ) فلما هُرِعَ القوم إليه قال صلى الله عليه وسلم :

(أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سَفْـحِ هذا الجبل ·· أكنتم مُصَدِّقِيَّ ؟) ·

فيقولون : أجل ·· أجل ·· ما جَرَّبنا عليك كذباً قط ·

فيقول صلى الله عليه وسلم : (فإنى نذير لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديد) ·

ويرتفع صوت عمه عبد العُزَّى «١» ساخراً متهكماً :

ـ تبّاً لك ·· ألهذا جمعتنا ؟ !

فلا يردُّ عليه الرسول الكريم ولا يحفل به ، فيندفع عبد العُزَّى بكل ما فيه من قوة الكفر والعداوة للإسلام والرغبة فى إيذاء

---

(١) ·· عبدالعزى : هو ابو لهب ، احد الأشراف الشجعان فى الجاهلية ، ومن اشد الناس عداوة للمسلمين ، وكان غنيا ، احمر الوجه ، مات بعد وقعة بدر ، ولم يشهدها (تاريخ الاسلام للذهبى جـ ١ ص ٨٤) ·

الرسول – يندفع فى سخريته وتهكمه ويروح يكيل السبابَ والشتائم لابن أخيه ·

وتتنزل الآيات الكريمة على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم

« تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُه وَمَا كَسَبْ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُه حَمَّالَةَ الْحَطَب * فى جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَد ١١١ : ١ – ٥ » ·

(صدق الله العظيم)

وتبلغ هذه الآيات الرهيبةَ أُمَّ جَمِيلٍ بنتَ حَرْبٍ زوجةَ عبد العُزَّى (أَبى لَهَبٍ) فَلاَ تَتَّعِظُ ولا تعتبر وإنما يشتعل غيظها ويلتهب غضبها وتخرج إلى الكعبة تريد محمداً ، وفى يدها حجر ضخمٌ تنوى أن تَشُجَّ به رأْسه الشريف ·

وتدخل المرأة الحَقودُ إلى الكعبة وتدور بعينيها بين الحاضرين تبحث عن رسول الله ، ولكن الله يُعْمِي بَصَرهَا فلا تراه · فتتجه إلى أبى بكر الصدّيق تسألَه

– أين صاحبك ؟ لقد بلغنى أنه يَهْجُونى والله لو وجدتَه لضربت رأْسَه بهذا الفِهْرِ «١» · إنه إن يكن شاعراً يحسنُ القول

(١) ·· الفهر : هو الحجر الذى يملأ الكف ، ا هـ ·

ونَظْمَ الكلام .. فأنا أيضاً شاعرة أُحْسِنُ القول والنظم .

ولا يرد عليها أبو بكر الصديق فتخرج من الكعبة لتبحث فى مكان آخر وهى تَرْتَجِزُ :

مُذَمَّماً عَصَيْنَا «١»

وأَمْرَهُ قَلَيْنَا

ودِيْنَه أَبَيْنَا

وينظر الصدّيق رضى الله عنه إلى الرسول الكريم الجالس إلى جواره يسأله فى دهشة :

ـ يا رسول الله .. أما تراها رَأَتْك ؟

فيقول الرسول صلى الله عليهِ وسلم : (مَا رأَتْنى ، لقد أخذ الله ببَصَرِهَا عَنى) .

ولما فشلت جميع المحاولات التى حاولها كفار قريش مع أبى طالب عم النبى وباءَتِ المفاوضات والمساومات بخيبة الأَمل .. احتشدوا فى ساحة الكعبة وأرسلوا فى طلب محمد ليواجهوه مجتمعين .. وحضر الرسول الكريم ودخل بخطوات ثابتة إلى مكانهم بالحرم ، فسلم وجلس .. فانبرى أولهم له وقال :

ـ يا محمد إنا قد بَعثنا إليك لنكلمك وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثلَ ما أدخلتَ على قومك .. لقد شتمتَ

(١) مذمما ـ تقصد بالمذمم ـ والعياذ بالله ـ محمدا عليه السلام . ا هـ .

الآباءَ وشتمت الأديان وشتمت الآلهةَ ، وسفَّهتَ الأحلام ، وفرّقت الجماعة ‥ فما بقى أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك ٠

وقال آخر :

ـ وقد عرضنا عليك الأموالَ وجمعنا لك منها ما يجعلك أكثرنا مالاً ‥ وعرضنا عليك الشرفَ ‥ وَقَبِلْنَا أن تكون سيداً لنا لا نَقْطَعُ بأمرٍ دونك ‥ وعرضنا عليك المُلك ٠

وقال ثالث :

ـ وعرضنا عليك الطِّبَّ إن كان ما بك داءً تريد أن تَبْرَأَ منه !

ورد عليهم الرسول الكريم مُعْرِضًا عن كل ما عرضوه عليه ، رافضًا المالَ والشرف والملك والجاه ‥ وأفهمهم أن الله سبحانه وتعالى قد بعثه إليهم رسولا ، وأنزل عليه القرآن وأمره أن يكون بشيراً ونذيراً وقال لهم : إنه قد نصحهم فإن قبلوا النصيحة فهو حظهم فى الدنيا وفى الآخرة ، وإن ردوها فسوف يصبر لأمر الله حتى يحكم بينه وبينهم ٠

ولم يُعجِبْ هذا القولُ قريشاً ‥ فانبرى له أحدهم يقول :

ـ لماذا لا تسألَ لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فَيُسَيِّرَ عنا هذه الجبال التى ضَيقتْ علينا وَيَبْسُطَ لنا بلادنا وُيفَجِّرَ لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق ومصر ‥؟

وقال آخر :

ـ سَلْ ربك يا محمد أن يبعث لنا ما مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قُصَيُّ بن كِلابٍ فإنه كان شيخَ صِدْق ، فإننا نريد أن نسأله عما تقول أهو حق أم باطل .

وقال ثالث

ـ فإن صَدَّقُوك وصنعتَ لنا ما سألناك صدَّقناك وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولا كما تقول .

فرد عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم رداً كريماً جعلهم يقولون :

ـ إذَنْ سَلْ ربك يُرسلْ معك مَلَكاً يُصَدِّقُك بما تقول ويراجعنا معك .. وسله أن يجعل لك جِناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمسُ المعاشَ كما نلتمس .

واشتد عنادهم وكثر جدالهم واشتعلت خصومتهم وراح كل منهم يقترح اقتراحاً .. ويطالب الرسول الكريم بأن يطلب من ربه تحقيق ما يقترح ، وأيقن الرسول صلى الله عليه وسلم عبث ماهم فيه من جدال ، فتركهم ومضى ، وهنا أسرع خلفه عبد الله بنُ أبى أُمَيَّةَ بنِ المُغيرةِ وصاح

ـ يا محمد .. عرَضَ عليك القوم أسْخَى العُروض فلم تقبل منهم .. ثم سألوك أموراً لأنفسهم ليعرفوا بها مكانتك عند ربك فلم تقْبَلْ .. ثم سألوكَ أن تحقق لنفسك ما يعرفون به فضلك

عليهم ومكانتك عند الله فلم تفعل ·· ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تُخَوِّفُهم به من العذاب فلم تفعل ·

ونظر إليه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وكأنه يسأله ماذا يريد هو ·· فقال :

ـ والله لا أُومِنُ بك أبداً حتى تتّخذ إلى السماء سُلَّماً ثم ترْقى فيه وأنا أتطلع إليك حتى تأْتيها ثم تأتى معك بأربعةٍ من الملائكة يشهدون أنك كما تقول ·· وَايْمُ اللهِ لو أنك فعلت كل ذلك ما ظننت أنى أُومِنُ بك أو أُصدقك ·

ولم يُعَلِّق النبىُّ صلى الله عليه وسلم بشىءٍ على هذا المنطق العجيب الغريبِ وإنما مضى إلى بيته وهو يدعو الله أن يهديهم ويُنقذهم من دياجير الظلام التى يتخبطون فيها ·· ·

ويُسْقَطُ فى يد قريش بعد أن فشل الاجتماع الذى عقدوه بالكعبة لمناقشة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وأزكى سلامه ·· وكانوا قد عقدوا الآمال الكبار على هذا الاجتماع وصور لهم خيالهم المريض أنهم سوف يتمكنون من إفحام النبى الكريم بجدالهم ونقاشهم أو على الأقل يتمكنون من التأثير عليه بالعروض البراقة المُغرية ·

ولكن رسول الله صلوات الله عليه وأزكى سلامه رفض كل ما عرضوه ، واستمرّ يسير قدمًا فى نشر دعوته ·· ودخل الناس فى

دين الله أفواجًا رغم إيذاءِ قريش لهم ·· بل كان تمسكهم بدينهم يزداد ويقوى كلما ضاعفت قريش من ذلك الإيذاءِ ·

وكان إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه واحتضان النَّجَاشِي للمسلمين المهاجرين إلى الحَبَشةِ حدثَيْن قويَّيْن قَضَيَا على ما بقى من صبر قريش ·· فبدأت تتأهب لجولة حاسمة تقضي بها على محمد وعلى دعوته ، وجمع أبو سفيان كبار قريش وعظماءَهَا وقال لهم :

ـ الحرب ولا شىءَ غير الحرب يا معشر قريش ·· الحرب هي وحدها الكفيلة بالقضاء على هذه الدعوة التى تنتشر وكأنها النار فى الهشيم ·

فأمَّن أبو الحَكَم (أبو جهل) على قوله قائلا :

ـ نعم يا أبا سفيان ، ونِعِمَّا بهذا الرأى ·

وقال زهير :

ـ تذكروا يا قوم أنكم سوف تخوضون هذه الحرب مع آل عبد المطلب وبنى هاشم وليس مع محمد وأصحابه وحدهم ·· وبنو عبد المطلب وبنو هاشم من صميم قريش ·· إنهم منكم وأنتم منهم ، الدماءُ واحدة ·

فقال أبو سفيان :

ـ ماذا ترى غير الحرب ؟

فقال زهير بنُ زادِ الراكب «١» :

ـ أرى أن نفرض عليهم حصاراً شاملا ٠

قال أبولهب :

ـ ماذا تعنى بقولك (حصاراً شاملاً) ؟

قال زهير :

حصار اجتماعى اقتصادى ، لاتُصْهِرونَ إليهم «٢» ولا تبيعونهم شيئا ، ولا تبتاعون منهم ٠

فقال أبو سفيان بفرح :

ـ بَخٍ ٠٠ بَخٍ ٠٠ هذا رأى صائب ٠٠ لابد أن نأخذ به وأن نتحالف عليه ٠٠ وأن نسجل الحِلْفَ فى صحيفة نُعَلِّقُهَا فى جوف الكعبة ٠٠ توثيقًا لحُرمتها ولكى لايخرج واحد منا على الحِلْفِ وينقضَه ٠

والتزمت قريش بهذا الحِلْفِ التزاماً شديداً واستمرت على ذلك ثلاث سنوات لقى فيها محمد وأصحابه الأَمَرَّيْنِ وقاسوا من جهد الحصار ما لا يوصف ٠

ولما أحست قريش بحال المهاجرين وما يعانون غالت فى الأمر ٠٠ فحالت بينهم وبين الطعام والكساءِ حتى بلغ بهم الجوع

(١) ٠٠ ابن زاد الركب ـ انظر ـ ازواد الركب لجودهم فى بلوغ الارب جـ١ ص ٩٢ ٠

(٢) لا تصهرون إليهم : اى لا تتصلون بهم بجوار ، او نسب ، او تزوج ٠ ا هـ

مبلغاً جعل التمرة الواحده غذاءً لاثنين ليوم او عدة أيام ٠٠ وكان طعامهم يقتصر على الخَبَطِ «١» وورق السَّمُرِ وما كان ينقله إليهم سراً بعض أقاربهم ٠

يقول ابن هشام فى السيرة النبوية : إن أبا الحكم بنَ هشام (أبا جهل) لقى حكيمَ بنَ حِزَامِ بنِ خُوَيلدِ بنِ أسَدٍ ومعه غلام يحمل قمحاً يريد به عمتَه خديجة بنتَ خُوَيلدٍ عند زوجها عليه الصلاة والسلام فى شِعْبِ أَبى طالب ٠٠ فتعلق به أبو جهل وقال :

ـ أتذهب بالطعام إلى بَنِى هاشم ٠٠ ؟ والله لاتبرحْ أنت وطعامك حتى أفضَحَك بمكة ٠

ولحهما أَبو البخْتَرِّى بنُ هشام الأَسدىُّ «٢» فجاءيسأَل أَبا جهل :

مالك وله ؟

فأَجاب أبو جهل :

ـ يحمل الطعام إلى بنى هاشم

فقال أَبو البُخْترى ٠

ـ وما فى هذا ؟ طعام كان لعمّته عنده وقد بعثت إليه فيه ٠٠

---

(١) ٠٠ الخبط ورق ينفض بالمخابط ، ويجفف ويطحن ويخلط به دقيق او غيره ويوخف بالماء فتؤجره الابل ، والسمر شجر من العضاه ، ا هـ ٠

(٢) ابو البخترى : هو العاص بن هشام ، من زعماء قريش ، ولم يعرف عنه إيذاء للنبى صلى الله عليه وسلم ، وحضر بدرا مع المشركين ، ونهى عن قتله ، ولكنه قتل ا هـ امتاع الاسماع جـ ١ ص ٢٢ ٠

أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خَلِّ سبيل الرجل

فرفض أبو جهل وتشادّا .. فأخذ أبو البَختري لِحْيَ بعير فضربه به فشجّه ، ووطئه وطئاً شديداً ، وحمزة بن عبد المطلب قريب منهما يرى ذلك ويتأهب للبطش بأبي جهل .. وهم يكرهون مع هذا أن يبلغ مثلُ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت هذه الواقعة بدايةَ تنكُّر البعض من قريش لذلك الحِلْف المشئوم الظالم .. وبدأ ذلك البعض يتعاطف مع المحاصرين ويفكر فى فك الحصار عنهم .. وكان أَولَ من فكر فى نقض الحلف هو هشامُ بن عمرو بن ربيعة العامريُّ وكانت تربطه صلة رَحِم ببنى عبدِ مناف .. وكان يرسل الطعام إلى المحاصَرين سراً فى جوف الليل .. ولما استعصى عليه ذلك بعد أَن شددت قريش الحراسة .. ذهب إلى زُهير بن زاد الراكب فقال له :

ـ يازهير .. أقد رضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وتتزوج النساءَ ، حيث علمت محاصرون ، لايبيعون ولايبتاع منهم ؟ أَمَا إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوالَ أَبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم... ماأجابك إليه أبداً ..

فانفعل زهير بقوله وصاح : واخوالك

ـ ويحك ياهشام .فماذا أصنع ؟

فقال هشام .

ـ أَنقُضِ الحِلْفَ يارجُل ·

فقال زهير :

ـ إنما أَنا رجلَ واحد ·· ولو كان معى آخر لقمت فى نقض الصحيفة حتى يتم ذلك ·

فقال هشام :

ـ اطمئن لقد وجدت لك الرجل ·

فسأَله زهير عن الرجل ، فأَشار إلى نفسه وقال :

ـ أَنا ··

فعاد زهير يقول :

ـ اِبْغِنَا رجلا ثالثاً ·

فقال هشام :

ـ أَفعل ·· وإنى لذاهب الآن إلى المُطْعِم بن عدىٍّ "[1]" بنِ نوفل بنِ عبد مناف ·· ومضى من ساعته إلى المُطْعِم فقال له :

ـ يامطعم أيرضيك أن يَهلِكَ بَطنَانِ من بنى عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ؟ أَما والله لئن أَمكنتموهم من

---

(١) المطعم بن عدى رئيس بنى نوفل فى الجاهلية ، وقائدهم فى حرب الفجار ، وهو الذى اجار رسول الله لما انصرف عن اهل الطائف ، وفى صحيح البخارى « لو كان المطعم بن عدى حيا ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى ـ يعنى أسارى بدر ـ لتركتهم له » ا هـ فتح البارى جـ ٧ ص ٢٤٩ ·

هذه لتجدونهم إليها منكم سراعاً ·

فوافقه المُطعم على ذلك وخرج معه إلى أَبى البَخترى ثم إلى زَمَعَةَ بن الأَسود "١" واجتمع الخمسة واختاروا زهيراً لكى يعلن رفضهم للحلف ·· فلما كان الصباح غدا زهير إلى الكعبة المشرفة فطاف بها سبعاً ثم جمع الناس وقال :

ـ يا أَهل مكة ·· أَنأْكل الطعام ·· ونلبس الثياب ؟ وبنو هاشم هَلْكى فى الحصار لايباع لهم ولا يبتاع منهم ؟ والله لاأَقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ··

فصاح به أَبو الحكم (أَبو جهل) :

ـ كذبت يازهير ·· والله لاتُشَقُّ أَبداً ··

فصاح زَمَعَةَ فى أَبى جهل :

ـ أَنت والله الكاذب وما رضينا كتابتَها حين كُتبتْ ·

فقال أَبو البخترى :

ـ صدق زَمْعَةُ ·· نحن لانرضى ما كتب فيها ولا نُقره ·

وقال مطعم مؤيداً لقول أَصحابه :

ـ إننا نبرأ إلى الله من هذه الصحيفة ومما كتب فيها ·

فقال هشام :

ـ الكلُّ يبرأ منها ومما كتب فيها ·· فما بقاؤها إذن

---

(١) زمعة بن الاسود . كان يدعى بـ (زاد الركب) لجوده ، وهو اسدى ، إ هـ

فراح أبو جهل يتفحصهم بنظرة الخُبْثِ ثم قال فى غيظ ·

ــ آه ·· هذا أمر قُضِى فيه بِلَيْلٍ ، تمّ التشاور فيه بغير هذا المكان ·

وحاول أبو جهل أن يفعل شيئاً · فراح إلى أبى طالب يحاول معه ·· وكانَ الأخيرُ قد انتحى ناحية من الكعبة وجلس وحده يرقب مايدور · فقال أبو طالب :

ــ إنّ ابن أخى قد أخبرنى ولم يكذبنى قط ، أن الله قد سَلّطَ على صحيفتِكم هذه القَرَضَةَ «١» فأكلتْ كلّ مافيها من جور وظلم وقطيعة رَحِمٍ ولم تُبْقِ على شيءٍ غير اسم الله ·· فإن كان ابن أخى صادقاً نَزَعْتُم عن سوءِ رأيكم ·· وإن كان كاذباً دفعتُه لكم فقتلتموه أو استحييتموه ·

فوافق كل من حضر · واندفع الرجال إلى الكعبة واتجهوا يريدون الصحيفة المعلقة بها ·· فإذا القَرَضَةُ قد أكلتها كلها ولم تبق منها إلا كلمة (باسمك اللهم) «٢» ·

---

(١) القرضة هى الأرضة ، دويبة تأكل الخشب ، ا هـ ·

(٢) (باسمك اللهم) كان العرب يصدرون بها صحفهم ، وعوض الله تعالى عنها بالبسملة هـ



تحويل القبلة



وتمضى بنا قافلة الزمان ·· فنرى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وقد هاجر من مكة إلى المدينة فى السنة الثالثة عشرة للمبعث ·· تلك الهجرة التى تعتبر بداية للتاريخ الإسلامى ونقطة تحوّل كبرى فى التاريخ الإنسانى ··

ونرى يهود المدينة ـ وكانوا من أخطر اليهود وأقواهم وأكثرهم مالا وأشدهم حقداً على الإسلام والمسلمين ـ نراهم وقد أخذوا يكيدون لنبى الإسلام صلى الله عليه وسلم ويتحدونه ويثيرون جدلا خبيثاً يبثون به سموماً فتاكة فى نفوس أهل المدينة ·

وكان المصطفى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى صلاتهم مستقبلين الشمالَ حيث يوجد بيت المقدس ·· ولم يكن عليه الصلاة والسلام راضيًا عن هذه القبلة ، وكان يتمنى فى قرارة نفسه أن تكون الكعبة قبلتَه وقبلة المسلمين ، وأن يتجهوا إليها فى صلاتهم ·

واستجاب الله سبحانه وتعالى لما فى نفس رسوله الحبيب وحقق له أُمنيته فولاه القبلة التى يرضاها ·

بسم الله الرحمن الرحيم

« قد نَرى تَقلُّبَ وَجْهِك فى السَّماءِ * فَلَنُوَلِّيَنَّك قِبْلَةً

تَرْضَاهَا ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ٢:١٤٤ » « صدق الله العظيم »

وأثار هذا التحويل غضب اليهود جميعاً فراحوا يعقدون الاجتماعات .. ويتشاورون فى هذا الأمر الجَلَل ، وذهب نفر منهم إلى كعب بن الأشرفِ شاعرِهم «١» وأحدِ زعمائِهم الكبار وشكوا له الأمر فذهب بهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم . وقبل أن يَمْثُلَ بين يديه التقى بمحمد بن مَسْلَمَةَ وسأله :

– أين نبيكم ؟

فسأله ابن مسلمة : ماذا يريد ؟ فقال :

– أُريد أن أسأله لماذا تحول عن القبلة التى كان عليها وهو يزعم أنه على ملة إبراهيم ؟

فقال ابن مَسْلَمَةَ :

– كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوجه إلى قبلتكم ليكون ذلك أدعى لكم بالدخول فى الإسلام .. فلما تبيّن له عنادكم وصَلَفكم صارح جبريل برغبته فى التحول إلى الكعبة .

فقاطعه كعبٌ بغضب :

---

(١) كعب بن الأشرف : هو طائى : دان باليهودية ، يقيم فى حصن قريب من المدينة ، شبب بنساء المسلمين ، فأمر الرسول بقتله ، فانطلق إليه نفر من الانصار فقتلوه ، وحملوا رأسه فى مخلاة . انظر الطبرى جـ ٢ ص ١١٧ .

ــ قل له يرجعْ إلى قبلتنا التى كان عليها وَإلا فسوف أكون حرباً عليه وعلى دينه ٠٠ حربًا لاهوادة فيها ولا رحمة ٠٠ وهو يعلم أَنَنى ربُّ الكلمة فى بلاد العرب جميعها ٠

فسَخِرَ منه ابن مسلمة وقال له :

ــ افعل ما بدالكِ ياكعب فلن نحفل بك ولن نهتم ونزلت الآيات الكريمة ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهم عَنْ قِبْلَتِهمُ التى كَانُوا عَلَيْهَا * قُلْ للهِ المشْرِقُ والمغْرِب يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم ٢:١٤٢ » ٠ (صدق الله العظيم)

ولم يهدأ كعب ولم يستقر به الحال ، وإنما راح يجتمع برءُوس اليهود وطواغيتهم ويحرك الحِوارَ والنقاش حول تحويل القبلة ويحاول أَن يثير الناس جميعاً ضد محمد مستنداً إلى هذه الركيزة ٠٠ ولكنه لم يصل إلى بغيته ٠٠ وهنا أعلن للجميع أَنه سيحارب محمداً وحده ٠٠ وسوف يقضى عليه وعلى دعوتــه بالكلمة ٠٠

وراح يختال بينهم مؤكداً مرة أُخرى أَنه رب الكلمة وكان كعب قد تزوج وزُفَّتْ إليه عروسه غُزَيّلَةُ فى نفس الليلة التى قرر فيها أَن يكتب قصيدة فى ذم محمد وهجاءِ دينه ٠٠ وبدلا من أَن

يتفرغ للعروس تفرغ للكتابة ٠٠ ولم يعجب هذا الحال عروسَه التى كانت تنتظر أن يحتفى بها ويحتفل وأن يكون لها وحدها جلّ اهتمامه فقالت تعاتبه :

ــ ما هذا ياكعب ٠٠ أتتركنى ليلة عُرسى لتكتب ؟

فلما لم يرد عليها راحت تكرر له القول وتطلب منه أن يترك الكتابة ويتجه لها ٠٠ فقال كعب ٠

ــ آه لو تعلمين ماذا أكتب ياعَروسى الجميلة ٠٠ إننى أكتب قصيدة ذم وهجاءٍ فى أعـــداءِ اليهودية ٠ فى محمد بن عبد الله والدين الجديد الذى جاءَنا به ٠

فقالت غُزَيْلَةُ وهى تحاول أن تصرفه عن الكتابة :

ألا تجد وقتاً آخر لكتابة هذه القصيدة غير ليلة عُرسنا ؟

ــ آسف ياعروسى الحسناءَ ٠٠ فشيطان شِعرى هو الذى اختار هذه الليلة لا أنا ٠٠

ــ اللعنة لهذا الشيطان ؟

ــ أتلعنين من سيقضى على محمد بن عبد الله القضاءَ المبرم ؟ بل سيجعل دينه أضحوكة بين العرب جميعاً ؟ إنك حقاً لبلهاءَ ٠٠

وغضبت العروس واعتبرت تصرفه هذا إهانة لها فتركته وانصرفت لشأنها ٠٠ بينما صاح هو :

ـ هات أيها الشيطان البارع ·· هات الهجاءَ مريـراً لاذعاً ·· لم يعرفه أحد من قبلى ولا يعرفه أحد من بعدى ·

ونترك كعبَ بن الأشرف لشيطان شعره ونعود لمحمد بن مَسْلَمَة فـإذا هو يضرع فى ابتهال حار إلى الله قائلا :

ـ اللهم اكْفِنَا شَرَّ كعبِ بنِ الأشْرَفِ فى إعلانِه الشَّرَّ وقوله الشِّعرَ ·· اللهم إنى أتوجه إليك بما قاله نبينا الكريم محمد بن عبد الله ·· فاستجب يارب العالمين ·

وينتهى ابن مسلمة من ابتهاله ويتجه يريد المسير ·· وهنا يقبل عليه أبو نَائِلَةَ · وكان أخاً فى الرضاعة لكعب بنِ الأَشْرف وقد أسلم وحسن إسلامه ·· فيقول :

ـ إلى أين يابن مسلمةَ ؟

فيجيبه ·

ـ إلى رسول الله وأصحابه فهم قد اجتمعوا للتشاور فى أمرِ كعبِ بن الأشرف · فيقول أبو نائلة والألم يقطر من عبارته :

ـ لقد ساءنى والله وحَزَّ فى نفسى ما قاله كعب فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ·· وقد قررت أن أذهب إليه وأزجره ، بل أهدده ·· فإن لم يرجع عن غيِّه فسوف يكون لى معه شأن آخر

فيقول ابن مسلمة :

ـ أخاف عليك إن ذهبت إليه يا أبا نائلةَ فهو حاقد عليك

أشد الحقد منذ أسلمت ٠

فيقول أبو نائلة :

ـ بل سأذهب إليه وأحتال عليه حتى يطمئن لى ٠٠ ثم أفعل به ما أريد ٠٠

ويمضى أبو نائلة إلى كعب بن الأشرف ويظل به حتى يطمئن له ٠٠ ثم يقول :

ـ يبدو أننا قد أخطأنا عندما صدقنا محمد بن عبد الله واتبعناه ٠

فيقول كعب فى غرور :

ـ دون شك ٠٠ دون شك ٠

فيستطرد أبو نائلة قائلا :

وقد جئناك اليوم لتقول إن قدوم هذا الرجل علينا كان من البلاء ٠٠ بل هو البلاء نفسه ٠٠ لقد حاربتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة ونحن الآن نريد التنحى عنه ٠

فيقول كعب وقد استخفه الفرح

ـ وما الذى يمنعكم عن ذلك ؟

فيجيب أبو نائلة ٠

ـ المال والسلاح ياكعب ٠٠ نحن لانملك المال ولا نملك السلاح ولا نضمن إن تنحينا عنه ألا يحاربنا ، ولهذا لابد لنا أن

نستعدّ بها ٠

فيؤكد له كعب ــ وكان من كبار المُرابِيْنَ "١" ــ ومن الفُسّاق أيضًا أنه على استعداد لمعاونتهم بالسلاح والمال على أن يكون لهم تحت يده رهن فيه ثقة ٠٠ فيوافق أبو نائلة ويخرج على أن يعود فى الغد عند منتصف الليل بالرهن ثم يتسلم السلاح ٠

ولايكاد يخرج أبو نائلة حتى يعود كعب إلى الكتابة وهو يقول :

ــ أين أنت أيها الشيطان العظيم ٠٠ ياشيطان شِعرى البارع ٠٠ أين أنت لترى وتسمع ٠٠ لقد فعلت قصائدى الأفاعيل بالناس وهاهم الذين آمنوا بمحمد أمس يريدون الارتداد عَن دينه اليوم ٠

وفى منتصف ليل اليوم الثانى يحضر أبو نائلةَ مع بعض أصحابه "٢" ولا يكاد كعبٌ يعرف خبر وصوله حتى يسرع إليه مختالا ورائحةُ العطرِ قويةً تفوحُ منه ، فيتلقاه أبو نائلة قائلا :

ــ ما هذا العطر القوى الذى يفوح منك ياكعب ؟

فيقول كعب بخلاعة وخبث :

(١) المرابين : الذين يتعاطون المال بالربا ٠ ا هـ ٠

(٢) ٠٠ اصحابه : هم محمد بن مسلمة ، وعباد بن بشر ، والحارث بن اوس ، وابو عبس بن جبر ــ وشيعهم الرسول بنفسه حتى البقيع ٠ ا هـ (المحبر لابن حبيب ص ٢٨٢) ٠

ـ عطر امرأة تُحِبُّنى ٠٠ امرأة أحد العظماء ٠

فيرد عليه أبو نائلة بسخط :

ـ ألا تكف عن الافتراءِ على نساءِ الآخرين ؟

فيتأمَّل كعب أصحاب أبى نائلة قائلا :

ـ أين ما تريدون رهنه عندى ؟ إذا كنتم تريدون رهن أبنائكم هؤلاء فعددهم لايكفى ولابد أن تحضروا المزيد ٠٠

فيقول أبو نائلة :

ـ إنا نستحى أن يُعَيَّرَ أبناؤُنا ، فيقال : هذا رهينة وَسْقٍ «١» وهذا رهينة وسْقين ٠٠ وهؤُلاء هم أصحابى جاءُوا عوناً لى ٠٠

فيرد كعب فى قحةٍ :

ـ إذن ترهنون نساءكم ٠٠ أُريد نساءكم رَهْناً ٠

فيجيبه أبو نائلة :

ـ ولا نساؤنا ياكعب ٠٠ وأنت أدرى بالسبب ٠

فيقول كعب بإصرار خبيث :

ـ أُريد نساءكم رهناً ٠٠ لن أعطيكم شيئا قبل أن تحضروا نساءكم إلى بيتى ٠

(١) ٠٠ وسق ٠ الوسق ، حمل بعير ، او ستون صاعا ، وعند اهل الحجاز ثلاثمائة رطلا ، وعند أهل العراق اربعمئة وثمانون رطلا ٠ ا هـ ٠

وهنا يكون صبر أبى نائلة قد نفد ·· فيسجب سيفه ويَهْجُمُ على كعب وهو يصيح بأصحابه :

ــ اقتلوا عدو الله ··

وتتلاقى السيوف فى جَسَدِ كعبِ بن الأشرف وَيسْقُطُ على الأرض صريعًا ·· ويخرج أبونائلة شاهراً سيفه ومن خلفه أصحابه ويصيح فى اليهود :

ــ قتلتُ عدو الله كعبَ بن الأشرف ·

ويُسْقَطُ فى يدِ اليهود ويبدأون يفكرون تفكيراً جديداً ·· لقد أحسوا أنهم لن يستطيعوا التغلب على محمد بن عبد الله وحده ·· ولهذا أخذوا يتصلون بطواغيت المشركين فى قريش ويضعون فوق نيران بغضهم لمحمد ودينه ــ يضعون زيتاً تأجّجت به النيران أكثر فأكثر ·

وكان لابد أن يبدأ الصدام المسلّح بين محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه من ناحية وبين المشركين من ناحية أُخرى ، فكانت موقعة بدر التى انتصر فيها نبى الله صلى الله عليه وسلم · وكان مابعدها من معارك طاحنة قاتل فيها المسلمون قتالا مريراً دفاعاً عن دينهم وبذلوا النفس والنفيس من أجل إعلاء كلمة الدين الحق ·· دين الاسلام ·

ويمضى بنا ركب التاريخ لنشهد مقدمات الفتح الأبلج ·

والنصر المبين .. فتح مكة والنصر على المشركين .. فقد ظل المسلمون خمس سنوات بالمدينة لاتمكنهم ظروفهم من مباشرة حقهم الشرعيّ فى أداء العمرة والطواف بالكعبة المشرفة .

أما بعد أن أصبحوا قوة قوية فرضت كلمتها وهيبتها على كل منطقة يَثْرِبَ وبعد هذه الانتصارات الساحقة على قوات الأحزاب الضارية فكان لا بُد من التصفية الدموية العادلة الحاسمة لخَوَنَـة اليهود ..

فقد قرر المسلمون زيارة البيت الحرام ـ وكان العرف المتبع والقانون غير المكتوب بين العرب أن زيارة البيت الحرام والطواف بالكعبة حق مشاع للعرب جميعاً ـ مهما اختلفت مذاهبهم وتباينت اتجاهاتهم .. ولا يجوز لكائن من كان أن يمنعهم هذا الحق .

وقد أعلن النبى صلى الله عليه وسلم ذلك للملأ .. كما أعلن أنه لا يريد دخول مكة غازيًا او محاربًا ولكنه يدخلها مسالمًا مُعْتَمِراً وطلب من أصحابه الاستعداد .

ولكن عمر بن الخطاب وَسَعْدَ بنَ عُبادَةَ نصحاه أن يسلح أصحابه فقد تغدر بهم قريش وتشهر عليهم الحرب ..

فقال عمر :

ـ تدخل على قوم هم لك حرب بغير سلاح ولا كُراع «١» .

فعمل النبى عليه الصلاة والسلام بالنصيحة واحتاط للأمر فبعث إلى المدينة فلم يدع فيها سلاحاً ولا كُراعاً إلا حمله ، وفى نفس الوقت طلب من بُسْر بن سفيان بن عُمير الذى كان قد قدم عليه مسلماً ـ أن يقيم بالمدينة .

وقال صلى الله عليه وسلم : (يا بُسْرُ لا تَبْرَحْ حتى تخرج معنا فإنا إن شاءَ الله معتمرون) . ثم أمره أن يبتاع له بُدْناً «٢» ـ فذهب بُسْرٌ إلى البادية وابتاع سبعين .

وكان خروج النبى صلى الله عليه وسلم من المدينة يوم الاثنين لهلال ذى القعدة سنة سبع من الهجرة ـ وكان قد اغتسل فى بيته بالمدينة ولبس ثوبين من نسيج صحار وركب راحلته القَصْواءَ ـ وما يزال يسير بالمسلمين حتى وصل ذَا الحُلَيْفَةِ «٣» وهناك توقف وصلى بهم الظهر ثم دعا بالبُدْنِ فَجُلِّلَتْ ثم أَشْعَرَ «٤» بنفسه منها عدة وهُنَّ مُوَجَّهَاتٌ إلى القبلة وكان بين البُدْنِ جَمَلُ أَبى جهل وقد غنمه النبى بموقعةِ بَدْرٍ فساقهُ مع الهَدْيِ إغَاظة للمشركين ..

ومن ذى الحليفة أَحرم النبى صلى الله عليه وسلم بالعمرة

---

(١) .. ولا كراع يعنى الخيل ، والبغال ، والحمير ، ا هـ .

(٢) .. بدنا : هى الابل تنحر بمكة ، ا هـ .

(٣) ذا الحليفة : ميقات أهل المدينة ، ا هـ .

(٤) .. اشعر : اى جعل لها علامة بشق جلدها وإسالة دمها ، لتعرف أنها هدى لله ، ا هـ .

حيث دعا براحلته فركبها من باب المسجد ·· فلما انبعثت به مستقبلة الكعبة أحرم ولبى بأربع كلمات هى

(لبيك اللهم لبيك ·· لبيك لاشريك لك لبيك ·· لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك ·· لاشريك لك) ·

وأحرم حجاج المسلمين بإحرامه وكان قد خرج معه فى هذه العمرة أربع نساءٍ : الأولى أم المؤمنين أم سَلَمَةَ وثلاثُ أنصارياتٍ هُنَّ أمُّ عَمارَةَ وأمُّ مَنيع "١" وأمُّ عامر ·

وشاع بين العرب جميعًا نبأُ خروج الرسول صلى الله عليه وسلم للعمرة · وبلغ الخبر إلى قريش · فهاجت وماجت ونسيت العرف السائد والقانون غير المكتوب الذى التزمت به والتزم سَدَنَةُ البيت منذ آلاف السنين قبلها ·· بل لقد ضربت بهذا العرف وهذا القانون عرض الحائط ·· وقررت منع الرسول وأصحابه من دخول مكة ·

واجتمع رؤوس قريش وعظماؤها وراحوا يناقشون الموقف فقال عِكْرِمَةُ بن أبى جهل :

ــ ياللعجب ·· محمد الذى خرج من مكة خائفًا يترقب بعد أن أهدرت قريش دمه وقررت الفَتْكَ به يعود إلى مكة على رأس آلف

(١) ·· وأم منيع : يقال لها . ام شباث ، شهدت العقبة مع ام عمارة نسيبة ، ولم يشهدها غيرهما من النساء ، ا هـ ·

وستمائة من أصحابه المسلمين كلهم رجل واحد يفتديه بحياته .

فيرد عليه سُهَيْلُ «١» قائلا :

ـ إنه التحدى السافر لقريش فى أقوى صوره .

ويقول صَفْوانُ بن أُمَيَّةَ :

ـ إنه يريد أن يدخل عنوة وبيننا من الحرب ما بيننا .. والله لا يكون هذا أبداً وفينا عينٌ تَطْرِفُ ..

وعلى الفور أعلنت قريش حالة الاستنفار وَعَبَّأَتْ رجالها المسلحين وطلبت مساعدة الحلفاء من الأحباش وثقيف وغيرهم .. وجمعت أموالها واستعدت لقتال محمد .

وبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم ما قامت به قريش من استعداد للحرب والقتال ، فأرسل إليها خِرَاشَ بن أُمَيَّةَ الكَعْبِيَّ «٢» يبلغهم أنه لم يأتِ للحرب وإنما جاءَ مسالمًا لاهدف له إلا أداءَ مناسك العمرة ثم العودة إلى المدينة .

ولم يكد خِراشٌ يصل إلى وادى بَلْدَحَ «٣» حيث عسكرت قريش بقَضِّهَا «٤» وقَضِيضِهَا وحلفائها حتى هاجمه عكرمة بن

(١) سهيل : هو ابن عمرو ، القرشى العامرى ، خطيب قريش ، أسلم يوم الفتح ، ا هـ .

(٢) خراش بن امية . هو الذى حلق راس الرسول يوم الحديبية ، ا هـ .

(٣) وادى بلدح : واد قبل مكة من جهة المغرب ، ا هـ .

(٤) بقضها : القض . الحصا الصغار ، والقضيض . الكعبى اى جاءوا بالكبير وبالصغير . ا هـ .

أبى جهل وعقر جمله وحاول قتله فعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

ـ يارسول الله ابعث إليهم رجلا أَمْنَعَ منى

فأرسل صلى الله عليه وسلم بديل بن ورقاءَ مع وفد من خُزَاعةَ (١) فحاول عكرمة وبعض المتهورين من شباب قريش حَمْلَ قومهم على مقاطعة وفد السلام هذا ·

فلما رأى بديل ما يحاولون صاح فيهم

ـ إنما جئنا نسعى لإحلال السلام ومنع نشوب الحرب بينكم وبين محمد ، فهل نخبركم الخبر أَم نمضى إلى حال سبيلنا ؟

فيجيبه عكرمة بغضب ::

ـ لا ·· لا والله ما لنا حاجة بأن تخبرنا يابُديلُ ·· عُدْ وأصحابك من حيث جئتم · وبلغ صاحبك أنه لن يدخلها أبداً وفيها رجل واحد منا ·

وكان عُروةُ بن مسعود سيدُ ثقيفٍ حاضراً يسمع مايدور من حديث بين وفد خزاعة والمتطرفين من شباب قريش ـ إذ كان من حلفاء قريش وقد جاء من الطائف ليساندهم فى قتال محمد

إلّا أنّ قول الشباب من قريش لم يعجبه فقال :

ـ والله ما رأيت كاليوم قط رأياً عجباً ·· ولايفلح قوم فعلوا

(١) ·· من خزاعة : وارسل قبله عثمان بن عفان وبديل هو الذى امره الرسول بحبس الأموال التى غنمها من حنين بالجعرانة حين يقدم ، وهو خزاعى ، ا هـ

هذا أبداً .. والله لاتنصرون على رجل يعرض السلام كمحمد .

وطلب عروة وبعض زعماء قريش من بُديلٍ أن يتكلم ، فتكلم بما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشتموه واتهموه بالتحيز للمسلمين ورفضوا دخول محمد وأصحابه مهما كانت الأسباب .

ثم مال العقلاءُ إلى الأخذ بنصيحة عروة بن مسعود ، فأسكتوا المتطرفين من الشباب وطلبوا من بُديل الكلام ثانية ، فأبلغهم العرض الذى عرضه النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو :

(إقامة سِلْم بين المسلمين وقريش يأمن فيه كل جانب ولو لفترة محدودة ، على أن تبدأ هذه الفترة بأن يسمحوا للمسلمين بأداء مناسك عمرتهم وتقف قريش خلالها موقف المحايد إذا اشتبك النبى مع العناصر الوثنية ، فإن انتصر النبى صلى الله عليه وسلم دخلت قريش فيما يدخل فيه العرب ، وإن كان العكس فلها أن تقاتل المسلمين) .

كانت هذه خلاصة رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد قال بُديلٌ بعدها :

ـ يامعشر قريش إنكم تعجلون على محمد وإن محمداً لم يكن باعثَ حرب ولم يأت لقتال وإنما جاء معتمراً لهذا البيت

فلم تقبل قريش عرض النبى ولا نصائح بُديلٍ وقالوا :

ـ حتى وإن كان محمد قد جاءَ لايريد قتالا فوالله لا يدخلها عنوة أَبداً ·· أَيريد محمد أَن يدخلها علينا فى جنوده معتمراً وتسمع العرب أَنه قد دخل عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما هو قائم ·· والله لاكان هذا أَبداً ·

وذهب عروة بن مسعود إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما دخل عليه وسلم استقبله أَحسن استقبال ، وتكلم عروة فحاول تخويف النبى صلى الله عليه وسلم من قوة قريش ، كما حاول أَن يَفُتَّ من عضد الرسول ويُضْعِفَ من ثقته برجاله قائلا له :

ـ وَايْمُ اللهِ يامحمد لكأَنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك ، إنى لا أَرى معك إلا أَوباشًا من الناس لا أَعرف وجوههم ولا أَنسابهم خليقاً أن يَفِرُّوا ويَدَعُوك ·

وكان أَبو بكر الصديق واقفًا خلف الرسول صلى الله عليه وسلم وسمع هذا فغضب وثار ثورة كبيرة على عروة الذى جاءَ مهدِّداً بقوة قريش ، محاولا الانتقاصَ من قيمة أَصحابه وهمَّ بالاعتداء على عروة ، فقال عروة :

ـ مَن هذا يامحمد ؟

فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

ـ هذا أَبو بكر بن قُحافة ·

فقال عروة يخاطب أَبا بكر :

ـ أما و الله لولا يَدٌ لك عندى لم أَجْزك بها بعد لأجبتُك ·

وكان من عادة العرب فى الجاهلية أن يمسك الزعيم بلحية الذى يراه نِدًّا له أثناءَ الحديث ، وعلى هذا الأساس كان عروة أثناءَ الحديث يمسك بلحية الرسول صلى الله عليه وسلم فاغتاظ المُغيرة ابن شعبة وقَرَعَ يدَه بقائم السيف قائلا ·

ـ اكفف يدك عن مَسِّ لحية رسول الله ·

فاستعظم عروة أن يقال له هذا القول من أحد حراس الرسول وسأل عنه ، فلما علم أنه ابن أخيه وقد أسلم ، اشتعل غيظه وهاج وماج وعاد إلى قريش دون أن يصل إلى هدفه ·· عاد مذهولا من قوة هذا الدين الذى استطاع أن يهدى المغيرة ابن أخيه الذى كان من أقوى أعداء الاسلام والمسلمين ·

ويظل الحال على هذا المنوال ·· الرسول صلى الله عليه وسلم يعسكر فى ناحية وقريش تعسكر فى الأخرى ·· والرسل تروح وتجىء بين الجانبين محاولة التوفيق وتقريب وجهات النظر ·

وتبعث قريش برسول اخر هو مكرز بن حفص «١» أحد رجالها المشهورين بقوة الحجة والمراوغة والغدر ، فيعود بلا نتيجة إذ لا يفلح مكره وغدره مع المسلمين ، فترسل سيد الأحباش

(١) مكرز بن حفص : شاعر جاهلى ، ادرك الاسلام ، وكان من الفتاك ، وهو الذى قيد نفسه مكان سهيل بن عمرو حتى بعث بالفداء ، ا هـ ·

الحليس بن زيان "١" حليفها الأكبر وتطلب منه أن يكون وسيطها الرابع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم عسى أن يستطيع التوفيق وحل هذا النزاع الخطير ·

وكان الحليس ذا عقل راجح وبصيرة نافذة ، وكان سيدا مطاعاً يعرف له الجميع مكانته ومنزلته · والعجيب أَن هذا الوسيط الذى توقعت قريش أَن يعود لها بما أَرادت والذى هو من أَكبر حلفائها ·· عاد مؤيداً الفكرة التى يتمسك بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى أَن من حق المسلمين الاعتمار وليس لأَحد مهما كانت مكانته أَن يمنعهم من ذلك ·

إذ أَنه لما لقى النبى صلى الله عليه وسلم كانت الإبل التى تساق إلى الحرم لتنحر هناك أَول ما وقعت عليه عينه ، فلما رآها ورأَى المسلمين وقد استقبلوه بلبونة وقد شعثوا من طول المكوث على إحرامهم صاح مستنكراً :

– سبحان الله ·· ما ينبغى لهؤلاء أَن يصدوا عن البيت أَبى الله أن يحج لَخْمٌ وجُذام وَنَهْد وحِمْيَر "٢" ويمنع ابن عبدالمطلب ·

---

(١) الحليس بن زيان : وقيل الحليس بن علقمة – كان رئيس يوم احد ، وهو الدى مر بأبى سفيان بعد الوقعة فرآه يضرب شدق حمزة بزج الرمح ، فلما ندد به ، قال له ويحك ، اكتمها عنى ، فانها كانت زلة ، ا هـ (امتاع الأسماع للمقريزى ج ١ ص ٢٨٨) ·

(٢) · وحمير – أسماء قبائل معروفة ، ا هـ ·

ثم شدّد نكيره على قريش قائلا :

ـ هلكت قريش ورب الكعبة ٠٠ إنما القوم أتوا عُمّاراً ٠

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم:

ـ أجل يا أخا بنى كنانة ٠

ودون أن يناقش الحليس رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يكلمه فيما بعثته به قريش عاد وفى نفسه أنها غير محقة فى تصرفها مع المسلمين ٠

وخرجت قريش كلها تستقبله وتحاول معرفة ما عاد به فقال :

ـ رأيت ما لا يَحِلُّ صَدُّهُ ٠٠ رأيت الهدى فى القلائد قد أكل أوبَارَه معكوفاً عن مَحِلِّه ، والرجال قد تَفِلُوا وقملوا«١» أن يطوفوا بهذا البيت ٠٠ أما والله ما على هذا حالفناكم ٠٠ ولا عاقدناكم على أن تَصُدُّوا عن بيت الله من جاءَ معظما لحرمته مؤدِّياً لحقه وساق الهَدْىَ معكوفاً أن يبلغ مَحِلَّهُ ٠

هنا غضبت قريش ورأت فى قوله تأييداً لحجة النبى صلى الله عليه وسلم وسخر أحدهم منه قائلا :

ـ اجلس ٠٠ إنما أنت أعرابى ولا علم لك ٠

---

(١) ٠٠ تفلوا وقملوا ٠ اى انتن ريحهم من ترك الطيب والادهان ، وتولد فيهم القمل ا هـ ٠

فغضب الحليس لهذه السخرية وصاح بهم مهدداً :

– يا معشر قريش .. والله ما على هذا حالفناكم والذى نفس الحليس بيده لَتُخَلُّنَّ بين محمد وبين ما جاءَ له أو لأَنفرنَّ بالأَحابيش نَفْرَةَ رجل واحد .

ووجدت قريش نفسها بعد هذا فى موقف لا تحسد عليه ، فقد كان تهديد الحليس لها على هذا النحو واقتناعه من قبل التهديد بصحة رأْى النبى صلى الله عليه وسلم كافياً لأَن يحدث الذعر والفزع بين جموع المشركين فى مكة ويدفعهم إلى إعادة التفكير فى موقفهم الظالم من المسلمين .. فالأَحباش الذين كانوا تحت قيادة الحليس يمثلون عدة قبائل قوية إذا انفصلت عن معسكر قريش أَصابته بضربة قاصمة خاصة فى تلك المرحلة الحَرِجة التى بلغ فيها التوتر ذروته بين المسلمين ومشركى مكة .

فتروح قريش تهدّئ من ثائرة سيد الأَحباش وتحاول تلطيف الموقف لئلا ينفذ تهديده ويفض الحلف الذى بينها وبينه ، ثم تطلب من الحليس مهلة للتفكير وإعادة النظر قائلة :

– مَهْ .. كف عنا يا حليس حتى نأْخذ لأَنفسنا ما نرضى .

وقد استجاب الحليس إلى طلبهم فلم ينسحب من حِلْفِهم وصبر عليهم حتى أَعادوا النظر والتفكير ، ثم مالوا إلى الصلح وانتهوا إلى توقيع معاهدة مع النبى صلى الله عليه وسلم أَول ما فى

بنودها أن يعود بأصحابه إلى المدينة هذا العام ثم يرجع بهم فى العام الثانى لأداء العمرة ·

وكَبُرَ على أصحاب الرسول ــ وفى مقدمتهم عمر بن الخطاب ــ أن يرجعوا إلى المدينة دون أن يعتمروا ، وتحرَّجَ الموقف ، فتركهم النبى صلى الله عليه وسلم ودخل إلى خِباءِ أُم سَلَمَةَ وكان ينوى أن يستريحَ بعض الوقت ثم يعود إليهم فيحاول إقناعهم من جديد ·

ولاحظت أُم سلمة أنه صلى الله عليه وسلم مكتئب فقالت له :

ــ يا رسول الله لا تلمْهم فإنهم قد دخلهم أمر عظيم بما أدخلتَ على نفسك من مشقةٍ فى أمر الصلحِ ورجوعهم بغيرِ فتح ·

فَسَرَّى هذا القول عن الرسول الكريم وطلب منها أن تستمر فى حديثها · فقالت رضى الله عنها :

ــ الرأى عندى أن تخرج إليهم دون أن تكلم أحداً منهم فَتَنْحَرَ بُدْنَك ، ثم تَحْلِقَ رأسك ، فإنك إن تفعل ذلك لا مناص حينئذ من اتباعك بغير تردد ·

فأَخذ الرسول صلى الله عليه وسلم برأيها وخرج قاصداً بُدْنَهُ فأَهوى بحَرْبَتِه إلى نَحْرِ بعضِها مكبّراً ثم استدعى خِراشا الخزاعيّ وأمره أن يحلق له ، ففعل وألقى رأسه على شجرة بين

القوم .. وعندئذ بادر أصحابه إلى النّحر والحلق بعد أن تأكد لهم أنه صلى الله عليه وسلم لن يدخل إلى الكعبة بعد تحلّله بالنحر والحلق .

وبذلك تم الأمر على خير حال وعاد المسلمون إلى المدينة سالمين وقد حُقِنَتْ دماؤهم .

ومضت أيام وقعت فيها أحداث جسام استطاع فيها النبى صلى الله عليه وسلم أن يطهر المدينة من اليهود الخَوَنَةِ ـ وكان يتوقع أن تحافظ قريش على عهدها وأن تصون صلحَ الحُدَيْبِيَّة "١" ولكنها لم تفعل ـ وراحت تظاهر بَكْراً على خزاعة وتساعدها بالسلاح غير مبالية بعهد الحُديْبِيَّةِ الذى ينص على أنه (مَن أحب أن يدخل فى عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم فليدخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فليدخلْ فيه) . وخزاعة كانت قد دخلت فى عقد الرسول وحِلْفِه فشَنَّتْ بَكْرٌ عليها الحرب وراحت تقاتلها بسلاح من قريش .

وصبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعل قريشاً ترجع عن غيّها وتتوقف عن مساعدة بَكْرٍ ضدّ خزاعة لأن فى ذلك نَقْضاً للصُّلحِ

---

(١) .. صلح الحديبية . روى عن الامام الشافعى انه قال : « الصواب تشديد الحديبية وتخفيف الجعرانة » أ هـ .

المُبْرَمِ بينها وبينه صلى الله عليه وسلم · فلم تفعل وظلت على غيّها ··

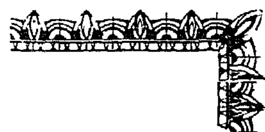
وبينما الرسول صلى الله عليه وسلم قد جلس مع أصحابه فى مسجده بالمدينة اندفع إليه فجأة عمْرو بن سالم الخزاعىّ وصاح منشداً :

يَارَبِّ إِنى ناشِدٌ مُحَمَّداً
حِلْفَ أَبِينا وأَبيه الأَتْلَدا
فانصرْ هداك الله نَصْراً أَعْتَدا
وادْعُ عبادَ الله يأتوا مَدَدَا
فى فَيْلَقٍ كالبحرِ يَجْرى مُزْبِدَا
إنَّ قريشاً أَخْلَفُوك المَوْعِدَا
وَنقَضُوا ميثاقَك المُؤَكَّدَا
وَزَعَمُوا أنْ لَسْتَ تدعو أَحَدَا
وهم أَذَلُّ وأَقَلُّ عَدَدَا
بَيَّتُونَا بالوتير"١" هُجَّدا
وقتلونا رُكَّعاً وسُجَّدَا

ثم سقط عمرو بن سالم بين يدى الرسول منهارا · فقال عليه الصلاة والسلام :

(نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم) · ثم أمر صلى الله عليه وسلم أصحابه بالاستعداد لفتح مكة ·

(١) بالوتير : الوتير . ماء بأسفل مكة لخزاعة ، وهذا الشعر ذكره ابن الاثير فى « اسد الغابة » فى ترجمة عمرو بن سالم ، ا هـ ·



الفتح الأكبر



وعندما اكتمل استعدادُ المسلمين لفَتْحِ أُمِّ القرى تقدمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته القصْواءِ وسار الجيش مدعماً بالإيمان داعياً الله عز وجلّ أن يمنَّ عليه بدخول مكة والوصول إلى الكعبة المشرفة .

واستجاب الله لدعائهم ففتحت أُم القرى ذراعَيْهَا لاستقبال ابنها الحبيب محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم وعشرة آلاف من أَصحابه المؤمنين ـ مهاجرين وأَنصاراً .

ولم يَدُرْ قتال وكأنما كانت مكة فى انتظاره لتتخلص نهائياً من الأَوْثان ومن أُولئك الذين عبدوها من دون الله العلى القدير . وكأَنما كان هؤلاءِ الذين عبدوها قد تَخَلَّوا عنها وفقدوا الأمل فى أَن تستطيع لهم خيراً أَو نفعاً .

وطاف الرسول الكريم صلوات الله عليه وأزكى سلامه بالكعبة سبعاً وسط الألوف المؤلفة من الجموع التى احتشدت لترى انتهاءَ عهد الظلام وبداية استقرار عهد النور والإيمان ..

وبقى الرسول فى البيت الحرام ما شاءَ له الله ، ثم دخل

الكعبة وأَمر بِمَحْو كل ما على جدران الكعْبة من صُورٍ ورسومات ، وقيل : إِنه أَرسل الفَضْلَ بن العباس فجاءَ بماءٍ من زمزم . ثم أَمر بثوب وكلفه محو هذه الصور والرسومات جميعاً .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قاتل الله قوماً يصُوِّرون مالا يَخْلُقُون) ثم إِن الرسول الكريم ضرب جميع الأَصنام والأوثان بقَضيبٍ كان فى يده فحَطَّمها ثم أمر بحملها إلى الخارج حيثُ حُرِّقَتْ وبذلك تَطَّهَرَ الحرم تماماً من الرِّجْسِ وكل ما حرَّم الله ;

وخرج الرسول الكريم عليه أزكى السلام من الكعبة فوقف ببابها ومفتاح الكعبة فى يده ثم نادى : (أُدْعُ لى عثمانَ)فقام عثمانُ بن طلحةَ بنِ أَبى طلحةَ وتقدم منه . فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم :

(خذوها يا بَنى أَبى طلحةَ تالدة خالدة لا يَنْزِعُهَا منكم إلا ظالمٌ .. يا عثمان إِن الله سبحانه وتعالى استأْمَنكم على بيتِه فخذوها بأَمانةِ الله عزَّ وجل) . وابتسم الرسول الكريم لعثمانَ ابتسامةً ذاتَ معنى كبير .. فأَطرق عثمان فى خَجَلٍ ـ وكان لذلك قصةٌ .. فقد كان الرسول صلىٰ الله عليه وسلم قد قال لعثمان يوماً وهو يدعوه للإِسلام (لعلك سترى هذا المفتاحَ يوماً بيدى أَضَعُه حيث شئت) فقال له عثمانُ يومها (قد هلكتْ قريشٌ يومئذ

وَذلَّتْ) فأَجابه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم (بل عَزَّت وعمرت يومئذ يا عثمان) .

ويأْمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا بأَن يؤذن للصلاة ، فيرتقى بلالٌ ظهر الكعبة ويؤذن فى الناس للصلاة .. ثم يصلى بهم وقد تحرَّرت نفوسهم تماماً من الشِّرك وأَغلالِ الوثينة .

وبعد الخطبة التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الذين عادَوْهُ وَعذَّبوه وحاربوه بكل وحشية وشراسة وبذلوا كل ما فى طاقاتهم لكى يقضوا عليه وعلى دعوته وقال لهم :

(ما تَرون أَنى فاعلٌ بكم ؟) قالوا (خيراً .. أَخٌ كريم وابنُ أَخٍ كريم) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اذهبُوا فأَنتم الطُّلَقَاءُ) .

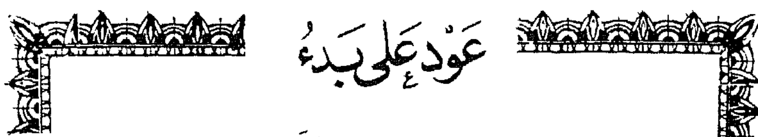
وباتتْ مكة ليلة الفتح الأَبلج والنصرِ المبينِ وليس فيها رجلٌ ولا امرأَة إلا وقد تطهَّرتْ نفسه – أَو نفسها – وامتلأَتْ بنور الإِسلام .

وربدت آفاقُ مكة قول الله عز وجل :

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخلُونَ فى دينِ اللهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك واستغفْره إِنهُ كَانَ تَوَّاباً ١١٠ : ١ – ٣

(صدق الله العظيم)



عَوْدٌ على بَدْءٍ

وتمضى بنا قافلة الزمان وقد تألّقت الكعبة المعظمة بنور وهّاج هو نور الإسلام الذى أشرق على الجزيرة العربية كلها وحرّرها من ظلام الشّرك والكفر وعبادة الأوثان ٠٠ ولكن الأهواءَ لا تلبث أن تتلاعب من حولها ٠٠ فتبدأ النزاعات والخلافات بين المسلمين وتقوم العداوات قاسيةً ضاريةً ٠٠ فقد حدث أن أبطأ عبدالله بن الزبير عن بيعة يزيد بن معاوية عندما آلت إليه الإمارة ٠٠

وأغضب هذا يزيد فأرسل يهدده ٠٠ وخشى عبدالله سطوة يزيد فجمع أصحابه ولحق بمكة ليمتنع بالحرم ٠

وجعل عبدالله بن الزبير يخطب فى الناس ويظهر عيوب يزيد ويحرض الناس على كراهيته وكراهية بنى أُمية ٠ فبلغ ذلك يزيد ، فأقسم ألاّ يؤتى به إلّا مغلولا ، وأرسل إليه رجلا من أهل الشام في خيل له ليستقدمه على هذا النحو ، ولما وصل الرجل إلى عبدالله قال له :

ـ الأمر أعظم مما تظن يا عبدالله ٠٠ لأن يُسْتَحلّ الحرم بسببك ، فإنه لأمر جَلَلٌ ولن يتركك يزيد ٠ فقال عبدالله :

ـ أنا له ٠٠ فليفعل ما يشاءُ ٠

فقال له الرجل :

ـ لن تقوى عليه .. ثم إنه قد لَجَّ فى أمرك وأقسم ألاّ يؤتى بك إلاّ مغلولا .. وقد عملت لك أغلالا من الفضة وسوف ترتدى فوقها وتُبِرّ قَسم أمير المؤمنين .

فقال عبدالله :

ـ لن أفعل يا أخا الشام .

فقال الرجل :

ـ الصلح خير عاقبة وأجمل به ويك يا بن خير الناس .

فقال عبدالله : حسناً .. دعنى أياماً حتى أنظر فى أمرى .

وشاور عبدالله أمه أسماءَ بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فأبَتْ عليه أن يذهب مغلولا وقالت :

ـ يا بنىّ .. عِشْ كريماً ومُتْ كريمًا ولا تمكن بنى أُمية من نفسك فتلعبَ بك ، فالموت أحسن من هذا .

وامتنع عبدالله فلم يذهب إلى يزيدَ بنِ معاوية . فأمر يزيد قائد جيوشه مُسلمَ بن عُقبة الذى كان يقاتل أهل المدينة ـ أن يسير إلى مكة ـ فلما كان بالطريق حضرته الوفاة . فدعا الحُصين بن نُمير الكندىّ فقال له :

ـ يا بَرْذَعَةَ الحمار . لولا أنى أكره أن أتزود عند الموت

معصية أمير المؤمنين ما ولّيتُك ·· انظر إذا قدمت مكة فاحذر أن تمكن قريشاً من أُذُنِك ·· ولا تكن إلَّا الوُقَّاف ثم الثُّقَّاف ثم الانصراف ·

وتوفى مسلم ومضى الحُصينُ إلى مكة فقاتل عبد الله أياماً أَحَسَّ بعدها عبد الله بضراوة القتال ، فجمع أصحابه وتحصّن بهم فى المسجد الحرام وحول الكعبة · وضرب البعض خياماً يجتمعون فيها من حجارة المَنْجَنِيق ، وكان الحصين قد نصب المنجنيق على جبل أبى قبيس وعلى الجبل الأحمر ــ وهما أخشبا مكة ــ فكان يرميهم فتصيب أحجارهُ الكعبة حتى تمّزقتْ كسوتها عليها ــ ويقال : إن أول مَنْجَنِيقٍ أصاب الكعبة أَنَّتْ بعده أنيناً سمعه الجميع ·

ولم يكتف الحُصين وأصحابه بهذا ، بل رموها بالنَّفْطِ فاحترقت واحترق معها الحجر الأسود وتصدّع ثلاث فِرَقٍ وانشطرتْ منه شَظيةٌ فشده عبدالله بالفضة وثبّتَه مكانَه إلَّا تلك الشَظِيَّة ·

ولكن جدران الكعبة ضَعُفَتْ وتهاوَتْ بعض أجزائها ففزع لذلك أهل مكة وأهل الشام أيضاً ·· وتركها عبدالله يراها الناس على هذا الحال ويزداد كرههم ليزيد بن معاوية ·

ولم يزل الحصين بن نُمير محاصراً عبدالله وأصحابه حتى

وصل الخبر إلى مكة بوفاة يزيد بن معاوية وبلغ ذلك عبدالله فأرسل إلى الحصين بعض رجالات مكة وعلى رأسهم عبدالله بن خالد بن أُسيدٍ وعبدالله بن عمرو بن العاص فكلموه وعظموا عليه ما أَصاب الكعبة .. فقال :

ـ ذلك منكم أَنتم .. لقد احترقت بسبب شرارة طارت من زُبيرىٍّ أَوقد ناراً في خيمتِه .

فرد عليه ابن أُسيد قائلا :

ـ بل رميتها أَنت ورجالك بالحجارة ثم بالنَّفْطِ .. والآن قد رحل آميركم عن الدنيا على ماذا تقاتلوننا ؟

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص :

ـ ارجع إِلى الشام حتى تنظر ماذا يكون رأْىُ أَميركمِ الجديد .

فاستمع الحصين للنصيحة وعاد بجيشه إِلى الشام . فحمد الناس الله سبحانه وتعالى أَن خلصهم من شر هذا القتال المرير .

ودخل عبد الله بن عمرو بن العاص المسجد الحرام والكعبة محترقة تتناثر حجارتها ، ويقع عليها الحمام فتتساقط كِسَفاً .

فبكى بكاءً حاراً .. ثم قال :

ـ أَيها النَّاس والله لو أَن أَبا هريرة أَخبركم أَنكم قاتلو ابن نبيكم بعد نبيكم ومُحرِّقو بيت ربكم ، لقلتم ما من أَحد أَكذب من

أَبَى هريرة ٠٠ أنحن نقتل ابن نبينا ونُحَرِّقُ بيت ربنا ؟ فقد والله فعلتم ٠٠ لقد قتلتم ابن نبيكم وحرقتم بيت الله ، فانتظروا النقمة ٠٠ فوالذى نفس عبد الله بن عمرو بيده ليفرقنكم الله شِيَعاً وليذيقن بعضكم بأس بعض ٠

واستمر عبد الله يحدثهم على هذا النحو الغاضب للحق ٠٠ ثم صاح فيهم :

ــ أيها الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر فوالذى نفس ابن العاص بيده لو قد فرّقكم الله شِيَعاً وأذاق بعضكم بأس بعض لَبَطْنُ الأرض خيرٌ لمن عليها ، لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر ٠

وأمر عبد الله بن الزبير بالخِصاص « ١ » التى أُقيمت حول الكعبة فهدمت ، وبالمسجد فكُنِسَ مافيه من بقايا الحريق والحجارة فإذا جدران الكعبة قد مالت وسقط بعضها فتهالك ، فانتظر حتى موسم الحج فدعا وجوه مكة وأشرافها ومَن جاءَ معتمراً من رجالات المسلمين وقادتهم ٠ وشاورهم فى هدم الكعبة وبنائها من جديد ٠٠ فوافقوا جميعاً إلا عبد الله بن عباس فقد اعترض على ذلك قائلا :

ــ دعها يا عبد الله إلى ما أقرها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنى أخشى أن يأتى بعدك من يهدمها ثم يأتى بعد ذلك

(١) « ٠٠ بالخصاص » ٠ هى بيوت من القصب ، تسقف بأخشاب ٠ ا هـ ٠

آخر فيهدمها .. فلا تزال تهدم وتبنى حتى تذهب حرمة البيت من قلوبهم .. والأفضل أن تقوموا بترقيعها .

فقال عبد الله :

ـ والله ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه فكيف أرقع بيت الله سبحانه وتعالى ؟

فقال ابن عباس :

إذن .. دعه كما هو .

فتساءل عبد الله :

ـ كيف وأنا أنظر إليه ينقض من أعلاه إلى أسفله حتى أن الحمام ليقع عليه فتتناثر حجارته وإنى أشهد هنا على الملأ أنى سمعت عائشة رضى الله عنها تقول :

(إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن قومك استَقْصَرُوا فى بناءِ البيت ولولا حداثة عهد قومك بالكفر أعَدْتُ فيه ما تركوا منه ؛ فإن بدا لقومك أن يبنوه فَهَلُمِّى لِأُرِيَكِ ما تركوا منه) .. فأراها قريباً من سبعة أذرع .. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (وجعلتُ لها بابَيْنِ موضوعَيْنِ على الأرض باباً شرقياً يدخل الناس منه وباباً غربياً يخرج الناس منه) .

وقال عبد الله بن الزبير متمِّماً حديثه :

ـ وأشهد أن عائشة رضى الله عنها قالت (إن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال : هل تدرين لِمَ كان قومك رفعوا بابها ؟ قالت عائشة رضى الله عنها : لا ــ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تَعَزُّزاً أن يدخلها إلاَّ من أرادوا .. فكان الرجل إذا كرهوا أن يدخلها يدعونه يرتقى حتى إذا كاد يدخل دَفَعُوه فسقط) .

وهنا قال ابن عباس لابن الزُّبير .

ــ كلنا سمع بهذا الحديث النبوى الشريف يا عبد الله وإنى أسألك الآن : مَاذَا أنت فاعل . وعَلاَمَ استقرّ رأْيك ؟

قال عبد الله :

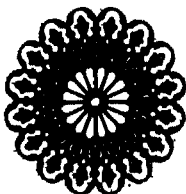
ــ إنى مستخير الله ثلاثاً ، ثم عازم أمرى يابن عباس .

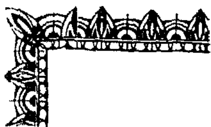
فقال ابن عباس

ــ حسناً .. ولكن أُحذِّرك أن تترك المسلمين بغير قبلة يتجهون إليها فى صلاتهم .. أنصب لهم حول الكعبة الخَشَبَ واجعل عليها السُّتورَ حتى يطوف الناس من ورائها .

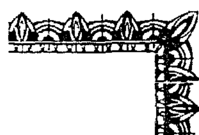
فقال عبد الله .

ــ أفعل إن شاءَ الله .





بناء عبد الله بن الزبير للكعبة



وبدأ عبد الله بن الزبير بسؤال كبار السن من أهل العلم عن الأحجار التى بَنَتْ منها قريش الكعبة . فأخبروه أنها بنيت من جبال حِراءٍ وَثَبِيرٍ والمَقْطَعِ وخَنْدمَة وحَلْحَلَة ، ومن جبل بأسفل مكة على يسار ما انحدر من ثنية بنى عَضَلٍ .. ويقال له : جبل الكعبة ، وهو الواقع على يمين الداخل إلى مكة من جَرْوَلٍ . ومن مُزْدلفة «١» .

فنقل إلى عبد الله بن الزبير من الحجارة ما يحتاج إليه ، فلما اجتمع له ما يلزمه من آلات العمارة وأراد هدم الكعبة عمد إلى ما كان بداخلها من كنوز وحلى وثياب وطيب فنقلها إلى دار شَيْبَة بن عثمان «٢» ـ وتقدم يريد الهدم ويدعو النَّاس إلى مساعدته ، ولكن

---

(١) « .. ومن مزدلفة » : هذا كلام الازرقى فى تاريخ مكة ج ١ ص ١٤٦ ، وللعلماء فى ذلك خلاف وإشكالات ، ولم نجد « المقطع » و « حلحلة » فى معجم ياقوت ، والمعروف ان الكعبة بنيت من سبعة اجبل حراء ، وثبير ، ولبنان ، والطور ، والجبل الاحمر . وقيل طورسيناء وطورزيتا ، ولبنان ، والجودى ، وحراء .

ويروى . أن بناءها من ستة اجبل ، من : ابى قبيس ، والطور ، والقدس ، وورقان ، ورضوى ، وأحد ، (انظر الروض الانف للسهيلي ج ١ ص ١٢٩ وشفاء الغرام للفاسى ج ١ ص ٩٣) ا هـ .

(٢) « شيبة بن عثمان » : ورث حجابة الكعبة عن الآباء ، وهو قرشي ، من بنى عبدالدار ، اسلم يوم الفتح (تاريخ ابن عساكر ج ١ ص ٣٤٧)

الناس هربوا من مكة كلها .. بعضهم ذهب إلى الطائف وبعضهم ذهب إلى منى والبعض الآخر تحصن برؤوس الجبال ـ فعلوا ذلك مخافة أن ينزل بهم العذاب لاشتراكهم فى الهدم حتى بوجودهم فى مكة أثناءه .

فأمر ابن الزبير العمال الذين استقدمهم للهدم أن يبدأوا ولكنهم تلكأوا ، وأرادوا الهرب مع من هرب من سكان مكة . فصعد إلى سطحها بنفسه فى يوم السبت نصف جمادى الآخرة (عام ٦٥ هـ)«١» وأمسك بالمِعْوَلِ وجعل يهدمها ويرمى بحجارتها ، فلما رأى العمال أنه لم يصب بسوءٍ أخذوا المعاول وصعدوا إلى جواره يشاركونه فى الهدم . وكان من بين العمال عدد من الأحباش ـ أحضرهم عبد الله بن الزبير على أمل أن يكون بينهم الحبشى الذى قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم (يُخَرِّبُ الكعبةَ ذو السُّوَيْقَتَيْنِ من الحَبَشَةَ)«٢» .

ثم نزل عبد الله بن الزبير وترك العمال يُتمون الهدم ثم أخذ الحَجر الأسود ووضعه فى ديباجةٍ ثم أدخله فى صندوق وأغلق عليه ثم وضعه بنفسه فى دار الندوة .

وما إن مالت الشمس للمغيب حتى كان العمال قد انتهوا من

(١) .. (عام ٦٥ هـ) وقيل : عام أربعة وستين . ا هـ .

(٢) « .. من الحبشة » : رواه الامام احمد فى المسند . ا هـ .

والسويقة . تصغير الساق ، للحموشة والدقة فيها . ا هـ .

هدم الجوانب جميعها ·· فقال لهم عبد الله :

ــ زيدوا فى الحفر ·

فقالوا :

ــ قد بلغنا صخراً معمولا على شكل أَسْنِمَةِ الابل ·
فقال لهم :

ــ زيدوا فاحفروا ·

واقترب العمال يريدون زيادة الحفر ولكن هواءً من نار تلقاهم ·· فابتعدوا مسرعين وهم يصيحون :

ــ النَّار ·· النَّار ··

فسألهم عبد الله بن الزبير :

ــ مالكم ؟

فقالوا :

ــ لا نستطيع أن نزيد فقد رأينا أمراً عظيماً ·· رأينا ناراً يلفح لهيبها أجسادنا · فلنترك الأمر إلى الصباح ·

ولما بَزَغَ فجر اليوم الثانى جمع عبد الله بن الزبير خمسين رجلا من وجهاءِ مكة وأشرافها وأخذهم إلى الكعبة وقال :

ــ اشهدوا ·· هذه قواعد إبراهيم عليه السلام ·

ونظر الخمسون رجلا ومَن حضر من الأهالى إلى الأحجار وأخذهم العجب من شكلها ولونها وقوتها وتماسكها ·

وقال عبد الله بن مُطيع العدويّ"[١]" .

ـ دعونا نحاول ما حاوله آباؤنا من قبل لنرى هل كان حقاً ذلك الزلزال أم كان وهماً صوّره لهم الخوف ·

ومدَّ يده يريد أن يحرك حجراً عن أخيه · وفجأة ارتجفت مكة كلها رجفة شديدة وبدت الجبال من حولها وكأنها تريد أن تنقض ·· بل تساقطت بعض أحجارها · ففزع النَّاس وندم كل من حضر هذه الواقعة · وبكى عبد الله بن مطيع العدويُّ بكاءً مريراً وراح يستغفر ربه ·· وهنا أمر عبد الله بن الزبير العمال بالبناءِ ·· فاستأنفوا العمل على الفور · وكانوا يبنون من وراءِ حاجز خشبي والنَّاس يطوفون من خارجه حتى ارتفع البنيان إلى موضع الركن ·· فأمر عبد الله بموضعه فنقر في حجرين · فلما فرغ العمال من البناءِ دعا عبد الله ابنه عباداً وجُبير بن شيبة بن عثمان إليه وقال :

ـ لقد جمعتكما لأمر مُهِمٍّ جداً :

قال عباد :

ـ وما هو يا أبتِ ؟

(١) "·· عبدالله بن مطيع العدوى" : من رجال قريش ، ولد في حياة النبى صلى الله عليه وسلم فقتل مع إبل الزبير في حصار الحجاج ، وارسل راسه مع راسى : ابن الزبير ، وصفوان ، إلى الشام (الكامل لابن الاثير ج ٤ ص ١٣٧) ·

قال عبد الله :

ـ لقد اخترتكما لتقوما بوضع الحجر الأسود فى مكانه ‥ فإذا دخلت فى صلاة الظهر ضعوا الحجر الأسود فى ثوب واحملوه من دار الندوة إلى الكعبة ، وليضعه أحدكم بيده فى موضعه ، وسوف أطيل الصلاة حتى تفرغوا من عملكم ‥ فإذا فرغتم فكبروا حتى أخفف من صلاتى .

فلما أقيمت الصلاة كبر ابن الزبير وصلى بالناس ركعة ، وهنا خرج عبّاد وجبير بالحجر من دار الندوة ونفذوا ما قاله لهما عبد الله بن الزبير ، وكان الذى وضعه بيده فى مكانـــه هو عباد«١» ‥

فلما أقراه فى موضعه وأطبقا عليه الحجرين كبرا ، فخفف عبد الله صلاته ، وتسامع الناس بالخبر بعد الصلاة ، فغضبوا وثارت ثائرتهم ‥ فقال واحد منهم :

ـ ما هذا يا عبد الله ‥ ماذا فعلت يارجل ؟ لقد كنا أولى من هذين الصبيين بإعادة الحجر الأسود إلى مكانه .

وقال آخر :

ـ أجل والله يا عبد الله ‥ لقد تجاوزت الحدود بهذا العمل

(١) « ‥ عباد » قيل : وضعه ابن الزبير بنفسه ، وقيل : وضعه الحجبة . وقيل : وضعه حمزة بن عبدالله بن الزبير . ا هـ .

وما كان ينبغى لك أن تتجاهل أشراف مكة وسادتها وزعماءَها ثم تمنح ولدك وصاحبه هذا الشرف العظيم من دوننا ،

فقال لهم عبد الله :

ـ مهلاً ياقوم ‥ لا تثوروا ولا تغضبوا ‥ والله لقد رفع فى الجاهلية حين بنت قريش الكعبة ، فحكموا فيه أول من يدخل من باب المسجد ، فطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعله فى ردائه ودعا عليه السلام من كل قبيلة من قريش رجلا فأخذوا بأركان الثوب ‥ ثم وضعه الرسول الكريم بيده الكريمة فى موضعه ‥ ولقد حاولت أن أبتعد بكم عن الخلاف ولعْق الدماء ·

وهنا هدأت النفوس وذهب عنها الغضب ولم يحاول أحدهم أن يثير جدلاً بهذا الشأن ثانية ·

ولقد حقق عبد الله بن الزبير فى بنائه للكعبة كل ما قال به رسول الله صلى الله عليه وسلم ‥ ولما فرغ من البناءِ مَسَحَ جوف الكعبة بالعَنْبَرِ والمسك ودهن جدرانها من الخارج بالمسك والعنبر أيضاً ‥ ثم غطاها بكسوة كاملة من الديباج والقَباطِى «١» وأعاد إليهَا ما كان قد أودعه بيتَ شيبةَ بنِ عثمانَ من كنوز وحلِىٍّ وثياب · ولم يهمل الساحة من حول الكعبة بل

(١) « والقباطى » ثياب منسوبة إلى مصر · ا هـ

غطاها بما بقى من الصخور بعد تسويتها وجعلها ناعمة الملمس جميلة المنظر ·

وفى اليوم السابع عشر من رجب عام ٦٥ هجرية وقف وسط الناس وهتف :

ـ أيها الناس ·· من كانت عليه طاعة فليعتمر من التنعيم[١] شكراً لله عز وجل ، ومن قدر أن ينحر بدنة فليفعل ومن لم يقدر على بدنة فليذبح شاة ·· فمن لم يقدر فليتصدق بقدر طوله ·

وخرج عبد الله بن الزبير ماشياً حافياً وخرج معه رجال من قريش مشاةً حفاةً ·

ـ منهم عبد الله بن صفوان[٢] وعُبيد بن عُمير ·· فأحرم ابن الزبير من أكمة أمام مسجد عائشة بمقدار غلوة[٣] وهو على مقربة من المسجد المنسوب لعلى كرم الله وجهه ، وجعل طريقه على ثنية الحجون[٤] المُفْضية إلى المَعْلاةِ وراح يلبى حتى وصل البيت الحرام ، فلما طاف بالكعبة واستلم الأركان ، قال :

(١) « التنعيم » هو اقرب حل إلى الحرام ، اعتمرت منه عائشة · ا هـ ·

(٢) « ·· ابن صفوان » هو عبدالله بن صفوان الاكبر ، رئيس مكة ، قتل مع الزبير ، وهو الذى قدم لمعاوية حين حج الفى شاة (انظر شذرات الذهب لابن العماد ج ١ ص ٨٠) ·

(٣) « بمقدار غلوة » اى رمية سهم · ا هـ ·

(٤) « الحجون » جبل بأعلى مكة ، عنده مدافن اهلها · ا هـ ·

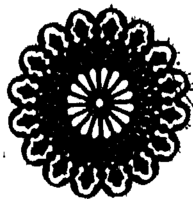
- إنما كان ترك استلام الركن الشامى والغربى ، لأن البيت لم يكن تامًّا وقد تم الآن والحمد لله .

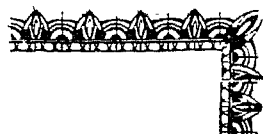
ثم أهدى للبيت مائة بَدَنَةٍ نحرت جميعها جهة التَّنْعيم ولم يبق من أشراف مكة ونوى الاستطاعة من لم يُهْدِ وينحر .

ولم ير يوم كان أكثر عتقاً ولا أكثر بدنة منحورة ولا شاة مذبوحة ولا صدقة مبذولة من ذلك اليوم .. لقد قام أهل مكة بذلك شكراً لله عز وجل على ما أنعم به من المعونة والتيسير فى بناءِ بيته الحرام على الصورة التى بناها إبراهيم الخليل عليه السلام .

ويقول الحافظ نجم الدين :

إن ابن الزبير بنى الكعبة المشرفة على قواعد إبراهيم الخليل إلا أنه جعل ارتفاعها ضعفىْ ما كانت عليه فى عمارة الخليل ، حيث إن ارتفاعها كان فى عهد الخليل تسعة أذرع على أصح الروايات ، وعبد الله بن الزبير جعل ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعاً ، وجعل لها سقفاً ، وجعل فى ركنها الشمالى درجاً يصعد عليه إلى سطحها ، وحَلَّاها بالذهب وجعل مفاتيحها من الذهب أيضاً .



بناء الحجاج للكعبة

وتمضى بنا قافلة الزمان لنرى الأنوار وقد عادت تَتَلألأُ فى مكة وهى سعيدة مبتهجة بالكعبة المعظمة وقد بنيت من جديد على الصورة التى كان يريدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

وقُدِّر لعبد الله بن الزبير الذى بنى الكعبة على هذا النحو أن يُقتل فى حربه مع الحَجَّاج ٠ فيكتب الحجاج إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يقول :

– (٠٠٠ وإن ابن الزبير قد وضع بناءَ الكعبة على أساس نظر إليه بعين الغضب من أهل مكة وابتعد به كثيراً عن البناءِ الذى كانت قريش قد أقامته واشترك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد زاد فى البيت ما ليس منه وأحدث فيه باباً آخر ، وإنى أستأذنكم فى ردِّ البيت إلى ما كان عليه فى الجاهلية)

وأنهى الحجاج خطابه بعبارات نقدٍ لاذعةٍ لعبد الله بن الزبير ٠٠ فكتب إليه عبد الملك يقول :

– (٠٠٠ وإنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير فى شىءٍ ٠٠ أما ما زاد فى طول البيت فأقِرّهُ وعليك أن تتركه ٠٠ وأما ما زاد فيه من حِجْرِ إسماعيل فرده إلى بنائه الأصلى وسدَّ الباب الذى فتح

واكْبِسْ الأَرض على ما كانت عليه) ٠

ونفَّذ الحجاج أَوامر عبد الملك بن مروان وهدم من الكعبة ستة أَذرع وشبراً مما يلى حِجْرَ إِسماعيل وأَعاد بناءَها على أساس قريش الذى كانت قد استقصرت عليها وكبس أَرضها بما هدم منها وسد الباب الغربى ٠

ولما فرغ الحجاج من هذا كله جاءَ عبد الملك بن مروان يعتمر ٠٠ وروى مسلم : أَن عبد الملك بن مروان كان يطوف بالبيت فالتقى بالحارث"١" بن أَبى ربيعةَ وقال له بعد الطواف :

ــ قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أُم المؤمنين يقول : سمعتها تقول (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عائشة لولا حِدْثانُ قومك بالكفر لنقضتُ البيت حتى أَزيد فيه من الحِجْرِ ، فان قومَك قَصَّروا فى البناء)

فقال الحارث بن أَبى ربيعة :

ــ لا تقل هذا يا أَمير المؤمنين ٠٠ فإِنى سمعت أُم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تحدث هذا ٠

فقال عبد الملك :

(١) « ٠٠ بالحارث » هو المخزومى ، ويلقب بالقباع ، وكان عامل ابن الزبير بالبصرة ١٠ هـ ٠

ـ لو كنت سمعت قبل أن آمر بهدمه لتركته على ما بَنَى ابنُ الزبير .

وعاد عبد الملك كاسف البال حزيناً إلى الشام ولكنه لم يَهْدأ ولم يستقر به الحال . وكان في كل يوم يستقدم عالما من العلماءِ ويسألَه في الأمر ، وكلما أكدوا له صدق الحديث الذى قالت به عائشة رضى الله عنها ازداد ألماً وحزناً وانتهى به الأمر الى حالة مرضية عجيبة كانت تجعله يقضى الساعات مطرقاً مفكراً في صَمْتٍ ، وقد تَقَلَّصَتْ عضلات وجهه ، ثم يرفع رأسه ويصيح فجأة كالمجنون :

ـ لعنةُ الله على الحجّاج .. لعنةُ الله على الحجّاج .

وقرر عبد الملك بينه وبين نفسه أن يهدم البناءَ من جديد وأن يعيده إلى الوضع الذى كانت عليه الكعبة في عهد عبد الله بن الزبير ، وطلب العلماءَ والفقهاءَ وأصحاب الرأى وقال لهم :

ـ لقد أخطأنا والله إذ أطعنَا للحجاج في تغيير بناءِ عبد الله بن الزبير ، وإنى لنادم على ذلك أشد الندم . ونفسى لا تطاوعنى على الصبر وترك هذا الخطأ .. لقد بناها عبد الله على هذا النحو . ليحقق رغبة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فكيف أصبر على نقض هذا البناءِ ؟ فقال واحد منهم :

ـ يا أمير المؤمنين ·· يكفى أنك تعانى من الأسف والندم الآن ·· إن فى هذا بعض التكفير عن الخطأ ·

فعاد يقول :

ـ ولم لا أحاول الآن إصلاح الخطأ وإعادة البناء على ما كان قد فعله ابن الزبير ؟ ولكن العلماء جميعاً كرهوا أن يغير عبدالملك من حال الكعبة مرة أخرى وصمموا أن تبقى كما هى ·· فغضب عبد الملك منهم وثار عليهم وطالبهم بإيجاد مخرج له من هذه المحنة التى يعيشها ·· فقال أحدهم :

ـ يا أمير المؤمنين ·· كعبة الله ليست ملعباً للملوك والأمراء وليست رهن رغباتهم ·· هذا يهدمها وذاك يبنيها وهذا يغير فيها وذاك يعيد التغيير من جديد ·

وانصرف العلماء وبقى عبد الملك يعيش أياماً فى صمت رهيب ·· ثم انفجر باكياً كالطفل اليتيم ·

ذكر الحافظ بن كثير فى تفسيره الروايات التى رواها مسلم فى صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فى ذلك الحديث :

(هذا الحديث كالمقطوع به إلى عائشة لأنه قد روى عنها من طرق صحيحة متعددة ، فقد روى عن الأسود بن يزيد ، والحارث ابن عبد الله بن أبى ربيعة ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن محمد بن أبى بكر وعروة بن الزبير ، فدل هذا على صواب ما فعله

عبد الله بن الزبير ، فلو تركه لكان جيداً) ٠

وقيل : إن أمير المؤمنين هارون الرشيد أو أباه المهدى ، سأل الإمام مالكا :

ـ ما رأيك أيها الإمام فى هدم الكعبة وردمها ؟

فقال الإمام مالك :

ـ ناشدتك الله يا أمير المؤمنين ألاَّ تجعل بيت الله مَلْعَبة فتذهب هيبتُه من صدور الناس ويهون أمره عليهم

فلما آلت الخلافة إلى الوليد بعث إلى واليه على مكة خالد بن عبد الله القسْرِىِّ بستة وثلاثين ألف دينار فضرب منها على بابى الكعبة صفائح الذهب وعلى ميزابها وعلى الأساطين والأركان فى جوفها ٠

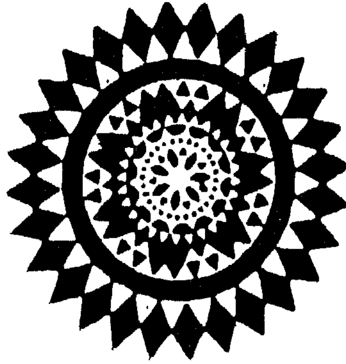
ويعتبر الوليد أول من ذهَّب البيت فى الإسلام ، وقد بقيت هذه الصفائح الذهبية حتى ولاية أمير المؤمنين محمد بن الرشيد ثم رقت وتفرقت ، فأرسل إلى سالم بن الجَرّاح عامله على مكة بثمانية عشر ألف دينار ليضرب بها صفائح أخرى جديدة ــ فقام بخَلْع ما كان باقياً على البابين من بقايا الصفائح الأولى ثم أعاد صياغتها وزاد عليها وجعل المسامير من الذهب وحلقتى باب الكعبة المفتوح أيضاً ٠٠ كما زين الباب الغربى المغلق الذى كان الحجاج قد سدّه

كذلك فقد زين الأفاريز«١» والعتبة ٠

ويقول المُثَنَّى بن جُبير الصوّاف :

ـ حين جمعوا ذهب الكعبة فى ذلك الحين وجدوا فيه ثمانية وعشرين ألف مثقال ، فزادوا عليها ما ثمنه خمسة عشر ألف دينار ٠

هذا عدا ما احتفظ به داخل خِزانتها من أموال وتحف أُهديت إليها من الملوك والأُمراءِ وما أكثر ما قدموا إلى الكعبة من هدايا الذهب القيّمة ٠



(١) « الافاريز » جمع إفريز ، وهو ما اشرف خارج البناء ، ذكره المعجم الوسيط ص ٦٨٧ وقال رشيد عطية فى مرادف العامى ص ٢٥٦ : يقابله « الطنف » ١ هـ ٠

الحجر الأسعد أو الأسود

وتتمهل قافلة الزمان فى سيرها قليلاً ثم تتوقف عند الحجر الأسعد الذى كان يتلألأ من شدة بياضه ويضىءُ المكان من حوله بنور وهاج ، ثم تحول بسبب خطايا البشر إلى لونه الأسود الحالى «١» .

وكان عبد الله بن الزبير أول من ربط الحجر الأسود بالفضة وذلك بعد حريق الكعبة الثانى .. ومع الأيام تَقَلَّقتْ أحزمةُ الفضة من حوله وخلع بعضها .

فلما اعتمر هارون الرشيد سنة تسع وثمانين ومائة أمر بالحجارة التى بينها الحجر الأسود فنقبت بالماس من فوقها ومن تحتها ثم أُفرغت فيها الفضة ثم ثبت فيها الحجر ..

وفى السابع من ذى الحجة سنة سبع عشرة أو تسع عشرة وثلاثمائة وفد إلى مكة عدو الله أبو طاهر القرمطى «٢» برجاله

(١) « .. لونه الاسود الحالى » وردت أحاديث صحيحة فى السنن ، قال عليه السلام « كان اشد بياضا من اللبن ، وانما سودته خطايا بنى ادم » ١٠ هـ .

(٢) « ابو طاهر القرمطى » هو سليمان بن الحسن الجنابى ، زعيم القرامطة ، وهم من الباطنية ، وكان طاغية زنديقا ، استولى على سائر بلاد البحرين ، بلغ قتلاه فى مكة ثلاثين الفا ، مات بالجدرى ، وقيل : رمته امرأة بلبنة من السطح فقتلته ، وانقطعت بعده شوكة القرامطة (الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ٢٧ ، دائرة المعارف ج ٧ ص ٧١٩) .

الملحدين وعددهم تسعمائة ، وكان أبو طاهر مخموراً يمتطى فرسه وفى يده سيف مسلول ، فصفر لفرسه فلوثت أرض الحرم والناس يطوفون بالكعبة مبتهلين لله عز وجل ملبين له سبحانه ٠٠ وهنا صاح فيهم القرمطى :

ـ كفواعن هذا الدعاءِ أيها الناس ٠٠ كفوا وإلّا فالويل لكم ٠

فصاح به ابنُ مُحاربٍ أمير مكة :

ـ ماذا تقول أيها الملحد الزنديق ٠

فقال القرمطى :

ـ أقول كفوا عن هذا اللغو وإلا أطاحت سيوفنا بأعناقكم أيها الحمير ٠

فصاح الحافظ أبو الفضل فى غضب :

ـ ويلك ثم ويلك ٠٠ أهذا كلام يقال فى بيت الله الحرام لأمير مكة ؟

فصرخ القرمطى بغرور :

ـ لا أمير اليوم غيرى هنا ٠٠ إنى أبو طاهر القرمطى الأمير والحاكم وصاحب الأمر والنهى فى رقابكم جميعاً ٠٠

ثم وجه الكلام إلى رجاله قائلاً :

– حاصروهم ولا تدعوا واحداً منهم ينجو بنفسه ·

فقال ابن محارب أمير مكة :

– أتفعل هذا ونحن عُزَّلٌ من السلاح وقد جئنا لأداءِ فريضة الصلاة ؟

فعاد القرمطى يقول لرجاله دون أن يلتفت إلى ابن محارب :

– اقتلوهم ولا تمكنوهم من أداءِ الصلاة ·· لا صلاة بعد اليوم ·· اليوم للقتل والذبح فقط ·

ثم اعتلى سطح البيت وهو يصيح :

أنـا بالله وبالله أنا   يخلـقُ الخلـقَ وأُفنيهـم أنا

وحاصر رجاله البيت وحاول بعض الناس الخروج لطلب النجدة فأعمل فيهم رجال القرمطىّ سيوفهم وفتكوا بالألوف من الحجيج فى المسجد الحرام وفى فجاج مكة ·· فقتل فى المسجد الحرام وحده ألف وسبعمائة · وقيل ثلاثة عشر ألفاً من الرجال والنساء وهم معتقلون بالكعبة ·

وردَمَ بهم القرمطىُّ زمزمَ حتى ملأها وفرش بهم المسجد الحرام وما يليه · وقيل دفن الناس فى المسجد بلا صلاة ، وكان يتنقل وفرسانه على خيولهم بين جُثَث القتلى ·· وعندما تم له إزهاق أرواح الناس بالمسجد الحرام وفى فجاج مكة وسككها

ودورها عاد إلى الكعبة ثانية وقال لرجاله :

ـ علىّ بحُلىّ الكعبة وكنوزها ..

فأسرع رجاله إلى الكعبة وعادوا بكل ما فيها من كنوز وأموال فأمرهم بإحضار قُبّة زمزم أيضاً وباب الكعبة وكل ما تحلّتْ به جدرانها ولو كان ملصقاً بالأرض أو الجدران . فنفذ رجاله الأمر على الفور . فنظر إلى ميزاب الكعبة وقال لرجاله :

ـ وهذا الميزاب الذهبىّ .. لماذا تركتموه ؟ .. فليصعد أحدكم إليه وليحضره على الفور .

فتقدم رجل من رجاله وصعد على دَرَج الكعبة حتى وصل إلى السطح ليُخلع الميزاب . وما كاد يصل إلى مكان الميزاب حتى انقض عليه القَدَرُ فى صورة سَهْم مسمومٍ انطلق من أعلى جبل أبى قبيس فاستقرَّ فى عَجُزِه فسقط على الفور جثة هامدة .

ففزع الرجال جميعًا وصاحوا فى ذعر شديد متسائلين عن هذا السهم وكيف وصل إلى صاحبهم ؟

ولكنه نهرهم وصرخ فيهم أن ينفذوا أوامره وأن يحضروا الميزاب ولكن أحداً منهم لم يقبل الصعود إلى سطح الكعبة .. فقال لهم :

ـ إنّنْ دعونا من هذا الميزاب المشئوم وهيا احملوا

المقام ·· وبحث الرجال عن المقام بالمسجد فلم يجدوه ، وكان أحد سَدَنَةِ المسجد قد حمله فور دخول القرمطىّ ورجاله وغَيَّبَه فى مكان أمين ·

وأمرهم القرمطىُّ بخلع الحَجَرِ الأسود ، فلما استحال ذلك عليهم أمرهم بالبحث عن بَنَّاءٍ متخصّص وإحضاره على الفور ··

وكان القرمطى قد ضرب الحجر الأسود بِدَبُّوسٍ «١» معه فَتَكَسَّرَ ــ فلما جاءَ البَنَّاءُ ــ جعفر بن أبى علاج ــ خلعه وقدمه له فأمر رجاله بحمله إلى بلده (هَجَرَ) «٢» وقيل : إن أربعين جملاً قد حملته بالتوالى فهلكت جميعها تحته ·

ومع ذلك لم يعتبر القرمطىُّ واستمر فى غيه فجمع أهل مكة ــ أو بالأصح ــ ما بقى من أهل مكة وخطب فيهم لعبيد الله المهدى «٣» صاحب المهدية بإفريقيا ·

فلما بلغ المهدى ما كان منه ومن أعماله فى مكة كتب إليه يقول :

ــ ·· والمُعجِب من كتبك إلينا أنك تَمْتَنّ علينا بما ارتكبت واقترفتَ باسمنا من جرائم فى حرم الله وجيرانه ·· بالأماكن التى

---

(١) « ·· ضرب الحجر الأسود بدبوس ·· » هو المقمعة ، وهى العصا ، من حديد فى راسها شيء كالكرة · ا هـ ·

(٢) « هجر » هى قاعدة البحرين ، وذكروا انه حمله إلى الكوفة ايضا ، ا هـ ·

(٣) « لعبيدالله المهدى » هو إمام الشيعة الاسماعيلية (انظر تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١١) ·

لم تزل الجاهلية تحرّم الدماءَ فيها وإهانةَ أهلها .. ثم تعدّيت ذلك إلى أن قلعت الحَجَرَ الأسودَ الذى هو يمين الله فى الأرض «١» يصافح بها عبادَه وحملتَه إلى أرضك ورجوت أن نشكرك على ذلك .. فلعنك الله ثم لعنك . والسلام على من يَسْلَمُ المسلمون من لسانه ويده .»

واحتفظ القرمطى بالحَجَرِ الأسود فى بلده هجر اثنتين وعشرين سنة .. ويبقى موضع الحجر من الكعبة خالياً يضع الناس فيه أيديهم للتبرك .

وكان السبب فى كل ما فعله أبو طاهر القَرمطىُّ هو أنه رأى فى نومه أنه يقيم كعبة أُخرى فى بلده هَجَرَ ـ فأراد أن يحقق هذا الحلم . وقد أقام بناءً فى بلده فعلا ووضع فيه الحجر الأسود .. ولكن أحداً من الناس لم يتجه إلى هذا البناءِ ولم يهتم بدخوله .

ولما يئس القرامطة من استمالة الناس إليهم وإلى بنائهم ردّوا الحجر إلى الكعبة ثانية .

وقد ردَّه سنبر بن الحسن القرمطى «٢» .. إذ جاءَ فى يوم الثلاثاءِ .. يوم النحر من سنة ٣٣٩ هجرية إلى مكة ومعه الحَجَرُ

---

(١) « ... يمين الله فى الارض » « ورد بذلك حديث صحيح فى السنن . ا هـ .

(٢) « ..سنبربن الحسن القرمطى » فى دائرة المعارف : انه رد على يد ابى اسحق ابراهيم بن محمد بن يحيى ، مزكى نيسابور فى سنة ٣٢٩ هـ .

الأسودُ فى سَفَطٍ وعليه ضِبابٌ "١" من فضة وسار به حتى وصل ساحة الكعبة ، وهنا أخرجه من السفط ووضعه مكانه · ثم جعلوا له طوقاً من الفضة ليشدّبه كما كان قديمًا حين عمله ابن الزبير ·

وهنا هلل الناس وكبروا وتألقت الفرحة على وجوههم بعودة الحجر الأسود إلى الكعبة المشرفة ·

وكما تعرض الحجر الأسود لهذه المحاولة الخبيثة من القرامطة الملحدين فقد تعرض قبلها وبعدها لحوادث أُخرى ولكن العناية الإلٰهية كانت دائماً تنقذه وتعيده إلى مكانه فى الكعبة المشرفة ·

ويذكر التاريخ أن قوماً سرقوه فى عهد جُرْهُم وحملوه على جمل ، فسار الجمل مسافة ثم بَرَكَ ، فضربوه فقام وسار مسافة أُخرى ثم برك فضربوه ثانية فقام وسار مسافة ثالثة ثم برك ولم يقم رغم تعدد المحاولات منهم ·· فقالوا :

ـ ما برك إلاَّ من أجل الحَجَر ·

فأخذوا الحجر ودفنوه فى مكانه فى أسفل مكة · وتصادف أن رأتهم امرأة من خُزاعة وهم يدفنونه فأخبرت بذلك قومها وأعادوه إلى مكانه ·

(١) « ·· فى سفط وعليه ضباب ·· » السفط · وعاء كالجوالق ، والضباب · جمع ضبة وهى حديدة يغلق بها الباب ، ا هـ ·

وقيل : إن الحجر ظل مدفوناً حتى جاءَ قُصَى القرشىَ فأخبروه ورده إلى مكانه ٠

وقد حدث أن بعض الملحدين فكروا فى سرقة هذا الحجر بعد حادثة القرامطة ــ وكانوا من الذين استهواهم الحاكم العبيدى ، فعمدوا إلى رجل رومى استأجروه وأغروه بالأموال الطائلة لسرقة الحجر ، فإن فشل فى السرقة فليحطمنه إلى شظايا صغيرة لا تصلح لشىء ٠ ودخل الرجل الرومى إلى الكعبة فى ثياب فضفاضة وفى إحدى يديه سيف مسلول وبالأخرى دَبُّوسٌ من الحديد ومِعْوَلٌ كبير ٠

وكان ذلك فى يوم النَّفْرةِ الأول ولم يكن الناس قد عادوا بعد من منى ٠٠٠ وبعد أن فرغ الإمام من الصلاة اندفع الرومى إلى الحجر الأسود وكأنما يريد أن يستلمه أو يقبله ولكنه ما كاد يصل إليه حتى رفع يده وضرب وجه الحجر ثلاث ضربات فتقشر وجه الحجر وسقطت منه ثلاثُ شظايا وحدثت فيه شقوقٌ يميناً وشمالاً ٠٠ فابتدره رجل من اليمن حين رآه وهو يطوف فطعنه بخنجره فسقط مضرَّجاً بدمائه ، فأقبل الناس عليه من نواحى المسجد وقطعوه ثم أحرقوه بالنار ٠

وقد اتضح أن له أعواناً بخارج المسجد ينتظرونه وقد قبض عليهم جميعاً وأُحرقوا بالنار أيضاً · ثم اتضح أيضاً أن هؤلاء الأعوان كان لهم أعوان فى الخفاء فثارت الفتنة وهددت مكة كلها فخرج إليهم أبو الفتوح أمير مكة وتمكن من إخماد الفتنة تماماً ·

ويقى الحجر الأسود على حاله تلك يومين ، ثم إن بعض بنى شيبة جمعوا شظاياه وفُتاته وعجنوه بالمسك واللّكّ «١» ثم حُشيت الشقوق وطُليت بهذا الخليط ·

وفى آخر شهر المحرم عام ١٣٥١ هجرية دخل المسجد الحرام رجل فارسى من بلاد الأفغان وطاف مع الطائفين بالكعبة وانتهز فرصة انشغال الناس بالطواف ثم تسلل إلى الحجر الأسود فاقتلع قطعة منه · وسمع الناس صوت المِعْوَل وهو يضرب الحجر فاجتمعوا عليه واعتقلوه وفتشوه فإذا به يخفى بين ثيابه قطعة من كسوة الكعبة وقطعة من فضة المدْرَج الذى هو بين بئر زمزم وباب بنى شَيْبَةَ ·

وقدم الرجل للمحاكمة ودارت بينه وبين المحقق هذه المحاورة :

ــ هل أنت مسلم ؟

---

(١) « وعجنوه بالمسك واللك » هو ثفل ، او عصارة لنبات تشد به مقابض السكاكين · ا هـ ·

ـ لا ٠٠ لست مسلما أيها المحقق ٠

ـ وكيف دخلت الكعبة إذن ٠٠ بل كيف دخلت مكة وهو حرام على غير المسلمين ؟

ـ دخلتها خلسةً وقد ساعدنى فى ذلك الذين انتدبونى لهذه المهمة ٠

ـ إذن فأنت موفد من قبل آخرين ؟

ـ نعم لقد استأجرونى لتحطيم الحجر الأسود نظير مبلغ كبير من المال تسلمت نصفه والنصف الآخر سوف أتسلمه عندما أعود إليهم بما يثبت أننى قد حطمت الحجر الأسود فعلاً ٠

ـ ولكنك لم تحطمه ٠

ـ صحيح ٠٠ وقد منعنى عن ذلك خوفى ٠

ـ خوفك ٠٠ ماذا تعنى بهذا القول ؟

عندما دخلت بلادكم سمعت عن أولئك الذين حاولوا تحطيم الحجر الأسود فكان جزاءهم القتل والتمزيق والحرق ، ولهذا اكتفيت بخلع هذه القطعة الصغيرة من الحجر الأسود ٠ ٠

ـ ولكننا عثرنا معك على قطعة من الكسوة وأخرى من الفضة ٠

ـ هذه أدلة أخرى أخذتها ليتأكد الذين أرسلونى أننى قد

وصلت إلى هنا ونفذت لهم ما أرادوا حتى أتمكن من أخذ بقية المبلغ المتفق عليه ٠

ـ وكيف تستحل المبلغ لنفسك وأنت لم تحقق لهم ما اتفقت عليه ؟

ـ سأدعى لهم أننى فعلت ذلك ٠

ـ ولكنهم سيعلمون يوماً أنك لم تفعل ما أرادوا ٠

ـ عندئذلن أكون فى متناول أيديهم ٠

ـ كيف ٠

ـ بعد حصولى على بقية المبلغ مباشرة سأرحل إلى مكان لايصل إلىّ فيه إنسان ٠٠ إننى أريد أن أعيش ٠

ـ الواقع أنك سترحل إلى مكان لايصل إليك فيه إنسان ولكنك لن تعيش ٠

ـ (بدهشة) لن أعيش ٠

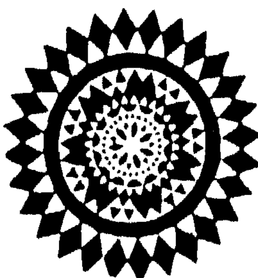
ـ نعم فحكم الإعدام ينتظرك أيها التَّعِسُ ٠

وحكم على الأفغانى بالإعدام ونفذ فيه الحكم احراقاً ٠٠ تماماً كما أعدم كل من تجرأ على الحجر الأسود بقلع أو تكسير أو سرقة ٠٠ نعم لقد أصبح حكم الإعدام هو العقوبة المنفذة على كل من تحدثه نفسه بأن يمد يد السوء إلى الحجر الأسود أو أى جزءٍ من أجزاءِ البيت الحرام ٠

وظلت هذه الشَّظِيَّةُ محفوظة حتى انتهى الملك عبد العزيز آل سعود من فترة المصيف بالطائف وركب يريد الذهاب إلى الرياض عاصمة ملكه فمر بمكة حيث كان العلماءُ والصلحاءُ والوزراءَ ورئيسو هيئة القضاءِ قد اجتمعوا بها ·

ثم أَحضر مديرُ الشُّرطة العام تلك الشظيةَ وقام المختصون بعمل مُرَكَّبٍ كيماوى مضافٍ إليه المسك والعنبر ، ثم وضع فى الموضع الذى خرجت منه الشظية ، ثم آخذ جلالة الملك عبد العزيز الشظية بيده الكريمةِ ووضعها فى مكانها تيمناً وتبركاً وبذلك استكمل الحجرُ الأَسودُ كيانه كما كان سابقاً ·

وهكذا عادت إلى الكعبة المعظمة كل مقوماتها وراح الناس يطوفون بها ويستلمون الحجر الأَسود سُعداءَ بوجوده ·





بناء السلطان مراد خان



وتمضى بنا قافلة التاريخ لنشهد مرحلة أخرى من مراحل قصة بناءِ الكعبة المشرفة وهو بناءُ السلطان مراد خان عام ١٠٤٠ هجرية ·· وكان السبب فى هذا البناءِ ذلك السيل العظيم الذى دخل البيت الحرام وتسبب فى سقوط جدران الكعبة

ففى يوم الأربعاءِ التاسع عشر من شعبان عام ١٠٣٩ هجرية هطل على منطقة مكة مطر ثقيل ·· بل عظيم الثِّقَل ، وقد بدأ فى الثانية صباحًا ـ ثم اشتد هطوله بين صلاة الظهر والعصر ولم يلبث أن تحول إلى ثلوج ، وما هى إلا ساعات حتى اندفع داخل البيت الحرام سيل جارف لم تر العينُ مثله بمكة من قبل ثم اندفع بالتالى إلى داخل الكعبة وارتفع حتى وصل إلى منتصف الجدران ثم زاد ارتفاعه فوصل إلى طوقِ القناديلِ ـ أى فوق قامةِ الرجل ـ ولم يبق بيت بمكة لم يغرقه السيل ولم يجرفْ أمتعتَه وينحدر بها إلى أسفل مكة ·· وهلك نتيجة لذلك ألوف من الناس ·

وباتت الكعبة فى تلك الليلة غريقة · ولما انبلج الصبح انّهار جدارها الشامى وجانب من الجدارين الشرقى والغربى وسقطت درجة السطح · فوقع الهَلَعُ بين الناس وانخلعت قلوبهم خوفاً ·

وكانَ ماءُ هذا السيل مِلْحًا مُرًّا لونه يضرب إلى السواد .

فزاد هذا من رُعب الناس وفزعهم وهُرعوا يقيمون الصلوات داعين الله أَن يكشف عنهم الغُمَّة ·

وخرج إليهم أَمير مكة الشريف مسعود بن إدريس وأَمر بفتح سراديب باب إبراهيم التى هى مجارى مياه المسجد الحرام — ففعلوا — واندفع الماءُ منها إلى أَسفل مكة ·· وأَمر الشريف بإيقاد الشموع فى ساحة المسجد وأَحضر الأَشراف والأُمراء والعلماء والفقهاء والصلحاء وأَخرجوا كنوز الكعبة وقناديلها الذهبية المرَصَّعَة بالجواهر واللآلئ ووضعوها فى بيت الشيخ جمال الدين محمد الشيبى الواقع على جبل الصفا ·

وفى يوم الجمعة توقف المطر فأَمر الشريف أن ينادى فى مكة بالآتى :

— أَيها الناس لقد توقف المطر فاهرعوا إلى المسجد الحرام ·· إلى بيت الله وقوموا بتنظيفه ·

فتهافت الناس أُلوفًا إلى البيت وشرعوا فى إزالة الطين الكائن بالمطاف والساحة حول الكعبة وَشمَّرَ الشريف أمير مكة عن ساعديه وحمل مِكْتَلاً وراح يرفع الطين ، شأْنه شأْن بقية الخلق ·

وهكذا فعل الوجهاءُ والأُمراءُ والأَعيان والفقهاءُ ·

ثم اعتلى الخطيب المنبر وخطب فى الناس خطبة الجمعة ثم صلى بالناس فى المطاف ، وبعد الصلاة شرعوا فى رفع الحجارة التى سقطت من جد ران الكعبة ٠٠ كما حمل العَتَّالون «١» الأَحجار ووضعوها فى صحن المسجد ٠

وجمع الشريف أمير مكة شخصيات البلد ورجالاتها وقال لهم :

ــ لقد جمعتكم اليوم لأُوَجِّه إليكم عدة أسئلة مهمة ٠٠

قالوا ٠

ــ تكلم أيها الشريف ٠٠ كلنا آذان صاغية ٠

فقال لهم :

ــ السؤال الأَول عن عمارة ماتهدَّم من جدران الكعبة وهل نبادر نحن إلى عمارتها فى الحال باعتبارنا أولياءها الذَّائدين عن حوضها ، أَم نعرضُ الأمر على الأبواب السلطانية وننتظر الرد ؟

قالوا :

ــ بل نبادر نحن إلى عمارتها على الفور أَيها الأَمير .

فعاد يسألهم ٠

ــ والسؤال الثانى ٠٠ من أى مال يكون التعمير ؟ بمال قناديلها ، أم بمال الأَهالى ؟

---

(١) « العتالون » هم الحمالون ، ا هـ ٠

قال البعض :

ـ يعرض الأمر على الأبواب السلطانية فيمـا يختص بالأموال ··

وقال البعض الآخر :

ـ ولم لايتعاون المسلمون على تعميرها بأموالهم ؟

فقال البعض الأول :

ـ السلطان مُراد خان هو صاحب الولاية العُظمى وهو المسئول الأول عن تعميرها ـ والرأى أنْ نكتب إليه ليقوم بدفع كافة نفقات التعمير ·

فقال البعض الآخر :

ـ وهل نترك الكعبة على حالها إلى أن يصل كتابنا إلى السلطان مُراد خان ، ثم يعود منه الجواب ؟

قال الشريف :

ـ لا بأس ·· سنضع عليها الحراس ، ثم نكتب إلى السلطان وسوف أعمل على سفر الرسل فوراً إلى مصر ليلتقوا بوزير مصر ويطلبوا منه عرض الأمر بأقصى سرعة ممكنة على السلطان ·

ووصل من سِنْجِق«١» جدة خمسمائة دينار لصرفها على عمارة الكعبة بصفة عاجلة · فقام الشريف بإحضار كمية من

---

(١) « سنجق » اى الدائرة ـ والكلمة : فارسية ، ا هـ ·

الأخشاب وأمر العمال بإقامة ستار حول الكعبة ٠

ثم قاموا بعمل ستار أخضر ألبسوه للكعبة ثم صلى الشريف وطاف بها ثم سمح للناس بالصلاة والطواف بها ٠

ولما وصل الخبر بانهيار جدران الكعبة إلى المسلمين خارج مكة والجزيرة العربية أحدث هياجاً شديداً خاصة وأن موسم الحج كان على الأبواب ٠٠ فرأى والى مصر ألا ينتظر ورود الأمر السلطانى من القسطنطينية خوفاً من ازدياد التصدع فى الكعبة المشرفة ٠

وأرسل رضوان آغا من حاشية البلاط العثمانى مندوباً من قبله إلى مكة المكرمة وخوّله صلاحية تامة لاتخاذ التدابير العاجلة ٠ وقد بدأ فعلاً فى اتخاذ هذه التدابير ، وعاونه الأهالى متطوعين بمالهم وجهودهم ، وراحوا يرمّمون الكعبة ٠

وفى يوم الاثنين ٢٧ ربيع الثانى وقع مطر آخر بمكة وامتلأت ساحة المسجد من حول الكعبة بالمياه ثانية وكان ذلك أثناء طواف الناس ، فراح بعضهم يطوف سباحةً ، وسقط بفعل هذا المطر الأخير حجران كبيران من الجدار الغربى وأحجار أخرى صغيرة فى نفس اليوم ٠٠ وفى اليوم الثانى تداعت كافة الأركان للسقوط ولم تعد تصلح فكرة الترميم فصرف النظر عنها وبدأ التفكير فى هدم البناء كله وإقامة بناءٍ جديد ٠

وعلى الفور بدأ العمال فى هدم البناء حتى وصلوا الحجر الأسود .. وجاء المعلم محمد زين الدين فوزن الحجر الأسود والحجر الذى فوقه فوجد أن الحجر الذى فوق الحجر الأسود ناقص قدر ثلاثة قراريط تقريباً فقرر هدم كل البناء ما عدا الحجر الأسود ..

وبدأ البناء والشريف وأولاده ومعظم الوجهاء والأعيان والعلماء والفقهاء يشتغلون مع العمال

وأثناء البناء تململ الحجر الأسود فى موضعه ، فخافوا أن يسقط وينكسر ، فحاول المعلم على مرأى منهم جميعا أن يعيد إليه استقراره وسط إطار الفضة ولكنه لم يفلح وطارت من الحجر الأسود أربع شظايا كادت تقع على الأرض ولكنهم تلقفوها فى أيديهم وجاءوا بكبير المعماريين السيد على بن بركات ، فلما رأى ما حدث انزعج أشد الانزعاج وقال :

ـ يا أمة الاسلام إنْ أُخْرِج الحَجَر من مكانه تفرقتْ أجزاؤه ولا والله تقدرون على ضمها وجمعها ، فدعوه مكانه وأصلحوا هذه الشظايا التى طارت منه ..

فلم يعجب هذا القول رضوان أغا ودارت بينهما محاورة حادة قال على بركات فى نهايتها :

ـ الحجر الذى عليه الحجر الأسود خارج وفى بقائه خَلَلٌ

لأنَه ركن البيت وعليه عَتَبَةُ الباب .

واستقر الرأى بالجميع فى النهاية على إبقاءِ الحجر مكانه وإعادة تلك الشظايا إليه .

وفى الثانى من ذى الحجة عام ١٠٤٠ هجرية انتهى كل عمل بعمارة الكعبة المشرفة فأعادوا إليها كنوزها وقناديلها وكل ما كان فيها ثم غسلوها بماءِ زمزم ثم طيّبوها وبَخّروها واحتفلوا بها احتفالاً كبيراً .

وفرح المسلمون فرحة كبرى وقال الشاعر :

عاد بيت الإلَهِ بعد انهدامِهْ
وغدا فائقًا لحسنِ نظامِهْ
وَأتتنَا بُشرى الهَنَا والتهانى
إذْ أتانا بَشِيرُنَا بتمامِهْ
فحمدنا الإِلَهَ والحمدُ منّا
لم يزلْ دائمًا على إتمامِهْ
وشكرناهُ إذْ رأيناه قد قا
مَ وفُزْنَا بلَثْمِهْ واسْتلامِهْ

العهد السعودى

وتمضى بنا قافلة الزمان لنشهد المرحلة الأخيرة لبناء الكعبة المعظمة ـ وهى المرحلة التى تمت فى العهد السعودى الميمون الذى حشد كل الطاقات وسخر كل إمكانيات العمارة الحديثة لتعمير وتوسعة بيت الله الحرام ٠

وكانت مساحة المسجد الحرام ثابتة منذ البداية عند حدودها التى وضعت أول مرة ـ ولكن المبانى من حول المسجد لم تتوقف عند حد ٠٠ لقد ظلت تزحف وتزحف حتى اتصلت المنازل المحيطة بالمسجد ٠

وهكذا كانت الحال بالنسبة للمسعى بين الصفا والمروة فقد دخلت المبانى الخاصة بينه وبين المسجد وأصبح على مر الأيام طريقاً ضيقاً تقوم على جانبيه المحلات التجارية المختلفة التى ترتفع فوقها المساكن ٠

وهذه المساحة التى ظل المسجد محصوراً فيها ـ إن كانت تتسع فى الماضى لبضع عشرات من ألوف الحجاج فى كل موسم أيام لم تكن للسفر وسائل غير الدواب وسفن الشراع ـ فإنها بدأت تضيق بالوافدين منذ تحول السفر إلى البواخر السريعة والسيارات

والطائرات ـ نعم ، لقد ازداد عدد الحجاج زيادة بالغة وأصبح عدد الوافدين فى كل موسم يزيد عن سابقه · وبدأت أروقة المسجد الحرام ورحابه تضيق بهم خاصة وقت الصلاة وفى أيام الجمع والمواسم بالذات حيث كان معظم الحجاج يضطر إلى أداء الفريضة فى الطرقات والأزقة المحيطة بالحرم وكان الحجاج يشعرون بالضيق وكان أهل مكة وسكانها يشعرون به أيضاً ، وطالما ارتفعت الأكف بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى أن يهيىء للبيت من يقوم بتوسيع رقعته وتجديد عمارته ·

وكانت البشرى بالاستجابة والبدء فى توسعة الحرم عندما أعلن إنهاء العمل الأساسى فى توسعة المسجد النبوى التى كان العمل يجرى فيها منذ عام ١٣٧٠ هجرية ·· ففى تلك المناسبة استمع الناس إلى المذياع يعلن إصدار جلالة الملك خادم الحرمين مرسوماً ملكياً بأن تنقل جميع الآلات والمعدات التى استخدمت فى مشروع المسجد النبوى إلى مكة المكرمة للشروع فوراً فى توسعة المسجد الحرام ·

وفى الرابع من ربيع الثانى عام ١٣٧٥ هجرية بدأت الأعمال الأولية لوضع الحجر الأساسى وبدأت أعمال هدم البيوت والمساكن والمحلات اللازمة فى المرحلة الأولى للتوسعة ·· ثم نقلت الأنقاض إلى خارج منطقة مكة

وشهد يوم الخميس ٢٣ شعبان من نفس العام احتفالاً كبيراً ضخماً أُقيم أَمام الباب الرئيسى للحرم الشريف لوضع الحجر الأَساسى فى توسعة المسجد الحرام ـ حضره جلالة الملك والأمراءُ وكبار أَعيان المملكة ووجهائها وكثير من مندوبى الدول الإسلامية ٠

وقام جلالة الملك خادم الحرمين بوضع الحجر الأَساسى ، وكان هذا إيذاناً بابتداء مراحل البناء وشرع على الفور فى صب قواعد الأَسمنت والخرسانة المسلحة التى أُقيم عليها جدران التوسعة ٠

ولم ينقض شهر ذى القعدة من نفس العام حتى تم تحويل القسم الأَكبر من الطريق القديم إلى شارع جديد ٠٠

وبذلك انقطع المرور من المسعى وبذلك أَمكن للحجاج لأَول مرة منذ مئات السنين السعى بين الصفا والمروة وهم فى اطمئنان وخشوع لا يزعجهم مرور السيارات والعربات كما كان يحدث بالماضى ٠

والمسعى حاليًا يتكون من طابقين وطوله ٤٢٠ متراً والطابق الأَول يتكون من قسمين أحدهما للذاهبين والثاني للآئبين يتوسطهما طريق خاص ينقسم بدوره إلى قسمين للذاهبين والآئبين

من المرضى والمسنين الذين يضطرون إلى ركوب عجلات خاصة يدفعها الصبيان ٠

ويبلغ ارتفاع المسعى ١٢ متراً وله ثمانية أبواب ٠٠ وبين الصفا والمروة والمسجد الحرام أبواب ونوافذ لا تحجب الكعبة المشرفة عن الساعين ٠٠

وكان فى مقدمة ما عنى به المسئولون عن تنفيذ مشروع التوسعة والإصلاح تجنيب المسجد اندفاعات السيول الجارفة وانحداراتها بفعل الأمطار من أعلى جبال مكة إلى ساحة المسجد كما كان يحدث بالماضى عندما كانت الكعبة تغرق فى ميـاه السيول ٠

ولهذا عملوا على تحويل مجرى السيول إلى مجار خاصة تبدأ من تحت الرصيف فى الجانب الجنوبى ٠

وبينما العمل كان جارياً فى توسعة المسجد الحرام وتجديد عمارته اتضح أن فى بناية الكعبة المعظمة خللا فى السقف وتصدعاً فى بعض الجدران ٠٠ وقد صدر الأمر الملكى الكريم على الفور بتشكيل لجنة من العلماء والفنيين للكشف عن موضع الخلل واقتراح ما تراه واجبًا لإصلاحه ٠

وبعد أن قامت اللجنة بالدراسة والفحص تقدمت بتقرير

شامل إلى جلالة الملك خادم الحرمين الذى أمر على الفور بالبدءِ فى أعمال الترميم ٠

وفى صباح الجمعة ١٨ رجب سنة ١٣٧٧ هجرية وفى احتفال برآسة حضرة صاحب السمو الملكى ولى العهد بدأ العمل فى إصلاح الكعبة وترميم ما كان بها من خلل ، واستمر العمل حتى تم تجديد سقف الكعبة المشرفة وترميم جدرانها على أحسن ما يكون وأفضل ما يرجو المسلمون لهذا البيت المعظم الذى هو قبلتهم فى صلواتهم ويسعى إليه كل عام من استطاع إلى الحج سبيلاً ٠

وفى يوم السبت ١١ شعبان عام ١٣٧٧ هجرية وضع جلالة الملك المعظم خادم الحرمين آخر حجر فى الكسوة الرخامية التى على جدار الكعبة من الداخل فى احتفال كبير ٠ وكان هذا إيذاناً بانتهاءِ العمل فى العمارة المباركة ٠

ويبلغ ارتفاع الكعبة الآن ١٥ مترا ومسطحها ١٢ × ١٠,١ م ٠ وبابها يرتفع عن الأرض بمقدار مترين والصعود إليه بسلم خشبى متحرك مغطى بصفائح الفضة ٠٠ وباب الكعبة لا يفتح فى السنة أكثر من ١٥ مرة ، وهى من الداخل تقوم على ثلاثة أعمدة ضخمة ٠٠ وفى الناحية الشمالية يقع باب

التوبة الذى يتم منه الصعود إلى سطح الكعبة ويغطى سقف الكعبة من الداخل وجانبا من جدرانها ستائر من الحرير الأحمر عليها مربعات مكتوب فيها ؛

. (الله جل جلاله) .. وفى الناحية المقابلة لباب الدخول محراب وبقية الجدران مغطاة بالرخام المجزع ... وبالكعبة صندوق ضخم تحفظ فيه بعض متعلقاتها .. وقد تدلت من السقف قناديل ضخمة من الذهب وقد رصعت بالجواهر واللآلىء

وتبلغ مساحة المسجد الحرام الآن ١٠٤٣٦ مترا .

وتبلغ مساحة المسعى الآن ١٠١٧٢ مترا .

وتبلغ مساحة المسجد الحرام الدور الأول من الأروقة والمسعى ٧٠٦٠٨ .

وتبلغ مساحة الدور الثانى بما فيه المسعى ٦٠٥٦٠ .

وتبلغ مساحة البدرومات التى تحت الأروقة ٢٩٠٠٠ متر .

وتبلغ مساحة المسجد بطاقميه وبدروماته ١٦٠١٦٨ متراً .

وهى مساحة تتسع لأكثر من ثلاثمائة ألف من المصلين فى وقت واحد يؤدون صلاتهم فى سعة واطمئنان .. مع قدرتهم على مشاهدة الكعبة المعظمة مهما بعد مكانهم عنها .

وللمسجد ٢٣ بابا ثمانية فى الشمال هى .

باب الدريبة وباب المحكمة وباب الزيادة وباب القطبى وباب الباسطية وباب الزمامية وباب عمرو بن العاص وباب سعود وهو باب رئيسى .

ومن الجهة الجنوبية سبعة أبواب هى :

باب أُم هانى وباب العجلة وباب الرحمة وباب أَجياد وباب الصفا وباب مخزوم وباب بازان .

ومن الجهة الشرقية أَربعة أَبواب هى :

باب على وباب العباس وباب النبى صلى الله عليه وسلم وباب السلام وهو باب رئيسى وأول باب يدخل الحجاج منه إلى الحرم عند طوّاف القدوم .

ومن الجهة الغربية ثلاثة أبواب هى .

باب إبراهيم وباب الجزورة «١» وباب العمرة وهو باب رئيسى .

وترتفع فى المسجد سبع منائر هى.

منارة باب العمرة ومنارة باب السلام ومنارة باب على ومنارة الجزورة ومنارة باب الزيادة ومنارة الصفا ومنارة باب سعود .

وقد جعل جانب من واجهة القسم الغربى سبيلاً لسُقيا

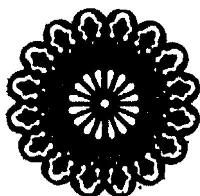
---

(١) الحزورة سوق مكة ومخلت فى المسجد عند الزيادة وتصحف هذا الاسم الى كزورة وُجزورة وجزوزة (شفاء ج ١ ص ٢٣٦) .

الحجاج من ماءِ زمزم الذى يصله من البئر بواسطة المواسير ٠ كما جعل جانب من واجهة الجنوب سبيلاً على نفس النحو لنفس الغرض وذلك لتخفيف ضغط الحجاج على زمزم رغم أنها قد اتسعت وأُعدت وفق أحدث طراز معمارى وهيئت لاستقبال أكبر عدد ممكن من الناس ٠

وهكذا استطاعت الأسرة السعودية الحاكمة أن توفر للملايين الذين يحجون بيت الله الحرام سعة من الأرض الطيبة المباركة بحيث يقضون مناسك حجهم ويتحركون فى بحبوحة وراحة من الطواف والمسعى ٠ كما استطاعت أن تجعل مكة البلد الآمن ٠٠ أم القرى صاحبة الشخصية التاريخية الدينية الفذة والنور المتألق بوهج القداسة وسنا الأصالة والعراقة ٠٠

استطاعت أن تجعلها تجمع إلى جوار كل ما تقدم تطوراً عصريًا متزن الخطوات وتحضراً يحكمه العقل وتسيطر عليه الحكمة ٠



كسوة الكعبة

كان أول من كسا الكعبة إسماعيل عليه السلام ومن بعده بعض أولاده .. ثم جاء تُبَّع الثالث نائمًا مستغفراً وقد كساها كسوة كاملة من "الوصائل"(١) وقد قال تُبَّعٌ فى ذلك شعراً هو :

وكسونا البيت الذى حرّم الله ملاءً منضّداً وبرودا
وأقمنا به من الشهور عشراً وجعلنا لبابه إقليداً
وخرجنا منه نؤم سهيلاً وقد رفعنا لواءنا المعقودا

وبعد تُبَّعٍ كساها الكثيرون فى الجاهلية ، فقد كان العرب يهتمون بكسوة الكعبة ويرون فى ذلك واجباً من الواجبات الدينية .. وكان مباحًا لكل من يريد أن يكسو الكعبة أن يفعل متى شاء ومن أى نوع شاء .

وكانت الكسوة تصنع من الخَصَف"(١)" والوصائل والأنطاع والكرار والديباج والخزّ والنمارق العراقية والحِبَر

(١) « الوصائل » هى ثياب مخططة يمانية ــ والخصف : جلال ــ والانطاع هى البسط ــ والكرار : وهو الكساء . ا هــ .

اليَمانية والأنماط ، وكلها أنواع من النسيج كانت معروفة فى الجاهلية ·

وكانت الكسوة توضع على الكعبة بعضها فوق بعض فإذا ثقلت أو بَلِيَتْ أُزيلت عنها وقُسمت أو دفنت ·

عن ابن أبى مُليكة انه قال : (بلغنى أن الكعبة كانت تُكْسَى فى الجاهلية كُساً شتى ·· كانت البَدَنَةَ تُجَلَّلُ الحَبَرَةَ والبُرودَ والأكسيةَ وغير ذلك من عمل اليمن ـ كانت تُهدى إلى الكعبة فُيَعلَّق بعضها على الكعبة ويحفظ الباقى فى خزانتها فإذا بَلِي منها شىءٌ أُخلف عليها مكانَه ثوب آخر ، ولا ينزع مما عليها شىءٌ من ذلك»(١) · وكان يهدى إليها بخورٌ وَمَجامِرُ لتُطَيَّبَ به فى داخلها وخارجها ·

والمعروف أيضًا أن قريشا كانت ترافد فى كسوة الكعبة أى تتعاون والقبائل على ذلك بقدر طاقتها من عهد قُصَىٍّ إلى أن نشأ أبو ربيعةَ بنُ المغيرة بن عبدالله بن عمرو المخزومىّ الذى كان يختلف إلى اليمن للتجارة ، فأصاب ثراءً واسعا فقال لقريش :

ـ أنا أكسو وحدى الكعبة سنة ·· وجميعُ قريش سنة ·

فوافقت قريش على ذلك وظل يفعل حتى مات ·· وكان يأتى

---

(١) « ·· ولا ينزع مما عليها شىء ·· » حتى خيف عليها من تراكم الاكسية ا هـ · وشيبة بن عثمان أول من جردها بأمر معاوية · ا هـ ·

بالحَبَرة الجديدة من (الجَنَد ــ وهى بلد بأرض اليمن) فيكسو الكعبة بها ، فسمته قريش (العَدْل) لأنه عدل فعله بفعل قريش كلها ·· ويقال لولده (بنو العَدْل) ·

وقيل : إن خالد بن جعفر أصاب لَطيمةً«١» فى الجاهلية فيها نَمَطٌ من ديباج ، فأرسل به إلى الكعبة فوضع عليها ·

قال الحافظ : فكان هذا الرجل أول من كسا الكعبة الديباج ·· وقال الدار قطنى : إن أول من كسا الكعبة الديباج نُتَيْلةُ بنت حَيَّانَ والدة العباس بن عبدالمطلب ــ وكانت قد أضاعت العباس صغيراً ، فنذرت إن وجدته أن تكسو الكعبة الديباج ·

وكانت الكعبة فى الإسلام تكسى يوم عاشوراءَ إذا ذهب آخر الحجاج وفعل ذلك بنو هاشم ، فكانوا يعلِّقون عليها القُمُصَ يومَ التروية ــ والديباج ، فإذا كان يوم عاشوراءَ علقوا عليها الإزار ·

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس يوم عاشوراءَ فقال :

(·· هذا يوم عاشوراءَ يوم تَنْقضى السنة وتُسْتَرُ الكعبة) ·

وقد كساها رسول الله صلى الله عليه وسلم الثيابَ اليمانية

---

(١) « لطيمة » اللطيمة : وعاء ــ والنمط : ضرب من البسط · ا هـ ·

ثم كساها عمر وعثمان القباطى ثم كساها الحجاج الديباج ،
وكان الأغنياء والأمراء والملوك والعظماء فى كل مكان يرسلون إليها
الكساوى المختلفة فتحفظ بداخلها إلى أن يَبْلىٰ ما عليها فيرفع
ويوضع الجديد ٠

وقيل : إنها كانت تكسى كلّ سنة كسوتين ٠٠ ثم أصبحت
تكسى ثلاث مرات كل سنة ٠٠ وأفضل ما كانت تكسى به القَباطِى
وهو جمع قُبْطِيَّةٍ — وهى ثوب من ثياب مصر رفيعة الصنع دقيقة
الخيوط — وأما الوصائل فثيابٌ حُمر مخطَّطة تصنع باليمن ٠٠
وأما الحِبرَاتُ فهى ما كان من البُرود مخططاً وتصنع باليمن
أيَضاً — وأَما الأنماط فهى نوع من البُسُط الجيِّدة — وأما الديباج
فهو الحرير ٠

وكسيت الكعبة أيام الفاطميين بالديباج الأبيض ثم الأصفر
ثم الأخضر ثم الأسود —وقد استمر اللون الأسود إلى يومنا هذا ٠

وكانت مصر ترسل فى كل عام الكسوة السوداءَ الخارجية
للكعبة وكسوة أُخرى حمراءَ لداخلها — كما كانت ترسل كسوة
خضراءَ للحجرة الشريفة النبوية ٠

وكانت للكعبة وقفية بمصر من عهد عمر بن الخطاب ينفق
منها على كسوتها ٠٠ ثم تعهدت الحكومة بصنع الكسوة من مالها
العام ٠٠ وكان لخروج الكسوة فى مصر احتفال رائع كل سنة

يحرص كل مسلم على مشاهدته ·

وتصنع الكسوة الآن بمصنع خاص لها بالسعودية ، ويتم صنعها من الحرير الأسود السميك المبطّن بالقطن الأبيض ، ولها حزام مطرّز بالفضة والذهب مكتوب عليه بعض الآيات الكريمة ولبابها كسوة خاصة على شكل شارة كتبت عليها أيضًا بعض الآيات الكريمة ·

ستارة باب الكعبة وما كتب عليها :

كتب فى السطر الأول بأعلى الستارة :

بسم الله الرحمن الرحيم

" قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا » ٢ : ١٤٤ (صدق الله العظيم)

ثم كتب فى السطر الذى يليه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« رَبِّ أَدْخِلْنى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنى مُخْرَجَ صِدْقٍ واجعلْ لِى مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ١٧ : ٨٠ » ·

(صدق الله العظيم)

ثم كتب فى السطر الذى يليه :

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين » ·
٣ : ١٣٩ (صدق الله العظيم)

ثم كتب فيما يلى ذلك :

بسم الله الرحمن الرحيم

« اللهُ لا إلَهَ إلَّا هوَ الحَىُّ القَيومُ لا تَأخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ له ما فى السموات ومَا فى الأَرْضِ ، من ذَا الذى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلَّا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىءٍ من علمه إلَّا بما شاءَ وسع كرسيه السمواتِ والأَرْضَ ولَا يؤُودُهُ حفظهما وهو العلى العظيم ٢ : ٢٥٥ » .

(صدق الله العظيم)

ثم كتب :

بسم الله الرحمن الرحيم

« لقد صدق الله رسولَهُ الرؤيا بالحق لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إن شاءَ الله آمنين ٤٨ : ٢٧ » .

(صدق الله العظيم)

ثم كتب :

بسم الله الرحمن الرحيم

« قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ١١٢ : ١ ــ ٤ »

(صدق الله العظيم)

ثم كتب :

بسم الله الرحمن الرحيم

وقل جَاءَ الحَق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً * وننزلُ من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خَسَاراً ١٧ : ٨١ ، ٨٢ » .

(صدق الله العظيم)

ثم كتب :

بسم الله الرحمن الرحيم

« لإيلاف قريش إيلافهم رحلةَ الشتاءِ والصيف فليعبدوا ربَّ هذا البيتِ الذى أطعمَهُم من جوع وآمنَهم من خوفٍ » .
١٠٦ : ١ ـــ ٤ (صدق الله العظيم)

ثم كتب على جانب الستارة :

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إلَه إلا الله الملك الحق المبين * محمد رسول الله صادق الوعد اليقين

ثم كتب حول ما تقدم :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله رب العالمين الرحمٰن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ١ : ١ ـــ ٧ » .

(صدق الله العظيم)

ثم كتب بين آيات الفاتحة فى دوائر صغيرة :

(الله ربى) ..

وكل هذه الآيات قد كتبت بأسلاك الفضة والقصب الفضى المموه بالذهب بغاية الدقة والإتقان .

حزام الكعبة

يرتفع حزام الكعبة عن الأرض ما يقرب من عشرين ذراعاً .. وعرضه ذراعان إلا قليلاً .. قد طرزت عليه بعض الآيات الشريفة بأسلاك الفضة والذهب .. وقد كتب على الركنين اليمانيين :

بسم الله الرحمن الرحيم

«جَعَل اللهُ الكعبةَ البيتَ الحرامَ * قياماً للناسِ * والشهرَ الحرامَ والهَدْىَ والقلائدَ * ذلك لِتعلموا أَن اللهَ يعلمُ ما فى السمواتِ وما فى الأَرضِ * وأَن اللهَ بِكل شىءٍ عليمٌ ٥ : ٩٧ » .

(صدق الله العظيم)

وكتب بين الركن اليمانى والغربى :

بسم الله الرحمن الرحيم

« وإِذا يرفعُ إِبراهيمُ القواعدَ من البيتِ وإِسماعيل * ربّنا تقبلْ منا إِنك أَنتَ السميعُ العليمُ * ربّنا واجعلنا مُسلِمَيْن لك ومن ذريتِنا أُمةً مسلمةً لك وأَرِنا مناسكَنا وتُب علينا * إنك أَنت

التوابُ الرحيمُ ٢ : ١٢٧ ، ١٢٨ » .

(صَدق الله العظيم)

وكتب على الحزام أَيضاً :

بسم الله الرحمن الرحيم

« وأذِّنْ فى الناسِ بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأْتين من كلِّ فج عميق ٢٢ : ٢٧ » .

(صدق الله العظيم)

وكتب عليه أَيضاً :

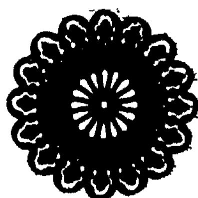
بسم الله الرحمن الرحيم

« ولله على الناس حج البيت من استطاع إِليه سبيلاً » .
٣ : ٩٧ (صدق الله العظيم)

وعندما يتم صنع الكسوة بالمصنع السعودى الواقع فى مدخل مكة تسلم إِلى آل الشَّيْبِيِّ سدنةِ الكعبة وخدَّامِهَا ـ تسلم مع توابعها ومعها الطيبُ والبخورُ فتحفظ عندهم إِلى صباح يومِ النحر .. والحجاجُ فى منى حيث تُجَرَّدُ الكعبة من ثيابها وتُغسل وتُطيَّبُ . ثم تُسْدَلُ عليها الكسوة الجديدة .

وعادة يشترك فى غسيل الكعبة كافة الملوك والأُمـراءِ ، والعظماءِ الذين يحضرون موسم الحج ويكون ، معهم دائماً جلالة خادم الحرمين ..

فيدخلون جميعًا إلى الكعبة حيث يوزّع عليهم سدنتها المكانس .. ويوزّع شيخ الزمازمة سطولَ المياه .. ويتنافس الجميع في نقل المياه من زمزم إلى داخل الكعبة .. ثم يأخذون في غسيلها ، ثم يجففون الأرض والجدران بقطعِ الأسفنج .. ثم يطيّبونها بعطر الورد والعنبر والعود والنّدّ .. وبعد الغسيل والتطيب تُسدل عليها ثيابها الجديدة .. ويعود الحجاج من مِنىً فيرونَها وقد اغتسلت وتطيّبتْ وأَخذت زينتَها وابتهجت فترتفع أَصواتُهم في ابتهالاتٍ حارة (الله أكبر .. الله أكبر .. لا إله إلا الله) .



سدنة الكعبة

كان أول من قام بخدمة الكعبة الخليل إبراهيم عليه السلام .. ومنه آلت خدمة الكعبة إلى ولده إسماعيل عليه السلام .. وبعد وفاة إسماعيل صارت لأولاده إلى أن اغتصبها منهم أخوالهم جُرْهُمٌ .. ومكثت السدانة فى جُرْهُمٍ عدة قرون إلى أن استولت عليها خُزاعة عَنْوَةً .. ومكثت السدانة فى خُزاعةَ عدة قرون أخرى ثم آل أمر مكة والكعبة المعظمة إلى قُصَىٍّ القرشى ـ وهو الجد الخامس للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ـ وقد استرجعها قُصَىٌّ من خزاعةَ بعد حرب مريرة دامية .

ثم أسلم قُصَىٌّ أمور السدانة إلى ولده الأكبر عبد الدار ، فظلت كذلك جاهلية وإسلامًا إلى أن استقر بها المطاف عند شَيْبَةَ ابنِ عثمانَ بنِ طلحةَ بنِ أبى طَلْحَةَ .. ولا يزال أولاده يتوارثونها كابراً عن كابر حتى عصرنا هذا .

وكان شيبة هذا قد خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين مشركاً يريد أن يغتال الرسول الكريم .. فرآه مقبلاً ، فقال رسول الله صلوات الله عليه وأزكى سلام : (يا شَيْبَةُ هَلُمَّ لا أُمَّ لك) .

فقذف الله فى قلب شَيْبَةَ الرُّعْبَ ودنا من الرسول الكريم فوضع يده الكريمة على صدره وقال صلى الله عليه وسلم : (إِخْسَأْ عنك الشيطانَ) فخرج الرُّعْبُ من قلبه وحَلَّ محلَّه الإِيمان فأسلم «١» وقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ممن صبر معه يومئذ ·· وصار من خيار المسلمين ·

ويظهر من سياق التاريخ أَن القاعدة التى صار عليها آل عبد الدار أَن يكون مفتاح الكعبة بيد أَكبر العائلة سِنًّا ·· وأَن يكون من يحمل مفتاح الكعبة هو كبيرَ السَّدَنةِ ·

والسِّدانة تشمل الحِجابةَ ·· أَى حجابة باب الكعبة وحمل المفتاح ·· والسِّقاية وهى سقاية الحجاج فى موسم الحج ·· والرِّفادة وهى إطعامهم ·· والقيادة وهى قيادة الناس فى مشاعر الحج

أما حجابة باب الكعبة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ كما سبق أَن ذكرنا ــ قال لعثمان بن طلحة بن أَبى طلحة :

(خذوها يا بَنِي أَبى طلحة بأَمانة الله سبحانه ·· واعملوا فيها بالمعروف خالدة تالدةً ·· لا ينزعها من أَيديكم إِلا ظالم) ·

---

(١) « ·· فأسلم ·· » وقيل : أسلم يوم الفتح ١٠ هـ

أَما الرفادة والسقاية والقيادة فلم تزل لعبد مناف بن قُصيٍّ فيقوم بها هو وأَولاده حتى تِوفى ·· فوَلِىَ بعده عمرو بن عبد مناف السقاية والرفادة وَوِلِىَ عبد شمس القيادةَ ·

وكان عمرو بن عبد مناف يُطعم الناس فى كل موسم بما تجمع عنده من ترافد قريش ·· إذ كان يأْخذ من كل نبيحة تُذبح فَخذَها ويشترى الدقيق من ماله الخاص ثم يُولم الولائمَ ويُطعم الحجاج ·· فلم يزل كذلك أَمره حتى أَصاب الناس فى إحدى السنين جَدْبٌ شديد ·· فخرج إلى الشام واشترى بما كان لديه من المال دقيقاً وكَعْكًا وأخذ طريق مكة يريد العودة فتعثرت الإِبل التى كانت تحمل الكعكَ وسقطت بعضها فوق بعض فتَهَشَّم الكَعْكُ ·· فلما وصل الكعبة جعل الكعك المتهشِّم ثريداً وأَطعم الناس حتى أَشبعهم ومن ذلك اليوم سمى (هاشماً) وقد ظل هذا اسمَه حتى مات ·

وكان عبد المطلب يطعم الناس رفادة ·· فلما توفى قام بذلك أَبو طالب فى كل موسم من مواسم الحج ·· ثم جاءَ الإِسلام فصار النبى صلى الله عليه وسلم يطعم الناس على هذا النحو ·· ولا تزال هذه العادة متبعة عند بعض الأُمراءِ والحكام العرب إلى يومنا هذا ·

وأما السقاية فقد كانت فى يد عبد منافِ كذلك ·· وكان يحضر الماءَ من بئر (كُرِّ آدَمَ) «١» وبئر (خُمٍّ) «٢» ثم يسكب هذا الماءَ فى حياض بفناءِ الكعبة ليشرب منه الحاج ·· وذلك لأن بئر زمزم كانت فى ذلك الوقت مطموسة ومكانها غير معروف فلما آل الأمر إلى هاشم بن عبد مناف حفر بئر (بَذَّرَ) «٣» ثم بئر (سَجْلَةَ) «٤» وظل يسقى الناس حتى مات فقام بأمر السقاية من بعده عبد المطلب بن هاشم ·· فلم يزل الأمر كذلك حتى أعاد حفر زمزم وتطهيرها فكانت بركةً عليه وعلى الحجاج جميعًا ·· ولا تزال كذلك ··

وكان لعبد المطلب إبل كثيرة فكان إذا حل الموسم جمع لبنها يوميًا وأضاف إليه العسل وسكب الخليط فى حياض الكعبة ليشرب

---

(١) « كر آدم » الكر ــ بالضم والفتح ــ هو القليب ، وهذه البئر تسمى · بئر آدم ، بين المعلاة ومنى · ا هــ ·

(٢) « خم » خم ، ورم : بئران ، حفرهما عبدشمس بن عبدمناف ، وهما بمكة ، وقال الشعراء :

حفرت خما وحفرت رمـــا   حتى ترى المجد لنا قد تمـــا

وقيل · خم ، حفرها مرة بن كعب بن لؤى ، وهذه البئر غير خم التى بين مكة والمدينة · ا هــ ·

(٣) « بذر » بئر بمكة لبنى عبدالدار ــ وذكر : ان هاشم بن عبد مناف ، هو الذى حفرها ، وهى عند خطم جبل الخندمة على فم شعب ابى طالب · ا هــ ·

(٤) « سجلة » بئر حفرها هاشم ، فوهبها أسد بن هاشم لعدى بن نوفل ، وقيل : حفرها قصى · ا هــ ·

الحجيج ·· ولما توفى عبد المطلب تولى أمر السقاية بعده العباس ابن عبد المطلب فلم تزل فى يده حتى جاءَ الإسلام ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح فقبض الحجابة من عثمان والسقاية من العباس ·· فقال العباس :

– يا رسول الله بأبى أنت وأمى ·· اجمع لنا الحجابة والسقاية ··

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أعطيكم ما تُرْزَءُون فيه ولا تُرْزَءُون به) · فقام صلى الله عليه وسلم بين عضادتى باب الكعبة فقال :

(ألا إنّ كل دم أو مال أو مأثرة كانت فى الجاهلية ·· فهى تحت قدمىّ هاتين إلا سقايةَ الحجاج وسدانةَ الكعبة ·· فإنى قد أمضيتها لأهلها على ما كانتا عليه فى الجاهلية) ·

وأما القيادة فقد وليها من بنى عبد مناف عبد شمس ثم وليها من بعده ولده أُمَيَّة ، ومن بعده ولده حَرْبٌ الذى قاد الناس يوم عكاظ فى حرب قريش وقيس عَيْلانَ ، وفى الفِجَارَيْن الفِجَارِ الأول ،

والفِجَارِ الثانى «١» .. ثم جاءَ من بعده أَبو سفيان بنُ أُميةَ فقاد بعد أَبيه حتى كان يوم بدر فقاد الناس عُتبة بن ربيعة ثم عاد أَبو سفيان فقاد الناس يوم الأَحزاب ، وكانت آخر واقعة .. ثم جاءَ الله بالإِسلام وفتح محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم مكة .

وتعتبر حجابة الكعبة من أَول وأَهم أَعمال السدانة .. أو هى أكبر الوظائف السدانية عامة ، وأصحابها هم الذين يشرفون على فُتح باب الكعبة المعظمة ودخول الناس إليها .

ودخول الكعبة المعظمة من فضائل الأَعمال والسنن المستحبة .. فقد دخلها الرسول صلى الله عليه وسلم .. وكان الملوك والأُمراءُ والعظماءُ وكبار القادة فى الرأى والفكر والعلم — كانوا ولا يزالون يتهافتون على دخول الكعبة والصلاة فيها ويعتبرون ذلك شرفاً ما بعده شرف .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من دخل البيت وصلى فيه دخل فى حسنة وخرج من سيئة مغفوراً له) .

---

(١) « والفجار الثانى » سميت بالفجار لأنها كانت فى الأشهر الحرم ، فقالوا : قد فجرنا — وفى مجمع الأمثال (ج ١ ص ٢٦) . ايام الفجار اربعة افجرة . الاول بين كنانة وهوازن ، والثانى بين قريش وكنانة ، والثالث بين كنانة وبنى نصر بن معاوية ، والرابع — وهو الاكبر — بين قريش وهوازن — وبينه وبين مبعث الرسول ست وعشرون سنة ، وشهده الرسول وله اربع عشرة سنة ١٠ هـ .

وروى الفاكهى عن الحسن أنه قال :

ـ الصلاة فى الكعبة تعدل مائة ألف صلاة

وروى الفاسى عن الحسن البصرى فى رسالته المشهورة قال :

ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من دخل الكعبة دخل فى رحمة الله عز وجل وفى حِمَى الله تعالى وفى أمن الله عز وجل ومن خرج خرج مغفوراً له) .

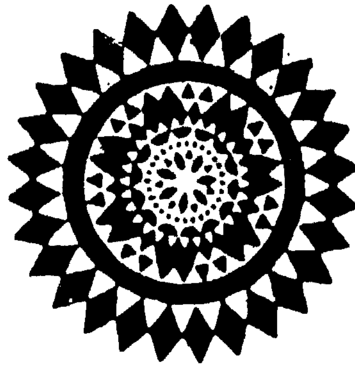
وقال الفاسى :

ـ اتفق الأئمة الأربعة على استحباب دخول البيت . واستحسن مالك كثرة الدخول .

وقد روى النسائى فى سننه عن أسامة بن زيد أنه دخل مع النبى صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة فمضى الرسول الكريم حتى إذا كان بين الأسطوانتين اللتين تَلِيَانِ باب الكعبة جلس فحمد الله وأثنى عليه واستغفره ثم قام حتى أتى ما استقبل من دبر البيت فوضع وجهه وخده عليه فحمد الله وشكره وسأله واستغفره ثم انصرف إلى كل ركن من أركان الكعبة فاستقبله بالتكبير والتهليل والثناءِ على الله والمسألة والاستغفار ثم خرج «١» .

(١) « ثم خرج » كان ذلك فى فتح مكة ، وكان مع اسامة بلال ، وعثمان بن طلحة ـ ولا احد معهم ، واغلقوا الباب ، ومَكَثُوا حينا ، وصلى رسول الله فى داخل الكعبة ـ كما فى كتب السنة . ا هـ .

ويلى سدنة الكعبة طبقة من الخدم ـ العبيد والآغوات ـ وهؤلاءِ قد أُعتقوا وعاشوا لخدمة الكعبة وتنظيف البيت ولهم مرتبات شهرية ولهم رتب وظيفية وعليهم حفظ مفاتيح الغرف التى تحتوى أدوات التنظيف والأدوات الصحية وغيرها ·· ومهمة هؤلاءِ ·· هى كنس مدار المطاف وحِجْر إسماعيل وتنظيم صفوف المصلين وملاحظة تصرفات الوافدين على الحرم من الأطفال والصبيان وغيرهم ·



التصرف في أموال الكعبة وكنوزها

تعرضت الكعبة وما فيها من كنوز وأموال وما عليها من كسوة وحلى عبر القرون والعصور للكثير من حوادث السرقة والنهب .. كما تعرضت للكثير من التصرفات الأخرى .. وقد تحدثنا في فصول سابقة عن بعض هذه السرقات .. وسوف نتحدث هنا عن التصرفات الأخرى السليمة منها وغير السليمة :

روى الأزرقى في كتابه (أخبار مكة) أن النبى صلى الله عليه وسلم وجد في الجُبّ «١» الذى بالكعبة سبعين أوقية من ذهب مما كان يهدى إليها وأن علياً كرم الله وجهه قال (يا رسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك) فلم يحركه الرسول الكريم .

وروى عن الحسين بن على أن عمر رضى الله عنه قال لعلى كرم الله وجهه : (لقد هممت أن أقسم هذا المال) فقال له على (إن استطعت ذلك) فقال عمر (ومالى لا أستطيع ذلك ؟ أو لا تعيننى على ذلك ؟) فقال على : (إن استطعت ذلك) فرددها عمر ثلاثاً ، فقال على كرم الله وجهه : (ليس ذلك إليك) فقال عمر (صدقت) .

---

(١) « في الجب » هو البئر التى كانت بالكعبة ، يطرح فيها ما يهدى لها . هـ

وقال الحافظ بن حجر : إن الفاكهى روى عن طريق علقمة ابن أبى علقمة ــ أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت (دخل علىّ شَيبةُ الحَجَبىّ فقال ــ يا أُم المؤمنين إن ثياب الكعبة تجتمع عندنا فتكثر فننزعها ونحفر آبارًا نُعَمِّقُهاَ وندفنها لكيلا تلبسها الحائض والجنب ــ قالت (بئسما صنعت ولكن بعْهَا فاجعل ثمنها فى سبيل الله وفى المساكين فإنها إذا نزعت عنها لم يضر من لبسها من حائض أو جنب) . فكان شيبة يبعث بها إلى اليمن فتباع له فيضعها حيث أمرته .

وروى نجم الدين بن فهد القرشى فى (إتحاف الورى) عند تعرضه لذكر حوادث عام ٢٠٠ هجرية أن الحسين بن الحسن الأفطس أخذ ما فى خزانة الكعبة وكان مالاً عظيماً وقال (ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعًا لا ينتفع به .. نحن أحق به نستعين به) ثم قسمه على نفسه وأصحابه وقسم الكسوة أيضاً .

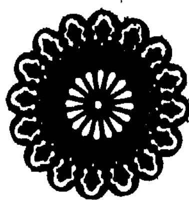
وذكر ابن فهد فى حوادث سنة ٢٦٦ هجرية : أنه فى يوم التروية قدم محمد بن أبى السَّاج مكة فحاربه المخزومى ولكن محمداً هزمه واستباح ماله ثم وثب أصحابه على كسوة الكعبة وانتهبوها .

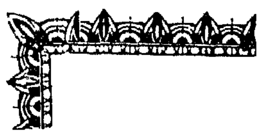
كذلك فقد ذكر ابن فهد : أن أمير مكة أبو هاشم محمد بن جعفر المعروف بابن أبى هاشم الحَسَنىّ أخذ قناديل الكعبة

وستورها والصفائح التى كانت تغطِّى الباب سنة ٤٦٢ هجرية .

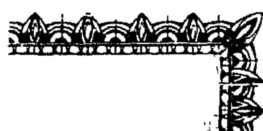
وذكر التّقىُّ الفَاسِىّ فى كتابه (شفاءُ الغرام فى حوادث ٤٠٢ هجرية) : أن الوزير أبا القاسم المغربى لما قتل الحاكم آباه هرب إلى آل الجرَّاح واستجار بهم فبعث إليهم الحاكم من حاربهم فكان النصر لآل الجرّاح ـ فحسّن لهم الوزير المغربى عزل الحاكم ومبايعة أبى الفتوح بمكة وحسّن له طلب الخلافة ـ فاعتذر له بقلة المال فنصحه بأخذ مال الكعبة . ولم يزل به حتى أخذ مال الكعبة وأموالاً أُخرى لتجار من جُدة .

ويذكر التاريخ عدا ذلك الكثير من الحوادث التى تعرضت فيها الكعبة بأموالها وكنوزها للسرقة والنهب ومختلف ألوان الاعتداءِ .. ولكننا نكتفى بما تقدم لأهميته وإجماع المصادر والمراجع كلها على صحته .





حجة الوداع



لاينبغى لنا أن نفرغ من هذه الدراسة قبل أن نستعرض حجة الوداع التى قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم ·· وأن نعيش معه تلك الأيام العشرة الأوائل من شهر ذى الحجة التى فضلها الله سبحانه وتعالى فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

«والفجرِ * وليالٍ عشْر * والشّفْع والوتْرِ * والليْل إذا يسْر * هلْ فى ذلكَ قسمٌ لذى حِجْر ٨٩: ١ـ٥)

(صدق الله العظيم)

والتى أنزل فيها عز وجل الآيات البينات ··

بسم الله الرحمن الرحيم

« اليوم يَئِسَ الذين كفروا من دينكم * فلا تَخْشَوْهم واخْشَونِ * اليومَ أكملتُ لكم دينَكم * وأتممتُ عليكم نِعمتى * ورضيتُ لكمُ الإسلامَ دينا ٥: ٣ » · (صدق الله العظيم)

والتى قال عنها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :

«ما من أيام العملُ الصالحُ فيها أحبُّ إلى الله من هذه الأيام » ·

ويقول عليه أزكى السلام عن أحدها وهو يوم عرفة :

« ما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة ، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماءِ الدنيا فيُبَاهى بأَهلِ الأرض أَهْلَ السماءِ فيقول :

انظروا إلى عبادى شُعْثاً غُبْراً ضَاحِيْنَ جاءَوا من كل فجٍّ عميق يرجون رحمتى ولم يرونى ويتعوّذون من عذابى ولم يروه أُشهدكم ياملائكتى أَنى قد غفرت لهم » .

هذه الأيام العشرةالحافلة بالذكريات الخالدة العزيزة على كل نفس .. والتى يلتقى فيها الحجاج بربهم فى بيته وينزلون ضيوفًا عليه سبحانه .. عند زمزم والمقام والمشاعر العظام .. يطوفون ويركعون ويسجدون ويسبحون على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم ولغاتهم وجنسياتهم .. فيجتمعون فى مكان واحد أُلوفًا مؤلّفة مجردين لافرق بين غنى وفقير .. عظيم وحقير .. يدعون رباً واحداً ويهتفون هُتافاً واحداً .. (لبيك اللهم لبيك .. لبيك لاشريك لك لبيك .. إن الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إذا كان يوم عرفة لم يبق أَحد فى قلبه مثقال ذَرّةٍ من إيمان إلا غفر له) .

فقيل : (آللمُعَـرِّفِ «١» أم للنـاس جميعـًا يارسول الله ٠٠؟) ٠

فقال عليه أزكى السلام :

(بل النـاس عامة) ٠

والحج ركن من أركان الإسلام الخمسة وفريضة وعبادة ٠

والحج تطهير وتوبة وغفران ٠

والحج تضحية وإيثار ومساواة ٠٠

والحج دستور للحياة وإقرار لحقوق الإنسان ٠٠

والحج وحدة وتعاون وقوة ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

«ولله على الناس حجُّ البيتِ من استطاع إليه سبيلا ٩٧:٣ » ٠

(صدق الله العظيم)

بسم الله الرحمن الرحيم

«وَأَذِّنْ فى النَّاس بالحج يأْتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأْتين من كل فَجٍّ عميق ٢٢:٢٧» (صدق الله العظيم)

قال صلى الله عليه وسلم :

(يأَيها الناس قد فُرِض عليكم الحج فحُجُّوا) ٠

---

(١) « اللمعرف » المعرف : من اتى عرفة محرما ١٠ هـ

فقال رجل : (أكلَّ عام يارسول الله .. ؟) .

فسكت صلى الله عليه وسلم حتى كرّرها الرجل ثلاثاً ..

ثم قال : (لو قلت نعم لوجَبَ ولَمَا استطعتم) .

وفى يوم عرفة ذكرى من أحب الذكريات وأعزها على النفس المسلمة .. ذكرى خالدة مجيدة هى ذكرى حجة الوداع

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال :(إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث تسع سنين لم يحج .. ثم أذَّنَ فى الناس فى العاشرة : أيها الناس .. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاج .

فما كاد النبأ ينتشر بين الناس حتى توافدت الجموع المؤلفة إلى المدينة لنيل شرف الصحبة الكريمة فى هذه الحجة العظيمة ..

وخرج وفد الحجيج بقيادة النبى صلى الله عليه وسلم لِسِتٍّ بَقِينَ من ذى القعدة .. ومضى الرسول الكريم بهذا الوفد حتى نزل بذى الحُليفة فصلى فيها العصر ركعتين وبات بها ليلة الجمعة ثم أحرم منها بعد صلاة الظهر .. ثم رفع صوته ملبياً عندما انبعثت رَاحِلَته والناس من خلفه يرددون :

(لبيك اللهم لبيك .. لبيك لاشريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) ..

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وصل مكة وقد

انضم إليه ألوف الناس ثم دخل البيت الحرام من باب عبد مناف ـ باب بنى شَيْبَةَ الآن ـ فلما اكْتَحلت عيناه الكريمتان بنور الكعبة المشرفة رفع يديه الكريمتين وكبر .. ثم قال :

(اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ربنا ذا الجلال والإكرام .. اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتكريماً .. وزد من شرفه وكرمه تشريفاً وتكريماً) .

وقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجر الأسود فاسْتَلَمَهُ ولم يُزاحم عليه .. واندفع عمر بن الخطاب يزاحم لتقبيل الحجر الأسود .. فقال له صلى الله عليه وسلم :

(ياعمر إِنَّكَ رجلٌ قَوِيٌّ .. لا تُزاحِمْ على الحَجَرِ تُؤْذِى الضَّعيفَ .. إن وجدت خَلْوَةً فَاسْتَلِمْهُ .. وإِلاَّ فاستقبله وهَلِّلْ وكَبِّرْ) .

فَنَفَّذ عمر بن الخطاب أمرَ رسول الله وصاحَ : (بسم اللهِ اللهُ أكْبَر) .

ثم بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطَّواف من عند الحَجرِ الأسود جاعلاً الكعبة على يساره .. وطاف سبعة أشواط مُهَرْولاً فى الثَّلاثةِ الأُوَلِ ومَاشيًا فى الأَربعة الأَخيرة .. يستلم الحجر فى كل مَرة ثم اتجه إِلى مقام إبراهيم عليه السلام فصلى ركعتين قرأ فيهما

مع أم القرآن « قُلْ يا أيها الكافرون ١٠٩ : ١ـ٦ » و « قُلْ هو الله أحد ١١٢ : ١ـ٤ » .. وقرأ قبل ذلك « واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلىً ٢ : ١٢٥ » . ثم رجع إلى الحجر الأسود فاستلمه ثم اتَّجه إلى الصَّفَا وهو يقول :

« إن الصَّفَا والمَرْوَةَ مِنْ شَعَائر الله ٢ : ١٥٨ » ابدءُوا بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ » ...

ثم استقبل البيت بوجهه الكريم من فوق الصَّفَا وقال عليه أزكى السلام .

(لَا إِلهَ إِلَّا الله .. اللهُ أَكْبَر .. لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ .. أَنْجَزَ وعدَهُ ونَصَرَ عَبْدَهُ وهَزَم الأَحزابَ وَحْدَهُ) .

وسعى صلى الله عليه وسلم بين الصَّفَا والمَرْوَة سبعة أشواط مُبْتَدِئاً بالصَّفَا ومنتهياً بالْمَرْوَةِ ...

ثم أَمر صلى الله عليه وسلم من لاهدى معه بالإِحْلال ولم يكن سَاق الْهَدْى معه مِن أصحابه إلا طلحة بن عبيد الله ، وأبو بكر ، وعمر ، والزبير .. وأَمَرَ مَنْ مَعهُ الْهَدْى أَن يَبْقَى على إِحْرَامِهِ .

وضاقَ جمعٌ من الصحابه بهذا الأمر ، فقد أَهَلوا بالحج فكيفَ يحوِّلونَهَا إلى عُمرة ؟

ـ فدخل صلى الله عليه وسلم على عائشة وهو غَضْبَان فقالت :

(من أَغْضَبَكَ يارسول الله أَدْخَلَهُ الله النار)

فقال صلى الله عليه وسلم :

(أَوما شَعَرْتِ أَنــى أَمــرْتُ النــاسَ بِأَمْــرٍ فإذا هُمْ يترددُون ٠٠؟)

كان صلى الله عليه وسلم يُريد أَن يخفِّف على أَصحابه ٠٠ فالإِحرام بالحج أَشَقُّ عليهم والمُتَمَتِّعُ بالعُمْرة يَحِلُّ له كلُّ ماحَرَم على المُحْرِمِ وَيَبقَى هذا حاله إِلى يوم التَّرْوِيَةِ فَيُحْرِمُ بالحجِّ ٠

وخرج صلى الله عليه وسلم إِلى الناس وقام فيهم خطيباً ٠٠ فحمد الله تعالى وأَثْنَى عليه بِمَا هَوَ أَهله ، ثُم قَال :

(أَما بعدُ : فَتعْلَمُونَ أَيها الناس لأَنَا والله أَعلَمُكُمْ بالله وأَتقاكُمْ له ٠٠ ولو استقبلتُ من أَمرى ما اسْتَدْبَرْتُ ماسُقْتُ هَدْيا وَلأَحْلَلْتُ) ٠ وسأَله سُراقة أَلعامنا هذا ؟

فقال عليه السلام : دخلت العمرة فى الحج لأَبد الأَبَد ٠

فلما كان يوم التَّرْوِيَةِ ــ وهو اليــوم الثامــن من ذى الحجة ٠٠ أَهَلَّ الناس جميعًا بالحج وأَحْرَم كل مَن كان قد أَحلَّ ٠٠ وسَار صلى الله عليه وسلم بالحَجِيجِ إِلى منًى فبات ليلة التاسع من ذى الحجة وصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاءِ ٠٠ ثم بَاتَ تلك الليلة ــ وكانت ليلة الجمعة ، وصلى بها الصُّبح ٠٠

ثم انطلق بعد طلوع الشمس إلى عرفة . وهناك نزل فى مكان أُعد له بموضع يقال له : نَمِرَةُ وأَمر بأَن تضرب له قُبَّةٌ من شَعَرٍ حتى إذا زالت الشمس أَمر بناقته القَصْواءِ ثم ركبها وسار حتى أَتى بطن الوادى فخطب وهو على القصواءِ وأَمر ربيعة بن أُمية بن خلف أَن يردد للناس مايقوله هو ذلك أَن صوت ربيعة كان قوياً جَهْوَرِيًا بعيد المدى "١" والناس فى عرفة كانوا أُلوفًا مؤلفة .

وقد بدأَ صلى الله عليه وسلم بحمد الله والثناءِ عليه ثم قال :

(أَيها الناس اسمعوا قولى .. فإنى لا أَدرى لعلى لا أَلقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أَبداً .. أَيها الناس إن دماءَكم وأَموالكم عليكم حرام إلى أَن تلقوا ربكم كحُرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وأَنكم ستلقون ربكم فيسأَلكم عن أَعمالكم ـ وقد بَلَّغْتُ ـ فمن كان عنده أَمانَةٌ فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن كل ربًا موضوعٌ ولكن لكم رؤُوس أَموالكم لاتَظلِمون ولا تُظلَمون قضى الله أنه لا رِبًا ، وأَن رِبا عباسِ بنِ عبد المطلب موضوعٌ كله وأَن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ـ وأَن أَول دمائكم أَضَعُ دَمُ ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ـ وكان

مسترضعاً فى بنى سعد فقتلته هذيل فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .

أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه يطمع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

أيها الناس .. إن النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حُرُمٌ ـ ثلاثة متوالية ورجب مُضَر الذي بين جُمادى وشعبان .

أما بعد .. أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقاً .. ولهن عليكم حقاً لكم عليهن أن لا يُوطِّئن فُرشكم أحداً تَكْرَهُونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مُبيّنة .. فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تَهْجُروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مُبَرِّح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوانٍ لايملكن لأنفسهن شيئاً ، وانكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلَّغتُ .. وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تَضِلوا أبداً .. أمراً بيّنا : كتابَ الله وسنةَ نبيه .

أيها الناس ·· اسمعوا قولى واعقلوه تعلمُنّ أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحلّ لامرىءٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طِيبِ نفسٍ فلا تظلمُنّ أنفسكم اللهم هل بلّغتُ ؟

وهنا ارتفعت أصوات المسلمين تردّد : اللهم نعم ·· اللهم نعم ·· اللهم نعم ·· فعاد صلى الله عليه وسلم يقول :

اللّهم اشهدْ ·· أيها الناد ، ·· إن الله قد أدّى إلى كل ذى حق حقه ·· وأنه لاتجوز وصيةٌ لوارث ، والولدُ للفراش وللعاهِرِ الحَجَرُ ·· ومَنِ ادّعى إلى غير أبيه ، أوْ تولّى غيرَ مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين · لايقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً ·

اللهم هل بلغت ؟

ومرة أُخرى ارتفعت الأصوات تهدر قائلة :

اللهم نعم ·· اللهم نعم ·· اللهم نعم ··

فقال صلى الله عليه وسلم :

(اللّهُمّ اشهد)

فعادت الأصوات الهادرة تُرَدّد :

نشهد أنك قد بلغت وأدّيت ونَصَحْت ·

وبَعَثَتْ إليه أمّ الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب لبناً فى قَدَح شربه أمام الناس فعلموا أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن

صائمًا ذلك اليوم ـ يوم عرفةَ ـ وأمر عليه أزكى السلام بلالاً بأن يُؤَذِّن للصلاة ثم أقام فصلى الظهر ثم أقام فَصَلَّى العصرَ وَلَمْ يُصَلِّ بينهما شيئاً ، فصلاهما مَجْمُوعَتَيْن فى وقت الظهر بأذانٍ وَاحِدٍ وإقامتين .

ثم ركب صلى الله عليه وسلم القَصْواءَ وسار حتى أتى الموقف فاستقبل القبلة وأخذ يدعو من الزوال إلى الغُروب مُرَدِّداً :

(لَا إِلَهَ إِلَّا الله وحده .. لاشريك لَه .. له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير ..)

وتقدم منه ـ وهو فى وقفته هذه ـ بعض أهل نجد فقالوا :

ـ كيف الحج يارسول الله ؟

فأمر مناديه ربيعةَ بن أُمية أن ينادى فى الناس قائلاً :

ـ الحج عرفةُ .. من جاءَ ليلة جَمْع قبل طلوع الفجر فقد أدرك الحج .. أيام منى ثلاثة فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه .

ثم قال صلى الله عليه وسلم :

وقفت هاهنا وعرفة كلها موقف) .

قال ذلك وهو يقفُ على صخرات فى ساق الجبل والناس من حوله يتزاحمون تزاحماً .. ونزل عليه صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته .. قوله تعالى

« اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلامَ ديناً ٥:٣ » .

ثم أمرهُمُ الرسول صلوات الله عليه وأزكى سلامه بعد الغروب بالاتجاه إلى طريق المزدلفة فانطلقوا جميعًا نحوه وخلفه أسامة بن زيد .. فلما وصل الشِّعْبَ الأيسر نزل عن راحلته فتوضأ ثم ركب ثانية حتى وصل المزدلفة . وهناك صلى المغرب والعشاء وجمع بينهما جمع تأخير ثم أذن للنساءِ والصِّبية أن يتقدموا إلى منى .. فانطلقوا إليها ليلاً .

ولما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر قام صلى الله عليه وسلم فصلى بالناس الصبح مُغَلِّسًا ثم أتى المشعر الحرام فوقف به وهو على القَصْواءِ واستقبل القبلة ودعا الله وكبر وَهَلَّل وَوَحّد وهنا جاءته امرأة وقالت :

ـ يارسول الله إن فريضة الله على عباده الحج قد أدركت أبى وهو شيخ كبير لايقوى عليه .. فهل أحج عنه ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : (نعم) .

. وسار صلى الله عليه وسلم حتى رمى جمرة العقبة سبع حَصَياتٍ وقطع عليه الصلاة والسلام التلبية عند الرمى وصار يكبر عند رمى كل حصاة .. ثم خطب فى الناس بمنى وقال :

(يأيها الناس .. أيّ يوم هذا ؟) .

فقالوا :

ـ يوم حرام .

فقال صلى الله عليه وسلم (فأيُّ بلد هذا ؟) .

قالوا :

ـ بلد حرام .

فسألهم صلى الله عليه وسلم (فأيُّ شهرٍ هذا) ؟

قالوا :

ـ شَهْرٌ حَرَامٌ .

فقال عليه أزكى السّلام : (فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حَرَامٌ كحُرْمَةِ يومكم هذا في بلدكم هذا في شَهْرِكم هذا) .

ثم رفع رأسه الكريم وقال :(اللّهم هل بلّغتُ ؟ اللّهم فاشْهَد .. فَلْيُبَلِّغْ الشاهدُ مِنْكُم الغائِبَ .. لاتَرْجِعُوا بَعْدِى كُفّارا يَضرِبِ بَعضُكُم رقاب بَعْضٍ) .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل بالمزدلفة رئى، ضاحكاً فقيل له :

ـ ما أضحكك يارسول الله ؟ أضحك الله سنّك ، وقد عهدناك لاتضحك في مثل هذا الموقف ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : (إن الله لما استجاب دعائى وغفر للحجاج ذنوبهم أخذ إبليس يَحْثُو التراب على رأسه ويدعو بالويل والثُّبور) ٠

ثم اتجه صلى الله عليه وسلم إلى المنحر بِمِنًى فنحر بعدد سِنِى عمره ثم أمر عليا بَنحْرِ مابقى من المائة بدنة التى جاءَ ببعضها معه وجلب له بعضها علىّ من طريق اليمن وقال صلى الله عليه وسلم لعلى : (اقسمْ لحومها وجلودها وجِلالَها بين النَّاس ولا تعط جَزّاراً منها شيئًا ٠٠ وخُذْ لنا من كل بعيرٍ جَذْبَةً من لحم ٠٠ واجعلها فى قدر واحدة حتى نأكل من لحمها ونَحْسُوَ من مَرَقِها) ٠

وضحّى أيضاً بكبشين أملَحيْن ، وضحَّى عن نسائه بالبقر ٠

ثم قال صلى الله عليه وسلم : (نحرت هاهنا ٠٠ ومنى كلها منحر ٠٠ وفِجَاجُ مكة طريق ومنحر ٠٠ فانحروا فى رحاب لكم) ٠

وأمر صلى الله عليه وسلم بالحَلَّاق فجاءَ معمر بن عبد الله «١» فحلق له رأْسَهُ وقسَّم شَعْرَهُ بين الصَّحابة ٠٠ أَعْطَى من نصفه النَّاس شَعْرَةً وشعْرَتَيْنِ وأَعْطَى نصفه الثانى كُلَّه أبا

---

(١) معمر بن عبد الله : معمر بن عبد الله العدوى القرشى ، مهاجر الهجرتين ، مات فى خلافة عثمان ٠١ هـ ٠

طلحة الأنصارى .. وتبعه الصحابة وبقية الرجال فحلقوا وقصّر بعضهم . وقد دعا صلى الله عليه وسلم للمحلّقين بالمغفرة ثلاثاً وللمقصّرين مرة واحدة .. ثم تطيّب بطيب فيه مسك قبل أن يطوف طواف الإفاضة .. ثم ركب إلى مكة فطاف فى نفس اليوم وشرب من ماءِ زمزم .. ثم رجع صلى الله عليه وسلم إلى مِنىً وَبقِىَ فيها حتى اليوم الثالث الذي هو يوم النفر الآخر ونفر معه المسلمون بعد الزوال . واستأذنه عَمُّه العبّاس فى عدم المَبيتِ بِمنىً فى الليالى الثلاث من أجل السِّقاية فرخّص له فى ذلك ثم نزل صلى الله عليه وسلم فى قُبَّةٍ بالأبْطَحِ"١" وضعها له أبو رَافع"٢" .. وكان عليه السلام قال لأسامة : (غداً ننزل بِالمُحَصَّبِ) ـ وهو المكان الذى تحالفت فيه قريش وكنانةُ على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب .. حتى يسلموا إليهم النبى صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، وكان ذلك سبباً فى تسطير صحيفة المقاطعة ـ فلما نزل صلى الله عليه وسلم بالمُحَصَّب

قالت له عائشة رضى الله عنها

---

(١) « بالأبطح يضاف إلى مكة وإلى منى ، وهو المحصب ، وهو خيف بنى كنانة ، وحده : ما بين شعب عامر إلى شعب بنى كنانة من الحجون ، وانت ذاهب إلى منى . ا هـ .

(٢) « ابو رافع » مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ اختلف فى اسمه ، فقيل : أسلم ، وقيل : إبراهيم ، وقيل : صالح . ا هـ .

(يارسول الله أرجع بحجة ليس معها عمرة ؟) ·

فطلب عبد الرحمن بن أبي بكر وقال له :

(اُخْرُجْ بأُختك مِنَ الحرم ثم افْرُغَا من طوافكما حتى تأتياني هاهنا بالمُحَصَّبِ) · فاعتمرا من التنعيم وذهبا إلى البيت ولما فرَغَا من طوافهما عادا إليه صلى الله عليه وسلم فى جوف الليل فأمر بأن يؤذن فى النّاس بالرحيل وطلب منهم أن لا ينصرفوا إلى بلادهم حتى يكون آخر عهدهم الطواف بالبيت ·

ودخل صلى الله عليه وسلم مكة فى تلك الليلة وطاف طواف الوداع سَحَرا قبل صلاة الصبح ·· ثم وقف فى الملتزم بين ركن الحَجَرِ وباب الكعبة فدعا الله وألْصَق جسده ووجهه بالملتزم ·· وطافَ سبعاً ·· ثم خرج من الثنيّة السُّفْلَىٰ ·

وواصل صلى الله عليه وسلم سَيْره حتى وصل ذا الحُلَيْفَةِ«١» فبات بها لأنه كره أن يدخل المدينة ليلًا ·· وفى الصباحِ استأنف سيره فلما طالعته المدينة عن بعد كبر ثلاثاً وقال

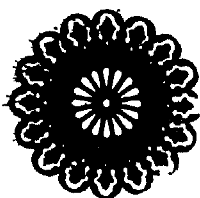
(لا إِلَهَ إِلَّا الله وحده ·· لا شريك له ·· له الملك وله الحمد · وهو على كل شيءٍ قدير ·· آيبُون ·· تائبون ·· عابدون ·· ساجدون لِرَبِّنَا حامدون · صدق الله وَعْدَهُ ·· ونصر عبدهُ ·· وهزم الأحزاب وحدهُ) ·

ثم دخل المدينة نهاراً فقابلته أُم سِنان الأَنصارية وكانت قد طمعت فى الحج معه ومنعها المَرَضُ ·· فقال لها :

(ما منعكِ أَن تكونى حججت مَعَنَا ؟) ·

فاعتذرتْ بالمَرَضِ ·· فقال صلى الله عليه وسلم :

(عمْرَةٌ فى رمضانَ تَعْدِلُ حجةً مَعِى) ·



بسم الله الرحمن الرحيم

(وقال ربكم ادعونى أستجب لكم)

(صدق الله العظيم) « ٦٠ : ٤٠ »

نية الحج والعمرة

☐ اللهم إنى أُريد الحج فيسره لى وتقبله منى ..

أَو .. اللهم إنى أُريد العُمْرَة فيسرها لى وتقبلها منّى . لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، اللهم أَحْرَمَ لكَ شعْرى وبشرى وجسدى وجميع جوارحى من الطيب والنساءِ وكل شىءٍ حرمته على المحرم أَبتغى بذلك وجهك الكريم يارب العالمين .

أدعية الحج

عندما يُشرِفُ الحاجُّ على مكة المشرفة يقول :

اللهم اَجعلْ لى بها قراراً ، وارزقنى فيها رزقاً حلالاً .

وعند دخولها يقول :

☐ اللهم إن هذا الحرم حرمك ، والبلد بلدك ، والأَمن أَمنك ،

والعبد عبدك ، جئتك من بلاد بعيدة بذنوب كثيرة وأعمال سيئة .

أسألك مسألة المضطرين إليك ، المشفقين من عذابك ، أن تستقبلني بمحض عفوك وأن تدخلني فسيح جنتك ، جنة النعيم .

اللهم إن هذا حرمك وحرم رسولك فحرّم لحمي ودمي وعظمي على النار . اللهم آمني من عذابك يوم تبعث عبادك أسألك بأنك أنت الله الذي لا إلَهَ إلَّا أَنت الرحمٰن الرحيم أن تصلي وتسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً .

وعند الدخول من باب السلام يقول :

اللهم أَنت السَّلامُ ومِنْك السَّلَامُ فَحَيِّنَا رَبَّنَا بالسَّلَامِ ، وَأَدْخِلْنَا الجنة دارَ السَّلَام ، تَبارَكْتَ رَبَّنا وتَعَالَيْتَ يَاذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَام .

اللهم افْتح لى أَبْوَاب رحمتك ومغفرتك وأَدخلْني فيها . باسم الله ، والحمـد لله ، والصلَاة والسلَام على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

فإذا عَايَنَ البيتَ الشَّريفَ هَلَّل ثلاثاً وَكَبَّرَ ثَلَاثاً ، ثم يقول :

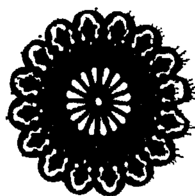
لا إلَهَ إلَّا الله وحده لَا شريك له ، له الملْك وله الحمْد وهو على كُلِّ شيءٍ قدير ، أعوذُ بربِّ البيت من الكُفْر والفقر ، ومِن عَذَاب

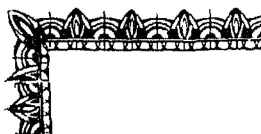
القبر ، وضيقِ الصَّدْر ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آلِهِ وصحبه وسلم ·

اللهم زِدْ بَيْتَكَ تَشريفاً وتكريماً وتعظيماً ومهابةً ورِفْعَةً وبِراً ، وزِدْ يَارَبِّ مَنْ شَرَّفَه وَكَرَّمَه وَعَظَّمَه مِمَّن حَجَّهُ أَو اعْتَمَرَهُ تَشْرِيفًا وَتكْرِيمًا وَتَعْظِيمًا وَمَهابَةً ورِفْعَةً وَبِراً ·

وإذا وصل بابَ بنى شَيْبَةَ يقول :

رَبِّ أدخلنى مدخل صدقٍ وأخرجنى مُخْرَجَ صِدقٍ واْجْعَل لِى مِن لَدُنْكَ سلطاناً نَصِيراً ، وقُلْ : جاءَ الحقُّ وزَهقَ الباطلُ إِنَّ الباطِلَ كَانَ زَهُوقًا ، وَنُنَزِّلُ من القرآنِ ما هو شِفَاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ولا يَزِيدُ الظالِمين إِلاَّ خَساراً ·





نيّة الطَواف



☐ اللهم إِنى أُريد طواف بيتك الحرام فيسره لى وتقبله مِنى سبعة أَشواطٍ (طواف الحجّ ، أَو العُمْرة ، أَو التحيّة ، أَو الودَاع) .

ثم يُقَبِّلُ الحَجَرَ الأَسود .. ويرفعُ يدهُ ويقول :

باسم الله اللهُ أكبر ولله الْحَمْدُ .

دُعَاءُ الشَوْطِ الأول

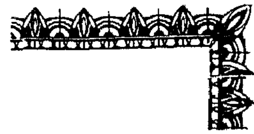
☐ سبحان الله والحمد لله ولا إِله إِلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إِلا بالله العلى العظيم والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اللهم إِيماناً بك وتصديقًا بكتابك ووفاءً بعهدك واتباعًا لسنة نبيك وحبيبك محمد صلى الله عليه وسلم .

اللهم إِنى أَسأَلك العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدين والدنيا والآخرة ، والفوز بالجنة والنجاة من النار .

ويقول بين الرُّكنين فى كل شَوْط :

ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار ، وأَدخلنا الجنة مع الأَبرار ياعزيز ياغفار يارب العالمين .


دُعَاءُ الشَّوْطِ الثَّانِي


□ اللهم إن هذا البيت بيتك ، والحرم حرمك والأَمن أَمنك والعبد عبدك وأَنا عبدك وابنُ عبدك ، وهذا مقام العائذ بك من النار فحرِّم لحومنا وبشرتنا على النار .

اللهم حَبِّب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا وكَرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجْعلنا من الراشدين .

اللهم قِنى عَذَابَكَ يوم تَبْعثُ عبادَك .

اللهم ارزقنى الجنة بغير حساب .

دُعَاءُ الشَّوْطِ الثَّالِث

□ اللهم إنى أَعوذ بك من الشك والشرك والشقاق والنفاق وسوءِ الأَخلاق وسوءِ المنظر والمنقلب فى المال والأَهل والولد .

اللهم إنى أَسأَلك رضاك والجنة وأَعوذ بك من سخطك والنار . اللهم إنى أَعوذ بك من فتنة القبر ، وأَعوذ بك من فتنة المحْيَا والمَمَاتِ .

دُعَاءُ الشَّوطِ الرابع

□ اللهم اجعله حجاً مَبْرُوراً ، وسَعْياً مشكوراً وذنباً مغفوراً وعملاً صالحاً مقبولاً ، وتجارةً لن تبور ، يا عالم ما فى الصدور .. أَخْرجنى يا اللهُ من الظلمات إلى النور .

اللهم إنى أَسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بِرٍّ ، والفوز بالجنة والنجاة من النار رَبِّ قَنِّعْنِى بما رزقتنى ، وبارك لى فيما أعطيتنى وأَخْلِفْ عَلَىّ كل غَائبة لى منك بخير .

دُعَاءُ الشَّوطِ الخَامِسُ

□ اللهم أَظِلَّنى تحت ظِلّ عرشك يوم لا ظِلّ إلا ظِلُّكَ ، ولا باقى إلاَّ وجْهك واسقنى من حوض نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم شَرْبَةً هَنِيئَةً لا نَظْمأُ بعدها أَبداً .

اللهم إنى أَسألك من خير ما سألك منه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأَعوذ بك من شَرِّ ما استعاذ منه نبيك محمد صلى الله عليه وسلم .

اللهم إنى أَسألك الجنة ونعيمها وما يُقَرِّبُنى إليها من قول أو

فعل أَو عمل ، وأَعوذ بك من النار وما يقربنى إِليها من قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ عَملٍ .

دُعَاءُ الشَوطِ السادِسْ

☐ اللهم إِن لك على حقوقا كثيرة فيما بينى وبينك وحقوقًا كثيرةً فيما بَيْنى وَبَيْنَ خَلْقِك .

اللهم ما كان لك منها فاغفره لى وما كان لخلقك فَتَحَمَّلْهُ عَنِّى وأَغْننى بحلالك عن حرامك ، وبَطاعتك عن معصيتك وبفضلك عَمَّنْ سِواكَ ياواسع المغفرة .

اللهم إِن بيتك عظيم ووجهك كَرِيم ، وأَنت يا الله حليم عظيم تحب العفو فاعفُ عَنِّى .

دُعَاءُ الشَوطِ السَابع

☐ اللهم إِنى أَسأَلك إِيمانًا كاملاً ويقيناً صادقًا ورزقًا واسعًا ، وقلباً خاشعاً ولساناً ذاكراً وحلالاً طيباً ، وتوبة نصوحًا ، وتوبةً

قبل الموت ، وراحة عند لموت ، ومغفرة ورحمة بعد الموت ، والعفو عند الحساب ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، بِرحمتك ياعزيز يا غَفَّار ، رَبِّ زِدنى علمًا وأَلْحِقْنى بالصالحين .

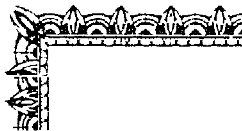
دُعَاءُ المُلْتَزَم

□ اللهم ياربّ البيت العتيق ، اعْتق رقابنا ورقاب آبائنا وأُمهاتنا وإِخواننا وأَولادنا من النار يَاذَا الجود والكرم والفَضْل والمنّ والعطاء والإِحسان .

اللهم أَحسن عاقبتنا فى الأُمور كلها ، وأَجِرْنَا من خِزْى الدنيا وعذاب الآخرة .

اللهم إِنى عبدك وابن عبدك واقف تحت بابك ملتزم بأَعتابك متذلل بين يَدَيْك أَرجو رحمتك وأَخشى عذابك ياقديم الإِحسان .

اللهم إِنى أَسأَلك أَن ترفع ذِكْرِى وتضع وزرى وتصلح أَمرى وتطهر قلبى ، وتُنَوِّر لى فى قبرى وتغفر لى ذَنْبِى ، وأَسأَلك الدرجات العُلَا من الجنة آمين .




دُعَاءمَقَام إبراهيم عليه السلام

□ اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى وتعلم حاجتى فأعْطِنى سُؤَالِى ، وتعلم مافى نفسى ، فاغْفر لى ذنوبى

اللهم إنى أسألك إيمانًا يباشر قلبى ويقينًا صادقًا حتى أعلم أنه لا يصيبنى إلا ما كتبت لى رضًا منك بما قسمت لى ، أنت وليِّ فى الدنيا والآخرة توفنى مسلمًا وألْحِقْنى بالصالحين .

اللهم لا تدع لنا فى مقامنا هذا ذنبًا إلا غفرته ، ولا همًّا إلَّا فَرَّجْتَهُ ، ولا حاجة إلَّا قضيتها وَيَسَّرْتَهَا ، فَيَسِّرْ أمُورَنَا واشْرح صدورنا ونور قلوبنا ، واختم بالصالحات أعمالنا ، اللهم توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين .

دُعَاءحِجر إسماعيل عليه السلام

□ اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وعلى عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شرّ ما صنعت ، أبُوءُ لك بنعمتك علىّ وأبُوءُ بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلَّا أنت .

اللهم إنى أسألك من خير ما سألك به عبادك الصالحون .

وأعوذ بك من شر ما استعاذك منه عبادك الصالحون

اللهم بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا طهر قلوبنا من كل وصف يباعدنا عن مشاهدتك ومحبتك ، وأمِتْنَا على السُّنَّة والجماعة والشوق إلى لقائك ياذا الجلال والإكرام

اللهم نور بالعلم قلبى واستعمل بطاعتك بدنى وخلص من الفتن سرى واشغل بالاعتبار فكرى ، وقِنِى شَرَّ وَسَاوِس الشيطان وأجرنى منه يا رحمن حتى لا يكون له على سلطان ، رَبَّنَا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذابَ النَّار .

دُعَاءٌ يُقرأ عِنْدَ شرب مَاءِ زَمْزَم

□ اللهم إنى أسألك عِلْماً نافعًا وَرِزْقًا واسعًا وشِفَاءً من كلِّ دَاءٍ وسقَم برحمتك يا أرحم الرَّاحِمِينَ .

دُعَاء الصفا

□ أبدأ بما بدأ الله ورسوله « إن الصفَا والمروةَ مِنْ شعَائِر الله فَمنْ حجَّ البيتَ أو اعتمَر فلا جُنَاحَ عليه أن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ومَنْ تطَوَّع خيراً فإنَّ الله شاكرٌ عليمٌ ٢ : ١٥٨ » .

نية السعي

☐ اللهم إني أريد أن أسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط سعي الحج أو العمرة لله عز وجل ..

ثم يرتقي على درج الصفا ويقول:

الله أكبر الله أكبر ، ولله الحمد

دعاء السعي

☐ الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله العظيم وبحمده الكريم بكرة وأصيلا .. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً .. لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، لا شيء قبله ولا بعده ، يحيي ويميت ، وهو حي دائم لا يموت ، بيده الخير وإليه المصير ، وهو على كل شيء قدير ، رب اغفر وارحم واعف وتكرم وتجاوز عما تعلم ، إنك تعلم ما لا نعلم ، إنك أنت الله الأعز الأكرم ، رب نجنا من النار سالمين غانمين ، فرحين مستبشرين ، مع عبادك الصالحين ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك

رفيقاً ، ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله عليماً ، لا إلهَ إلَّا الله حقاً حقاً ، لا إلهَ إلَّا الله تعبُّداً ورِقّاً ، لا إلهَ إلَّا الله ولا نعبد إلَّا إيّاه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، لا إلهَ إلَّا الله الواحد الأَحد ، الفَرْد الصمد ، الذى لم يَتَّخِذْ صاحبةً ولا ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له وَلِيٌّ من الذُّلِّ وَكبره تَكْبيراً ·

اللهم إنك قلت فى كتابك المنزل : ادْعُونى أَستجبْ لكم ، دَعَوْنَاك رَبَّنَا فاغْفر لَنَا كما أمرتنا ، إنَّك لا تخلف الميعاد ، ربنا إننا سمعنا مُنَادِياً يُنَادِى لِلإِيمان أن آمنوا بِرَبِّكُمْ فآمَنَّا ، ربَّنا فاغْفِرْ لَنَا ذنوبنا وكفر عنا سَيِّئَاتِنَا وتوفنا مع الأَبرارِ ، رَبَّنَا وآتنا ما وعدتنا على رُسُلِكَ ، ولا تُخْزِنَا يومَ القِيَامة إنك لا تخلف المِيعَاد ، رَبَّنَا عليكَ توكلنا وإِلَيْكَ أَنَبْنَا وإِلَيْكَ المَصِير ربنا اغفر لنا ولإِخواننا الذين سَبقونا بالإِيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءُوف رحيم ، ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا ذُنُوبَنَا إنك على كل شيءٍ قدير ·

اللهم إنى أَسألك الخير كله عاجلَهُ وآجلَهُ ، وأَعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ، أَستغفرك لذنبى وأَسألك رحمتك ·

اللهم رب زدنى علماً ، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ·

اللهم عافنى فى سمعى وبصرى ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنت .

اللهم انى أعوذ بك من عذاب القبر لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر كنتُ من الظالمين ، اللهم إِنى أَعوذ بك من الكفر والفقر .

اللهم إِنى أعوذُ بِرضاك من سخطك ، وبمعافَاتِكَ من عُقُوبَتِك وأَعوذ بِك مِنْكَ ، لا أُحصى ثناءً عليك ، أَنت كما أثنيت على نفسك ، فلك الحمد حتى ترضى .

اللهم إِنى أَسأَلك من خير ما تعلم ، وأَستغفرك من كل ما تعلم إِنك أَنت علام الغيوب ، لا إِلَه إِلَّا الله الملك الحق المبين ، محمد رسول الله الصادق الوعد الأَمين .

اللهم إِنى أَسأَلك كما هديتنى للإِسلام ألا تنزعه مِنى حتى تتوفانى عليه وأَنا مُسلم .

اللهم اجْعل فى قلبى نوراً ، وفى سَمْعى نوراً ، وفى بَصَرِى نوراً .

اللهم رب اشْرح لى صدرى وَيَسِّرْ لِي أمْرِى ، وأعوذ بك مِن شر وَسَاوِسِ الصَّدْرِ وشتات ٱلْأَمْرِ وفِتْنَةِ القبر .

اللهم إِنى أَعوذ بك من شر ما يلج فى النهار ، ومن شَرِّ ما تهب به الرياح يا أَرحم الراحمين ، سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك يا

الله ، سبحانك ما نكرناك حق نكرك يا الله ، سبحانك ما شكرناك حق شكرك يا الله ، سبحانك ما قصدناك حق قصدك يا الله .

اللهم حبّبْ إلينا الإيمان وزيّنْهُ فى قلوبنا وكرّهْ إلينا الكفر والعصيان ، واجعلنا من الراشدين .

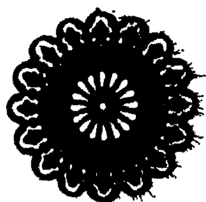
اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك .

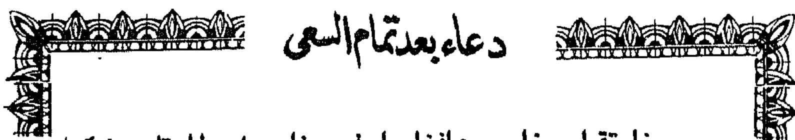
اللهم اهدنى بالهدى ونقنى بالتقوى ، واغفر لى فى الآخرة والأولى . اللهم ابْسُطْ علينا من بركاتك ورحمتك وفضلِكَ ورزقك .

اللهم إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول أبداً ...

اللهم إنى عائذٌ بك من شرِّ ما أعطيتنا ومِنْ شرِّ ما منعتنا .

اللهم توفنا مسلمين ، وألْحِقْنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مفتونين ، ربِّ يسِّرْ ولا تُعسِّر ربِّ تمِّمْ بالخير « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جُناح عليه أن يطَّوَّف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكرٌ عليمٌ ٢ : ١٥٨ » .





دعاء بعد تمام السعى

ربنا تقبل منا ، وعافنا واعف عنا وعلى طاعتك وشكرك أعنا ، وعلى غيرك لا تكلنا وعلى الإيمان والإسلام الكامل توفنا وأنت راض عنا ·

اللهم ارحمنى بترك المعاصى أبداً ما أبقيتنى ، وارحمنى أن أتكلف ما لا يعنينى وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى يا أرحم الراحمين ·

عرفات

☐ **يقول الحاج عند دخوله إليها :**

اللهم إليك توجهت وبك اعتصمت وعليك توكلت · اللهم اجعلنى ممن تباهى به اليوم ملائكتك ، إنك على كل شىء قدير ·

دعاء عرفات

يقول الحاجّ بعد زوال الشمس ، وبعد صلاة الظهر والعصر وهو يقف أسفل جبل الرّحمة عند الصّخرات الكبار موقف النبى صلى الله عليه وسلم وعرفة كلّها

مَوْقِف ، ويدعو ويكثر من قول : لا إلهَ إلّا الله وَحْدَهُ لا شريك له ، لَهُ الملك وله الحمد يُحْيي ويميتُ ، وهو حَيٌّ لا يموت بِيَدِه الخيرُ ، وهو على كل شَيْءٍ قدير .

اللهم إنك وَفَّقْتَنى وحَمَلْتَنى على ما سَخَّرْتَ لِي ، حتى بلغتنى بإحسانك إلى زيارة بيتك ، والوقوف عند هذا المَشْعَر العظيم ، اقتداءً بسنة خليلك ، واقتفاءً بآثار خيرتك من خلقك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنَّ لكل ضيفٍ قِرًى ، ولكل وَفْدٍ جَائِزَةً ولكل زَائِرٍ كَرَامةً ، ولكل سائل عَطِيَّةً ، ولكل مُلْتَمِسٍ لما عندك جزاءً ، ولكل راغب إليك زُلْفة ، ولكل مُتَوَجِّهٍ إليك إحساناً ، وقد وقفنا بهذا المَشْعَرِ العظيم رجاءً لما عندك فلا تخيب إلهنا رجاءَنا ، يا سيدنا يا مولانا يا من خضعت كل الأشياء لعزته ، وعنت الوجوه لعظمته .

اللهم إليك خرجنا وبفنائك أنخنا ، وإياك أملنا ، وما عندك طلبنا ولإحسانك تعرضنا ، ولرحمتك رجونا ، ومن عذابك أشفقنا ، ولبَيْتِكَ الحرام حججنا يا مَن يَمْلِك حَوَائِجَ السَّائلين ويعلم ضمائر الصَّامتين ، يا مَن ليس معه رَبٌّ يُدْعَى ولا إلَهَ يُرْجَى ، ولا فوقه خالق يخشى ، ولا وزير يُؤْتى ، ولا حَاجِب يُرْشَى ، يا مَن لا يزداد على السؤال إلّا كرماً وجوداً ، وعلى كثرة الحوائج إلّا تَفَضلاً وإحساناً ، يامن ضَجَّت بَيْنَ يَدَيْهِ الأصوات بلغات مختلفات ، يسألونك عن الحاجات ، وَسُكِبَتِ الدُّمُوع بالعبرات

والزفرات مُلِحِينَ بالدعَوَاتِ ، فحاجتى إليك ياربِّ مغفرتك ورضاء مِنك علىّ لا سُخط بعده وهُدَى لا ضلال بعده ، وعلم لا جَهْلَ بَعْدَه ، وحُسْن الخاتمة والعتق من النار والفوز بالجنة ، وأن تذكرنى عند البلاءِ إذ نَسِيَنى أَهلُ الدنيا ، وَوَارَانى التُّراب ، وانقطع عَنى الأَحباب وَتقَطَّعَتْ بى الأَسْبَاب يا عَزِيزُ يَا وَهَّاب ، يا أَرْحَمَ الراحمين ٠

اللهم إنَّك ترى مكانى وتسمع كلامى ، وتعلم سرى وعلانيتى لا يَخْفَى عليك شَىْءٌ من أمرى أَنَا البائس الفقير ، المستغيث الْوَجِلُ ، الْمُشْفِقُ الْمُقِرُّ ، المعترف بذَنْبه ، أَسْأَلُك مَسأَلة المسكين ، وأَبْتَهِلُ إليك ابْتِهَال المُذْنب الذَّليل وأدعوك دعاءَ الْخَائِف الضَّرير ، دُعَاءَ من خَضَع لك عُنقُهُ وذَلَّ لك جَسده ، وفاضَتْ لك عيناه ، وَرغِمَ لك أَنفُهُ ، لا تَجْعَلْنى بدعائك رَبِّ شَقِيًّا ، وكن بى رَءوفاً رَحيماً ، يا خير الْمَسْئُولِينَ ، وَيا خَيْرَ الْمُعْطِينَ ، رَبِّ اهْدِنا بالهُدَى ، وَزَيِّنَّا بالتَّقْوى ، واغْفِرْ لَنَا فى الآخرة والأُولَى ٠

اللهم اجْعل فى قلبى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وفى لسانى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن يسارى نوراً ، ومن فوقى نوراً ، ومن تحتى نوراً ، ومن أمامى نوراً ، ومن خَلْفِى نوراً ، واجْعَل لِى فى نَفْسى نُوراً وأَعْظِم لِى نوراً ، رَبِّ اشْرَح لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى ٠٠

اللهم إنى أسألك الهُدَى والتُّقى والعفاف والغِنى .

اللهم لك الحمد كالذى تقول وخيراً مما نقول .

اللهم إنى أسألك رضاك والجَنَّة ، وأعوذ بكَ مِنْ سَخَطِكَ والنار وما قَرَّبَ مِن قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ عَمَلٍ .

اللهم اجعله حجًّا مَبْرُوراً وَذَنْباً مغْفوراً وعَمَلاً صالحاً مَقْبُولاً ، ربنا آتنا فى الدنيا حَسَنَةً وفى الآخرةِ حَسَنَةً وقنا عذاب النَّار ، إلَهى لا قوة لى على سَخَطِك ، ولا صَبْر لِي عَلى عَذابك ولا غِنى لِي عن رَحْمَتِك ، ولا قُوة لى على البَلاءِ ، ولا طاقة لِي على الجهد ، أعوذُ برضاك من سخطك ، ومن فُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ ، يَا أَمَلِي ويَا رَجائى يا خَيْرَمُسْتَغَاثٍ يا أجود المُعْطِينَ ، يا مَنْ سبقتْ رحمَتُهُ غَضَبه ، يا سيدى ومولاى يا ثِقَتى ورَجائى وَمُعْتَمَدى .

اللهم يامن لايشغله سمع ولاتشتبه عليه الأصوات ، يَامَنْ لا تُغَلِّطُهُ المسَائل ولاتَخْتَلِفُ عَلَيْهِ اللُّغَاتِ ، يامَنْ لايُبْرِمُهُ إلحاحُ المُلِحِّينَ ، ولا تُعْجِزه مسألَةُ السائلين ، أذِقْنا بَرْدَ عفْوِكَ وَحلاَوَة مَغْفِرَتِكَ ،يا أرحم الراحمين .

اللهم إني قد وَفَدْت إليك ووقفت بين يديك فى هذا الموضع الشريف ، رَجَاءً لِمَا عِنْدَكَ فلا تجعلنى اليوم خائبًا وأكرمنى بالجنة ومُنَّ عليَّ بالمغفرة والعافية ، وأَجِرْنى مِنَ النار ، وَادْرَأْ عَنِّى شَرَّ خلقك ، انقطع الرجاءُ إلّا منك وأُغْلِقَتِ الأبْواب إلّا بَابُك فلا تَكِلْنى

إلى أحد سِوَاك في أمور دينى ودُنياى طرْفَة عيْن ولا أقلّ مِنْ ذلِكَ ، وانْقُلْنى من ذل المعصية إلى عِزّ الطاعة ، ونور قلبى وقبرى وأعِذْنى من الشرّ كله ، و اجمع لى الخير كله يا أكرم منْ سئل وأجود من أعْطَى .

اللهم بنورك اهتدينا ، وبفضلك استغنينا ، وفى كنفك وإنعامك وعطائك وإحسانك أصبحنا وأمسينا . أنت الأول فلا شىءَ قبلك والآخر فلا شىْءَ بعدك والظاهر فلا شىءَ فوقك ، والباطن فلا شىءَ دونك ، نعوذ بك مِنَ الفلَس والكسل وعذاب القبر وفتنة الغنى ، أسألكَ موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والغنيمة من كل بِرٍّ والسلامة من كل إثمٍ ، والفوز بالجنة والنجاة من النار .

اللهم ياعالم الخفيات وياسامع الأصوات ، ويا باعث الأموات يامجيب الدعوات ، ياقاضى الحاجات ، ياخالق الأرض والسموات .

أنت الله الذى لا إلهَ إلّا أنت الواحد الأحد ، الفرد الصمد الوهاب الذى لا يبخل ، والحليم الذى لا يعجل ، لارَادَّ لأمرك ، ولا معقب لحكمك رَبّ كُلّ شَىْءٍ ، وَمَلِيكَ كلّ شىءٍ ومقدر كل شىءٍ .

أسألك أن ترزقنى علمًا نافعًا ، ورزقًا واسعًا ، وَقَلْبًا خاشعًا ، ولسانًا ذاكرًا ، وعملًا زكيًّا ، وإيمانًا خالصًا ، وهب لنا إنابة المخلصين ، وخشوعَ المخْبتين ، وأعمالَ الصالحين ، ويقينَ

الصادقين ، وسَعادَ المتقين ، وَرَجاءَ الفائزين ، يا أفضل مَن قُصد ، وأكرم من سُئل ، وأحلم من أُغْضِب ، ما أحلمك على مَنْ عصاك ، وأقربك إلى مَن دعاك ، وأعطفك على من سألك ، لامَهْدِى إلَّا من هَدَيْت ، ولاضالَّ إلَّا من أضللت ، ولا غَنِىَّ إلَّا من أغْنَيْتَ ولا فقير إلَّا من أفقرت ، ولا معصوم إلَّا من عصمت ولا مستور إلَّا مَن سترت » .

أسألك أنْ تهب لنا جزيل عطائك والسعادة بلقائك ، لمزيد من نعمك وآلائك ، وأن تجعل لنا نوراً فى حياتنا ، ونوراً فى مماتنا ، ونوراً فى قبورنا ، ونوراً فى حشرنا ، ونوراً نتوسل به إليك ، ونوراً نفوز به لديك فإننا ببابك سائلون وبنوالك مُعترفون ، وللقائك راجون . اللهم اجعل خير عمرى آخره ، وخير عَمَلِي خواتمه ، وخير أيامى يوم لقائك .

اللهم ثَبِّتْنى بأمرك ، وأيِّدْنِى بنصرك ، وارزقنى من فضلك ، ونجنى مِنْ عذابك ، يوم تبعث عبادك ، فقد أتيتك لرحمتك راجياً ، وعن وطنى نائياً ، وَلِنُسُكِى مُؤَدِّياً ، ولفرائضك قاضياً ، ولكتابك تالياً ولك داعياً ، ولقسوة قلبى شاكياً ، ومن ذنبى خاشياً ، ولنفسى ظالماً ، وبِجُرْمِى عالماً ، دُعَاءَ مَنْ جَمَّتْ عُيُوبُه ، وكثرت ذُنوبه ، وَتَصَرَّمَتْ أماله ، وبقيت آثامه ، وانْسَلَبَتْ دَمْعَتُهُ ، وانقطعت مُدته ، دُعاءَ من لايجد لِذَنْبه غَافِراً غيرك ، ولا لِمَأْمُولِه مِن

الخيرات مُعْطيا سواك ، ولا لِكسْرِه جابرا إلا انت ، يا ارحم الراحمين ، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العليّ العظيم . اللهم لاتقدّمْنى لعذابك ، ولاتؤخرنى لِشَىْءٍ من الفتن .

مولاى فها آنا أدعوك راغباً ، وأنْصِبُ إليك وجهى طالباً ، وأضع لك خَدِّى مَهيناً رَاهباً ، فتقبّلْ دُعائى ، وأصلح الفاسد من أمْرِى واقْطعْ من الدنيا هَمِّى وحاجتى ، واجْعل فيما عندك رغبتى ، وأقلِبْنى مُنْقَلَب المنكورين عندك ، المقبول دعاؤهم ، القائمة حجّتُهم ، المغفور ذنبهم ، المبرور حجّتهم المحطوطة خطاياهم ، المَمْحوّة سَيِّئَاتُهم ، الراشد أمرهم ، مُنْقلب من لايَعْصِى لك أمراً ، ولايأتى بعده مَأْثماً ولايحمل بعده وِزْراً ، مُنْقَلب مَن عَزَّزْتَ بذكرك لسانه ، وطهّرت من الأدْنَاس بَدَنَهُ ، واستودعت الهُدَى قَلْبَهُ ، وشرحت بالإسلام صدره ، وأقررْت برضائك وعفوك قبل الممات عَيْنَه ، وغَضَضْتَ عن المآثم بَصَره ، واستعملت فى سَبِيلِكَ نَفْسَه .

وأسألك ألاَّ تجعلنى أشقى خلقك المذنبين عندك ، ولا أخْيَبَ الرّاجين لديك ، ولا أحْرم الآملين لرحمتك ، ولا أخسر المُنقلبين من هذا الموقف العظيم ، مَوْلاىَ رَبّ العالمين .

اللهم وقد عوتك بالدعاء الذى عَلمْتَنِيه فلا تَحْرمنى الرّجاءَ الذى عرّفْتَنِيه ، يامن لاتنفعه الطاعة ، ولاتَضُرّه المعصية ، وما أعطيتنى مما أُحب فاجعله لى عوناً فيما تُحب ، واجعله لى خيراً ،

وَحَبِّبْ طاعتك لى ، والعمل بها ، كما حَبَّبْتَهَا إلى أَوليائك حتى رَأَوْا ثَوَابَهَا ، وكما هديتنى للإِسلام فلا تنزعه مِنِّى حتى تَقْبِضَنى إِليك وأَنا عليه ٠

اللهم حَبِّبْ إِلَىَّ الإِيمان وزينه فى قلبى ، وَكَرِّهْ إِلَىَّ الكفر والفُسُوق والعصيان ، واجعلنى من الراشدين ٠

اللهم اخْتم بالخيرات آجالنا ، وحقق بفضلك آمالنا ، وسَهِّل لبلوغ رضاك سبلنا ، وحَسِّن فى جميع الأَحوال أَعمالنا ، يامُنقذ الغَرْقى ، يا مُنجى الهَلْكَى ، يا شاهد كل نَجْوى ، يا مُنْتَهَى كل شَكْوَى ، يا قديم الإِحسان ، يا دائِم المعروف ، يامن لا غِنَىَ لِشَىْءٍ عَنْه ، ولا بد لكل شىءٍ منه ، يا من رِزْقُ كل شىءٍ عليه ، ومصير كل شىءٍ إليه ، إِليك رُفِعَتْ أَيدى السائلين ، وامتدت أَعناقُ العابدين ، نسأَلك أَن تجعلنا فى كَنَفِكَ وجوارِك ، وحِرْزِكَ وعِيَاذِكَ ، وسَتْرِكَ وأَمانك ٠

اللهم إِنا نعوذ بك من جَهْدِ البلاءِ ، وَدَرْك الشقاءِ ، وشماتة الأَعداءِ ، وسوءِ المنظر والمنقلب ، فى الأَهل والمال والولد ٠

اللهم لا تدع فى مَقَامِنَا هذا ذنباً إلا غَفَرْته ، ولا هَمًّا إِلَّا فَرَّجته ، ولا غائباً إِلَّا رَدَدْته ، ولا كَرْبًا إِلَّا كشفته ، ولا دَيْنًا إِلَّا قضيته ، ولا عدُوًّا إِلَّا كَبَتَّهُ ، ولا فسادًا إِلَّا أَصْلَحْته ، ولا مريضًا إِلَّا عَافَيْتَه ولا خَلَّةً إِلَّا سَدَدتها ، ولا حاجة من حوائج الدنيا

والآخرة لك فيها رِضًا ، ولنا فيها صلاح إلا قضيتها ، فإنك تهدى السَّبِيلَ ، وتجبر الكَسِير ، وتُغْنى الفقير .

اللهم إنه لا بد لنا من لقائك ، فاجعل عندك عذرنا مقبولاً ، وذنبنا مغفوراً ، وعلمنا موفوراً ، وسعينا مشكوراً ، أَصبح وجهى الفانى مُستجيراً بوجهك الباقى القيوم ، ذى العزة والجبروت .

اللهم لا يمنعنى منك أَحدٌ إذا أَردتنى ، ولا يعطينى أَحدٌ إذا حرمتنى ، فلا تحرمنى بِقِلَّة شُكْرِى ، ولا تَخْذُلْنى بِقِلَّةِ صَبْرِى .

اللهم اجعل الموت خيرَ غائبٍ نَنْتَظِره ، والقبر خيرَ بيتٍ نعمره ، واجعل ما بعده خيراً لنا منه ، رَبِّ اغْفر لِى ، ولوالدى ، ولأبنائى ، ولإِخْوَانى ، وأَهل بيتى ، وذريتى ، وللمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأَحياءِ منهم والأَموات .

اللهم إنى أَسأَلك إِيماناً يُبَاشِرُ قلْبى ، ويقيناً صادقاً ، حتى أَعلم أَنه لا يُصِيبُنى إِلَّا ما كَتَبْتَ لِى ، وَرَضِّنى بقضائك ، وأَعِنى على الدنيا بالعفة والقناعة ، وعلى الدِّين بالطاعة ، وطَهِّرْ لِسَانى من الكذب ، وقلبى من النفاق ، وعملى من الرِّيَاءِ ، وبَصَرِى من الخِيَانة ، فإِنك تَعلم خائِنَة الأَعين وما تُخْفى الصُّدور .

اللهم ارحم غُرْبَتى فى الدنيا ، ومَصْرعى عند الموت ، وَوحْشَتى فى قِبْرِى ومقامى بين يديك ، اللهم أَنت السلام ومنك

السلامُ ، تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام .

اللهم أنت الملك لا إلهَ إلّا أنت ، وأنا عبدُك ظلمْتُ نفسى ، واعترفت بذنبى ، فاغْفِر لِى ذنوبى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق ، فلا يهدى لأحسنها إلّا أنت ، واصرف عنى سَيِّئَها ، فإنه لا يصرف سيئها إلا أنت .. لبَّيكَ وَسَعْدَيْكَ والخيرُ بِيَدَيْكَ ، وأتوب إليك .

اللهم أحْيِنى مَا عَلِمْتَ الحياةَ خيراً لى ، وتَوَفَّنى ما عَلِمْتَ الوفاةَ خيراً لِى ، واهدنى لأرشد أمْرِى وأجِرْنى مِن شرِّ نفسى .

اللهم أحْسِن عاقبتنا فى الأمُور كُلها ، وأجِرْنا من خِزْىِ الدنيا وعذاب الآخرة ، وارحم غربتى فى الدنيا والآخرة ، وتَضَرُّعِى عندَ الموت ، وَوحْدَتى فى القبر ، ومقامى بَيْنَ يَدَيْكَ .

اللهم إنى أسألُكَ باسْمِك الطيِّب الطّاهِر المبَارك الأحب إليك ، الذى إذا دُعيت به أجَبْتَ ، وإذا اسْتُرْحِمْتَ به رَحِمْتَ ، وإذا اسْتُفْرِجْتَ به فَرَّجْتَ ، أن تُعيذَنى من الكفر والفقر ، والقِلَّةِ والذِّلَّةِ والعِلَّةِ ، وكافة الأمراض والأعراض ، وسائر الأسقام والآلام ، وأسْألُكَ فواتحَ الخَيْرِ وخَواتِمَهُ وجوامِعَهُ ، وأوّله وآخره ، وظاهر وباطنه ، والدّرَجَاتِ العُلاَ .

اللهم إنى أسألك فرجاً قريباً ، ونصراً عزيزاً ، وصبراً جميلاً ، وفتحًا مُبيناً ، وعلمًا كثيراً نافعاً ، ورزقاً واسعاً مُباركاً فى

عافية بِلاَ بَلاءِ ، وأسألك تمامَ العافيةِ والشُّكْر على العافية ٠

اللهم اقسم لنا مِنْ خشيتك ما تَحُول بِهِ بَيْنى وبين معاصيك ، ومِنّ طاعتك ما تبلغنى به جَنَّتك ، ومن اليقين ما تُهَوِّن به على مصائب الدنيا ، ومَتِّعْنى اللهم بسمعى ، وبصرى ، وبدينى ، واجعلها الوارث مِنى ، واجْعلْ ثارى على من ظلمنى ، وانْصرنى على مَنْ عَادَانى ، ولا تجعل الدنيا أكبر همى ، ولا مَبْلَغَ عِلْمِى ، ولا إلى النَّاس مَصيرى ٠

اللهم إنى أَسْأَلك بنور وجهك الكريم ، وسلطانك القديم ، تَوْبَةً صادقةً وَأَوْبَةً خَالصةً ، وإنَابَةً كامِلَةً ومَحبَةً غَاليةً ، وشَوْقاً إليك ، ورغبة فيما لديك ، وفرجًا عاجلاً ، ورزقًا واسعًا ، ولساناً رَطْبًا بذكرك ، وقلباً مُفعماً بِشُكرك ، وبدنًا هَيِّناً لَيِّناً بطاعتك ، واعْطِنَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، ولا خَطَر على قلب بشر ٠

اللهم إنَّا نَعُوذُ بكَ من الفقر إلّا إليك ، ومن الذل إلّا لك ، ومن الخوف إلاَّ منك ، وأعوذ بك أن أقول زوراً ، أو أغْشَى فُجُوراً ، أو أكُون بك مغْروراً ، ونَعُوذُ بك من شماتَةِ الأَعْدَاءِ ، وعضال الداءِ وخيبةِ الرجاءِ ، وزوال النعمْ ، وفُجاءَةِ النِّقَمْ ، يامن فتح بابه للطالبين ، وأظهر غِنَاهُ للراغبين ، وأطلق ألْسنة القاصرين ٠ ألهمنا ما ألْهَمْتَ عِبادك الصالحين ، وأيقظنا من رقدة الغافلين ، إنك مُنْعِم وأعز معين ٠

اللهم إن عيوبنا لا يسترها إلا محاسن عَطْفِك ، وذنوبنا ا
يغفرها إلَّا واسعُ إحسانك وعفوك ، واجْعَلنا من المتقين الأبرار
واسْلُك بِنَا سَبيلَ عِبَادك الأَخيار ، وأَلهمنا رُشدنا ، وأَجزلْ مِن
رِضْوانك حَظّنا ، ولا تَحْرِمنا بِذُنُوبِنَا ، ولا تَطْرُدْنا بِعُيُوبِنَا ، ولا
تَقْطَعْنَا من بِرّك ، ولا تُنْسِنَا ذِكْرك ، ولا تهتِكْ عَنَّا سِتْرَك ، واغفر
لَنَا ما اقْتَرَفْنَاهُ من ذنوبنا ، واعْفُ عن تقْصِيرنا في طاعتك
وشُكْرك ، وأَدِمْ لنا لُزوم الطريق إليك ، وهب لنا نوراً نهتدي به
إليك ، وارزقنا حلاوة مُناجاتك واسْلُك سَبيل مَرضاتك واقْطَع عنا
كل مَا يُبْعِدُنا عن خِدْمتك وطاعتك ، وأنقذنا من دركاتنا وغفلاتنا
وألهمْنَا رُشْدَنَا ، وحَقِّقْ فيك قَصْدَنَا ، واسْتُرنا في دُنْيانا وآخرتنا
واحْشُرْنا في زمرة المُتَّقِينَ ، وأَلْحِقْنَا بِعِبَادِكَ الصَّالِحين .

اللهم اجعلنا من الأئمة الأبرار ، وأَسْكِنَّا معهم في دا
القرار ، ولا تجعلنا من الخالفين الفُجَّار ، ووَفِّقنا لحسن الإقبال
عليك ، والإِصْغَاءِ إليك ، والمبادرة إلى خدمتك ، وحسن الأدب في
معاملتك ، والتسليم لأمرك والرِّضَا بِقَضائك ، والصَّبْر على
بَلائك ، والشُّكر على نعمائك ، وأَعِذْنا من أحوال الشَّقَاء ، ووفقنا
لأَعمال أهل التُّقى ، وارْزُقْنا الاستعداد ليوم اللقا ، بل من علينا
الاعْتماد وَالتَّكل .

اللهم انهج بِنَا مَنَاهِجَ المفْلِحِين ، وأَلْبِسْنَا خِلَع الإيمان

واليقين ، وخُصَّنا منك بالتّوفيق المبين ، ووفّقنا لقول الحـق واتباعه ، وخلصنا من الباطل وابتداعه ، وكن لنا مُؤيّداً ، ولا تجعل لفاجر علينا يَدًا ، واجْعَلْ لنا عَيْشاً رَغدا ، ولا تُشْمِتْ بِنَا عَدُواً ولا حاسداً ، وارْزُقنا عِلْماً نَافِعًا ، وعَملاً مُتقَبّلاً ، وفَهْماً ذَكياً ، وَطبْعاً صَفِياً وَشِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ .

اللهم عَامِلنْا بغفرانك ، وامْنُنْ علينا بِفَضْلِكَ وإحْسَانِكَ ، وَنجِّنَا من النّار ، وعَافِنَا من دار الخِزْي والْبَوَار ، وأدْخلنا بفضلك الجنة دار القَرَار ، واجْعلنا مع الذين أنعمت عليهم فى دار رضوانك ، يا من ظهرتْ معْرِفتُه للقلوب فلا يَخْفى وُجُودُهُ ، وَعَمّ جميع خلقه كرمُه وجُودُهُ .

اللهم لا تجعل هذا آخر عَهْدِى من هذا الموقف العظيم ، وارزقنى الرجوع إليه مَرّات كثيرة بلطفك الْعَمِيم ، واجعلنى فيه مُفلحًا مَرْحُومًا مُسْتَجَاب الدعاءِ فَائزاً بالقبول والرِّضْــوَان ، والتَّجَاوُز والغُفْران ، والرِّزق الحلال الواسع ، وبَارِكْ لى فى جميع أُمورى ، وما أرجع إليه من أهلى ومَالى وأولادى . رَبَّنَا آتنا فى الدُّنيا حسنةً وفى الآخرةِ حَسَنَةً وقِنَا عذابَ النَّارِ . واغفر لنا ولِوَالِدينَا وَوَالِدِ والِدِينَا وذُرِّيَاتِنَا وإخْوَانِنَا وأهْلينا والحَاضِرِينَ والْغَائبِينَ من المسلمين أجمعين ، بِرحْمَتِكَ يا أرحم الرَّاحِمِينَ ، وصلى الله على سيدنا محمد وعَلَى آلِهِ وصحبهِ أجمعين .

دُعَاءُ المشعرِ الحَرام

بعدَ صلاة الصبح

يَرْقىٰ عليه إن أمكنَ أَو يقف عنده فيحمد الله تعالى ويهلِّلُ ويُكَبِّرْ ويَدْعُو فيقول :

اللهم ، كما أَوْقَفْتَنَا فيه وأَرَيْتَنَا إِيَّاهُ فَوَفِّقْنَا لذكرك كما هَدَيْتَنَا واغْفِرْ لنا وارْحَمْنَا كما وعدْتنا بقولك الحق « فإذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا الله عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرَامِ واذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لمِنَ الضَّالِينَ * ثُمَّ أَفيضُوا من حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ واسْتَغْفِرُوا الله إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

(٢ : ١٩٨ ، ١٩٩) .

اللهم ، إنا نسألك يا غفور يا رحيم أن تفتح لأدعيتنا أبواب الإجابة يا من إذا سأله المضطرُّ أجابَهُ ، يا من يقول للشيء : كُنْ فيكون .

اللهم إنا جئناك بجمعنا مُتشفِّعينَ إليك في غفران ذُنُوبِنَا ، فلا تَرُدَّنَا خائبين ، وآتنا أفضل ما تُؤْتي عبادك الصالحين ، ولا تصرفنا من هذا المَشْعَرِ العظيم إلّا فائزين مُفلحين ، غير خَزَايَا ولا نَادِمِينَ ولا ضالِّين ولا مُضِلِّينَ ، يا أَرحم الراحمين .

اللهم وفِّقنا للهُدَىٰ واعْصِمْنَا من أسْبَابِ الجَهْل والرَّدَىٰ ،

وسَلِّمْنَا من آفاتِ النُّفوسِ فإنَّهاَ شَرُّ العِدا ، واجْعَلْنَا مَمَّنْ أقبلت عليه ، فَأعْرِضَ عَمَّن سِوَاكَ ، وخذ بأيْدِينا إليك ، وارْحم تَضَرَّعَنا بين يديك ..

إلهنَا قَوِّمْنَا إذَا اعْوَجَجْنَا وَأعِنَّا إذا اسْتَقَمْنَا ، وَكُنْ لنَا ولا تَكُنْ عَلَيْنَا ، وأحْيِنَا فى الدنيا طائعين مؤمنين وتوَفَّنَا تائبين ، واجْعَلْنَا عِنْد السُّؤَال ثَابِتِينَ ، واجْعلنا مَّمنْ يأُخذ كتابه بِالْيَمين ، واجعلْنَا يَوْم الفَزَعِ الأكْبَر من الآمنين ، وَمتِّعْنَا اللهم بالنَّظر إلى وَجْهِكَ الكَريم ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

وَيُكْثِرُ بعد ذلك من الذِّكْر ، وَمِنْ قَوْلِ :

«رَبَّنَا آتِنَا فى الدُّنْيَا حَسَنَةً وفى الآخرةِ حَسَنَةً وَقِنَا عذَاب النَّار ٢ : ٢٠١ » .

دخول منى

○ اللهم هذا منى ، هذا ما دَلَلْتَنَا عليه من المناسك ، فَمُنَّ عَلَيْنَا بِجَوَامِعِ الخيرات ، وبما مَنَنْتَ بِه على إبراهيم خليلك ومحمد حبيبك وَبِما مَنَنْتَ به على أهل طاعتك ، فإنى عبدُك وناصِيتى بيدِكَ ، جئت طالباً مَرْضَاتَك ، فَارْضَ عَنى وارْحَمْنى يا أرحم الرّاحِمين .

رمي الجمار

○ تقول بعد أَنْ ترْمِي كُلَّ جَمْرَةٍ ــ ما عَدَا العَقَبَةِ ــ وأَنْتَ بعيدٌ عَنِ الزَّحْمَةِ :

الله أكبر الله أكبر الله أكبر كَبِيراً والحمدُ لله كَثِيراً وسُبْحَانَ الله بُكْرَةً وَأَصِيلاً ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، ولا نَعْبُد إِلَّا إِياهُ ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ ، صَدَقَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَالله أَكْبَرُ .

اللهم اهْدِنِي بِالْهُدَى ، وَقَنِّعْنِي بِالتَّقْوَى واغْفِرْ لِي في الآخِرَةِ والأُولَى .

اللهم اجْعَلْهُ حَجًّا مَبْرُورًا وَذَنْبًا مَغْفُوراً وعَمَلاً مَشْكُوراً .

اللهم أَتِمَّ لَنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنت التَّــواب الرَّحِيمُ .

عند الذبح

○ بِسْمِ اللهِ وَاللهُ أَكْبَرُ « إِنَّ صلاتي ونُسُكِي وَمَحْيَايَ ومَمَاتي لِلهِ رَبِّ العَالَمِين لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وأَنا أَوَّلُ المسلمين » .

اللهُمَّ هَذا مِنْكَ وَإِلَيْكَ . اللهُمَّ إن هذا عَنِّي ، أَوْ عَنْ فُلَانٍ فَتَقَبَّلْهُ قَبُولاً حَسَناً يارَبَّ الْعَالَمِينَ .

الدُّعاءُ عِندَ الحَلق

○ اسْتَحَبّ بَعضُ العُلَمَاءِ أَنْ يُمْسِكَ نَاصِيَتَهُ بِيَدِهِ حَالَةَ الحَلْقِ وَيُكَبِّرَ ثَلَاثاً ثُمَّ يَقُولُ :

الحمدُ لله على ما هدانا ، الحَمْدُ لله على ما أنعم به علينا .

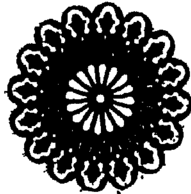
اللهم هَذِهِ نَاصِيتَى فَتَقَبَّلْ مِنى واغْفِرْ لِى ذُنُوبِى .

اللهم اغْفِرْ لى وَلِلْمُحَلِّقِينَ والْمُقَصِّرِينَ يَا وَاسِعَ المَغْفِرَةِ . آمِينَ .

فإذا فَرَغَ مِنَ الحَلْقِ قَالَ :

اللهُ أكبر ، الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى قَضَى عَنَّا نُسُكَنَا .

اللهم زِدْنَا إِيمانًا وَيقيناً وتَوْفِيقاً وَعَوْناً وَاغْفِرْ لَنَا وَلآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا وَلِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ .



طواف الوداع

□ « إنَّ الذِى فرَضَ عَليْكَ القُرْآنَ لَرادُّكَ إلَى مَعَادٍ » يا مُعِيذُ أَعِذْنى ، وَيَا سَمِيعُ أَسْمِعْنى ، ويَا جَبَّارُ اجْبُرْنى ، وَيَا سَتَّارُ اسْتُرْنى ، وَيَا رَحْمنُ ارْحَمْنى وَارْدُدْنى إلَى بَيْتكَ هَذَا ، وارْزُقْنى إلَيْهِ الْعَوْدَ ثُمَّ العَوْدَ كَرَّاتٍ بَعْدَ مَرَّاتٍ ، تَائِبِينَ عَابِدِينَ سَائِحِينَ لِرَبِّنَا حَامِدِينَ ، صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ ونَصَرَ عَبْدَهُ ، وَأَعزَّ جُنْدَهُ وهَزَمَ الأحْزَابَ وَحْدَهُ .

اللهم اكْتُبِ السَّلامَةَ والعَافِيةَ والغَنِيمَةَ لنا ولِعَبِيدِك الحُجَّاجِ وَزُوّارِ بَيْتِكَ والغُزَاةِ والمسَافِرِينَ والمُقِيمِينَ فى بَرِّكَ وَبَحْرِكَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ أجْمَعِينَ .

اللهم احْفَظْنى عَنْ يمِينى وَعَنْ يَسَارِى وَمِنْ قُدَّامِى ومِنْ وَرَاءِ ظَهْرِى وَمِنْ فَوْقِى وَمِنْ تَحْتِى حَتى تُوصِّلَنى إلَى أهْلِي وَبَلَدِى ، أسْألُكَ ألاَّ تُخْلِينى مِنْ رَحْمَتِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلاَ أقلَّ مِنْ ذلِكَ .

اللهم كُنْ لَنَا صَاحِبًا فى سَفرِنا ، وخَلِيفةً فِى أهلِنا ، واطْمِسْ عَلَى وُجُوهِ أعْدَائِنَا وامْسَخْهُم عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ المضِىَّ وَلاَ المَجِىءَ إلَيْنَا .

اللهم لا تَجْعله آخِرَ العَهْدِ مِن بيتِكَ هَذَا ، اللهم ارْحَمْنى بِتَرْكِ المعَاصِى أَبداً مَا أبْقَيْتَنى ، وارْحَمْنى أنْ أتَكلَّفَ مَالاَ يَعْنِينى ،

وارْزُقْنى حُسْنَ النَّظَرِ فيما يُرْضِيكَ عَنِّى .

اللهم مَتِّعْنى بِبَصَرى واجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنى وَأَرِنى مِنَ العَدُوِّ ثَأْرِى ، وانْصُرْنى على مَنْ ظَلَمَنى .

اللهم إنى أعُوذُ بكَ مِنَ الهَمِّ والْحَزَنِ ، وَأعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ والكَسَلِ ، وَأعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ والبُخْلِ ، وَأعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وقَهْرِ الرِّجَالِ .

اللهم إنى أسْألُكَ فى سَفَرِنَا هَذَا البِرّ والتَّقْوَى وَمِنَ العَمَلِ مَا تَرْضَى .

اللهم هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ .

اللهم أَنْتَ الصَّاحِبُ فى السَّفَرِ والْخَلِيفَةُ فى الأَهْلِ

اللهم إنى أعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَة المَنْظَرِ وَسُوءِ المُنْقَلَبِ فى المالِ وَالأهْلِ والوَلَدِ .

اللهم اصْحَبْنَا بِعَفْوِكَ وَاقْلِبْنَا بِعَافِيتِكَ .

اللهم اطْوِلَنَا الأرْضَ وَهَوِّنْ عَلَيْنَا السَّفَرَ وَسَلِّمْنَا مِنْ كَآبَة المُنْقَلَبِ .

اللهم بَلاغا يَبْلغ خَيْرا ، وَسَترا مِنْكَ وَرِضْوَانا ، بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ .

اللهم هَوِّنْ عَلَيْنَا السَّفَرَ ، واطْوِ لَنَا الأرْضَ .

اللهم اصْحَبْنَا فى سَفَرِنَا واخْلُفْنَا فى أَهْلِنَا .

اللهم احْفَظْنى مِنْ بَيْنِ يَدىّ وَمِنْ خَلْفى وَعَنْ يمينى وَعَنْ شِمَالى وَمِنْ فَوْقى ، وأَعُوذُ بِعَظَمتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتى يا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ ..

يَاربّ العَالَمِينَ .

دعاء الملتزم بعد طواف الوداع

☐ إذَا أَرادَ الخُرُوجَ مِنْ مَكَّةَ يَقِفُ بالملتزم ، وَيُلْصِقُ بِهِ جَمِيعَ بَدَنِهِ .. ويقول :

اللهم هذا بَيْتُكَ وأَنا عَبْدُكَ وابْنُ أَمتِكَ ، حَمَلْتَنى عَلَى مَا سَخَّرْتَ لِى مِنْ خَلْقك ، وَسَيَّرْتَنى فى بلادِكَ ، حتى بَلَّغْتَنى بنعمتك إلى بيتك ، وأَعَنْتَنى عَلَى أَدَاءِ نُسُكى ، فَإِنْ كُنْتَ رَضِيتَ عَنى فَازْدَدْ عَنى رِضاً ، وإلا فَمُنَّ عَلَىَّ الآن قَبْلَ أَنْ تَنْأَى عن بَيْتِكَ دَارِى ، وهذا أَوانُ انْصِرَافى إِنْ أَذِنْتَ لِى غَيْرَ مُسْتَبْدِلٍ بِكَ وَلَا بِبَيْتِك ، ولا رَاغِبٍ عَنْكَ وَلَا عَنْ بَيْتِكَ .

اللهم فَاصْحبْنى العَافِيةَ فى بَدَنى والصِّحَّةَ فى جِسْمِى ، وَالعِصْمَةَ فِى دِينى وَأَحْسِنْ مُنْقَلَبى وَارْزُقْنى طَاعَتَكَ مَا أَبْقَيْتَنى ، واجْمَعْ لِى بَيْنَ خَيْرَىِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِير وَصَلِّ الله عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

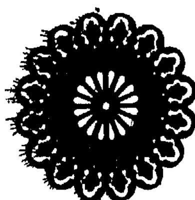
الدعاء عند دخول المدينة المنورة

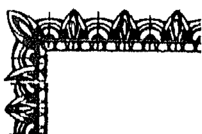
اللهم ، إنَّ هذا هُوَ الحَرَمُ الَّذِى حَرَّمتَهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِكَ فَحَرِّمْ جَسَدِى عَلَى النَّارِ ، وَآمِنِّى مِنْ عَذَابِكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ ، وارْزُقْنِى مَا رَزَقْتَ أَوْلِيَاءَكَ ، وَوَفِّقْنِى لِحُسْنِ الأَدَبِ وَفِعْلِ الخَيْرِ بِفَضْلِكَ يَا أَرْحَمَ الراحِمِينَ .

اللهم إنى أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فى الأَمْرِ وَعَزِيمَةَ الرَّأْىِ وشُكْرِ النِّعْمَةِ .

وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا وَقَلْبًا سَلِيماً .

وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعلمُ وَأَسْتَغْفِرُكَ مِمَّا تَعْلَمُ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّام الغُيُوبِ .






مَايقال عِندَ زِيارة مسجد الرسُول صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلم

□ إذا وصل الحاجُّ المسْجِدَ الشَّرِيف عليه أَنْ يُصَلِّي رَكعتين تَحِيةَ المسْجِدِ .. ثُمَّ يَقِفُ أَمَامَ القَبْرِ الشَّرِيف .. ويقولُ :

السَّلامُ عَلَيْكَ يارَسُولَ اللهِ .

السَّلامُ عَلَيْكَ يانَبِيَّ الله .

السَّلامُ عَلَيْكَ يا خَيْرَ خَلْقِ الله .

السَّلامُ عَلَيْكَ يا صَفْوَةَ اللهِ .

السَّلامُ عَلَيْكَ يا سَيِّدَ المرْسَلِينَ وَيَا خَاتَم النَّبِيِّينَ ، وَقَائِدَ الغُرِّ المحَجَّلِينَ .

السَّلامُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ الطَّيبِينَ الطَّاهِرِينَ .

السَّلامُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَزْوَاجِكَ الطَّاهِرَاتِ أُمَّهَاتِ المؤْمِنِينَ .

السَّلامُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَصْحَابِكَ أَجْمَعِينَ ، وَعَلَى سَائِرِ الأَنْبِيَاءِ والمرسلين ، وعِبَادِ اللهِ الصالِحِينَ ، جَزَاكَ اللهُ أَفْضَلَ مَا جَازَى نَبِيّا عن أُمَّته ، أَشْهَدُ أن لا إله إلا الله ، وأَشْهَدُ أَنَّكَ عَبْدُهُ وَرَسُولُه ، وَأَمِينُهُ عَلَى وَحْيِهِ ، وَخَيْر خَلْقِهِ ، وأَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغتَ الرِّسَالَة وأَدَّيْتَ الأَمَانة ، وَنَصَحْتَ الأُمَّةَ وَجَاهَدْتَ فى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ .

اللهم آته الوَسِيلة والفضِيلة والدَّرَجة العَالِية الرفِيعة وابْعَثه

المقَامَ المحْمُودَ الَّذِى وَعَدْتَهُ ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ المِيعَاد .

اللهم صلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آل مُحَمد كمَا صَليتَ علَى إبراهيم وعَلى آل إبراهيم وبَارك عَلى مَحمَّدٍ وَعَلَى آل مُحَمَّدٍ كمَا بَاركتَ عَلى إبراهيم وَعَلى آل إِبراهيم إنكَ حَميدٌ مَجيدٌ .

○ ثُمَّ يَنْتقل إلَى قبر أبى بَكْرٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ .. فَيَقُولُ :

السَّلامُ عَلَيْكَ يَا خَلِيفَةَ سَيدِ المُرسَلِينَ ، جَزَاكَ اللهُ عَنِ الإِسلامِ والمسْلِمِينَ خَيْراً .

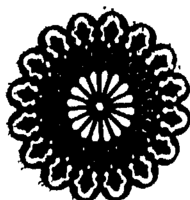
اللهم ارْضَ عَنْهُ .

ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى قَبْرِ عُمَربن الخَطَّابِ .. فَيَقُولُ :

○ السلام عليك يَا أمير المُؤْمِنِينَ ورَحمةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ، جَزَاكَ اللهُ عَنَ الإِسْلَامِ والمسْلِمِينَ خَيْراً .

اللهُمّ ارْضَ عَنْهُ .

وَصلَّى اللهُ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



المراجع

١ ـ القرآن الكريم ٠

٢ ـ الأحاديث النبوية الشريفة

٣ ـ صحيح البخارى ٠

٤ ـ تفسير الطبرى ٠

٥ ـ تفسير البغوى ٠

٦ ـ تفسير ابن كثير ٠

٧ ـ تفسير الفخر الرازى ٠

٨ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل ٠

٩ ـ فتح البارى لابن حجر العسقلانى ٠

١٠ـ الإصابة لابن حجر العسقلانى ٠

١١ـ الاستيعاب لابن عبد البر الأندلسى ٠

١٢ـ مناسك الحج لابن تيمية ٠

١٣ـ الجامع الصغير للسيوطى ٠

١٤ـ الأوائل للسيوطى ٠

١٥ـ مروج الذهب للمسعودى-تاريخ ٠

١٦ـ العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى ٠

١٧ـ العقد الثمين للفاسى-تاريخ ٠

١٨ـ شفاء الغرام للفاسى ٠
١٩ـ معجم البلدان لياقوت الحموى ٠
٢٠ـ النهاية ـ فى تفسير غريب الحديث ـ لابن الأثير ٠
٢١ـ نهاية الأرب فى أنساب العرب للقلقشندى ٠
٢٢ـ تاريخ الكعبة المعظمة لحسين باسلامة ٠
٢٣ـ أخبار مكة لأبى الوليد الأزرقى
٢٤ـ تاريخ مكة للسباعى ٠
٢٥ـ مع المصطفى فى عصر المبعث للدكتورة عائشة عبد الرحمن ٠
٢٦ـ السيرة النبوية لعبد الحميد جودة السحار ٠
٢٧ـ السيرة النبوية لابن هشام ٠
٢٨ـ تاج العروس للزبيدى ٠
٢٩ـ قاموس الكتاب المقدس لجورج بوست ٠
٣٠ـ قصص الأنبياء لابن كثير ٠
٣١ـ كتاب الأصنام لابن الكلبى ٠
٣٢ـ القاموس المحيط للفيروز ابادى ٠
٣٣ـ إمتاع الأسماع للمقريزى ٠
٣٤ـ تاريخ الطبرى ٠
٣٥ـ معجم القبائل لعمر رضا كحالة ٠

٣٦ـ جمهرة الأنساب لابن حزم الأندلسى
٣٧ـ بلوغ الأرب للآلوسى ·
٣٨ـ البداية والنهاية لابن كثير ·
٣٩ـ تاريخ ابن خلدون ·
٤٠ـ تاريخ القطبى ·
٤١ـ التعريف والاعلام للسهيلى ·
٤٢ـ تاريخ جدة للأنصارى ·
٤٣ـ القصد والأمم لابن عبد البر الأندلسى ·
٤٤ـ تاريخ الحضارة ·
٤٥ـ التبر المسبوك للمقريزى ·
٤٦ـ الكامل فى التاريخ لابن الأثير ·
٤٧ـ عيون الأثر فى السيرة لابن سيد الناس اليعمرى
٤٨ـ رحلة ابن جبير ·
٤٩ـ رحلة البتنونى ·
٥٠ـ رحلة ابن بطوطه ·
٥١ـ مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت ·
٥٢ـ سنن أبى داوود ·
٥٣ـ دلائل النبوة لأبى نعيم ·
٥٤ـ الروض الأنف للسهيلى ·

٥٥ـ لسان العرب لابن منظور .

٥٦ـ الاعلام للزركلي .

٥٧ـ تاريخ الاسلام للذهبى .

٥٨ـ المحبر لابن حبيب .

٥٩ـ دائرة المعارف .

٦٠ـ مجمع الأمثال للميدانى .

٦١ـ المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية .

٦٢ـ مرادف العامى والدخيل لرشيد عطية .

